ميا كوتو

اعترافات شرسة

مكتبة ياسمين

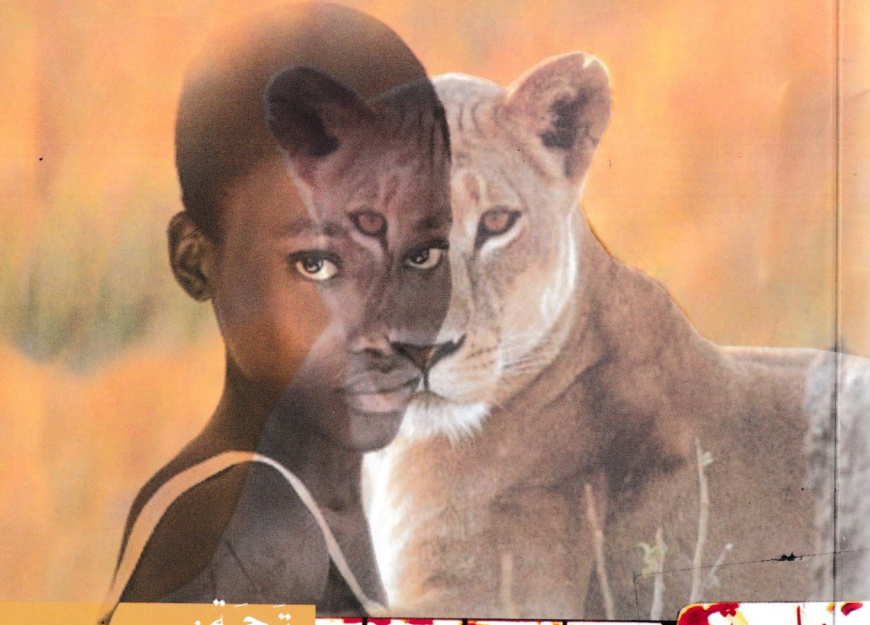

ترجمة:
مارك جمال

رواية

دار الآداب

في قرية إفريقيَّة نائية، تتكرَّر هجماتُ الأُسود الغامضة، ما يُسفر عن سقوط عدد من القتلى. وهكذا يُكلَّف الصيَّاد آركانچو بالقضاء على ذلك التهديد استجابةً لنداءات الاستغاثة. تتشابك مصائرُ شخوص الرواية بين الماضي والحاضر، فيلتقي الصيَّاد - الآتي من العاصمة - ماريامار، ابنةَ القرية المُتمرِّدة، التي تملك رأيها الخاصّ بشأن هويَّة الأسود الحقيقيَّة.

بلغة شعريَّة مرهفة، ينطلق الروائيُّ من تجاربه الحياتيَّة وينسج لنا خيوطَ عالمٍ غرائبيّ، يتقاطع فيه الواقعُ والسحر، والخيالُ والأسطورة، في حبكةٍ مشوِّقةٍ لا تخلو من طرح مسائل وجوديَّة تمسُّ الإنسانَ في كلِّ مكان.

ميا كوتو: روائيّ موزمبيقيّ يُعَدُّ من أهمّ كُتَّاب اللغة البرتغاليَّة في الوقت الراهن. وصل إلى القائمة القصيرة لجائزة البوكر العالميَّة. كما حصل على عدد من أرفع الجوائز الأدبيَّة، ومنها جائزة نيوستاد الدوليَّة، وجائزة الاتِّحاد اللاتينيّ، وجائزة كامويش التي تُعتبَر أهمّ جائزة أدبيَّة برتغاليَّة.

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

دار الآداب
بيروت - لبنان
هاتف: 795135 - 9611861633+

ميا كوتو

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

اعترافات شَرِسة

ترجمها عن البرتغالية مارك جمال

دار الآداب ـ بيروت

اعترافات شرسة

ميا كوتو/روائيّ من موزامبيق

الطبعة الأولى عام 2019

Mia Couto: A Confissão de Leoa©Mia Couto, 2012
by arrangement with literarische Agentur Mertin Inh. Nicole Witt e.k.,
Frankfurt am Main, Germany

Funded by the Direção-Geral do Livro, dos Arquivos e das Bibliotecas
(DGLAB)/Portugal

REPÚBLICA PORTUGUESA
CULTURA
DIREÇÃO-GERAL DO LIVRO, DOS ARQUIVOS E DAS BIBLIOTECAS

ISBN 978-9953-89-660-1

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

Daraladab @Daraladab daraladab.com

توطئة

في عام 2008، أرسلت الشركة التي أعمل لحسابها خمسة عشر شابًا، بوصفهم مشرفين على حماية البيئة في الميدان خلال افتتاح خطوط التنقيب الزلزاليّ[1] في كابو دِلغادو الواقعة شمالي موزمبيق. في الوقت نفسه، والمنطقة نفسها، بدأت تقع هجمات شنَّتها الأسُود على البشر، ليتجاوز إجماليّ الهجمات المفضيَة إلى الموت اثنتي عشرة هجمة خلال أسابيع قلائل. العدد الذي ارتفع إلى عشرين هجمة خلال أربعة أشهر على وجه التقريب.

كان زملاؤنا الشباب يعملون في الدَّغل، ويخلدون إلى النوم في الخيام، ويتنقَّلون من قرية إلى أخرى سيرًا على الأقدام، ما جعلهم هدفًا سهلًا للأسُود. ولذا، اقتضت الضرورة إرسال صيَّادين من أجل حمايتهم، كما دعت الحاجة الماسَّة إلى حماية القرويِّين في المنطقة،

(1) التَّنقيب الزلزاليّ (ويُعرَف أيضًا باسم التنقيب السيزمي): من طرائق التَّنقيب عن النفط والغاز. ويعتمد على إرسال طاقة صوتيَّة إلى باطن الأرض لتعكس صورة تظهر ما في باطنها.

بطبيعة الحال. وهكذا، فقد اقترحنا على شركة البترول أن تتولَّى بنفسها القضاء على ذلك التهديد نهائيًا: أي تصفية الأسُود آكلة البشر. فتعاقدت الشركة مع اثنيْن من الصيَّادين ذوي الخبرة، انتقلا بدورهما من ماپوتو إلى ڤيلا دي پالما، البلدة التي فيها تركَّزت هجمات الأسُود. وهناك شَرَعا في تجنيد صيَّادين محلِّيِّين للمشاركة في العمليَّة. أمَّا عدد الضحايا الذين أودت في حياتهم الأسُود، فقد ارتفع في تلك الأثناء ليبلغ ستًّا وعشرين ضحيَّة.

أمضى الصيَّادون شهرَيْن اثنيْن من الرُّعب والإحباط، استجابوا خلالهما إلى نداءات النجدة بصفة يوميَّة، إلى أن تمكَّنوا من القضاء على الأسُود القاتلة. ولكنَّ الصعوبات التي واجهها الصيَّادون لم تقتصر على ذلك. فلطالما خُيِّل إليهم أنَّ المُذنبين الحقيقيِّين من ساكني العالَم الخفيّ، حيث البنادق والرَّصاص بلا أدنى تأثير. ورويدًا رويدًا، أدرك الصيَّادون أنَّ الألغاز التي واجهتهم لا تعدو أن تكون أعراض صراعات اجتماعيَّة تفوق قدرتهم على الاستجابة بكثير.

ومن جانبي، فقد عشتُ هذا الوضع عن كثب. فأجريتُ زياراتٍ عديدة إلى الموقع الذي فيه جرت أحداث الدراما المُشار إليها، ما أوعز إليَّ بكتابة القصَّة التي أسردها هنا، تلك التي استلهمتُها من وقائع وشخصيَّات حقيقيَّة.

«إلى أن تكتب الأسودُ حكاياتها، يظلُّ الصيَّادون أبطالَ روايات الصيد أبدًا».

(قول مأثور من إفريقيا)

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

يسعدنا انضمامكم إلى قناة
مكتبة ياسمين
معكم نكبر ونستمر بكل جديد

اضغط هنا .. اتبع اللينك

ما روَتْه ماريامار

(١)

الخَبَر

«طُوبَى للأسد الذي يأكلُه الإنسان فيصير الأسدُ إنسانًا، وملعونٌ الإنسانُ الذي يأكلُه الأسد فيصير الأسدُ بشرًا».

(إنجيل توما)

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

لقد كان الرَّبُّ امرأة. وقبل أن يرحل بعيدًا عن خليقته، قبل أن يُسمَّى نونغو[1]، كان ربُّ الكون آنذاك يشبه سائر أمَّهات العالَم. في ذلك الزمن الآخر، كنَّا نتكلَّم بألسنة البحار واليابسة والسماوات. يقول جَدِّي إنَّ ذلك العهد قد ولَّى منذ أمد بعيد. ولكنْ في مكانٍ ما بداخلنا، بقيَت ذكرى من تلك الحقبة البعيدة. فما زالت تعيش وتُورَّث من جيل إلى جيل أوهامٌ وقناعات راسخة في قريتنا، قرية كولوماني. على سبيل المثال، كلُّنا يعرف أنَّ السَّماء لم تتمّ بعد. وما زالت النساء يغزلن هذا السِّتْر اللَّامتناهي منذ آلاف الأعوام. فكلَّما استدارَت بطونهنّ، زادت السماء شطرًا. وعلى النقيض من ذلك، فكلَّما فقدن ابنًا، ذَبُل ذلك الشطر من قبَّة السماء مرَّة أخرى.

وربَّما لهذا السَّبب لم تكفّ أمِّي، آنيفا أسّولوا، عن تأمُّل السحائب خلال جنازة ابنتها الكبرى. كانت أختي سيلينسيا آخرَ ضحايا الأسُود التي ابتُلي بها أهلُ قريتنا منذ بضعة أسابيع.

ولمَّا لقيَت سيلينسيا حتفها مُشوَّهةً، فإنَّ بقايا جسدها وُضِعَت على الجانب الأيسر، رأسها صوب المشرق وقدماها صوب الجنوب.

(1) «نونغو»: الاسم الذي تطلقه على الخالق جماعةُ الماكوندي، وهي جماعة عرقيَّة موطنها جنوب شرقي تنزانيا وشمالي موزمبيق.

وفي أثناء المراسم، بدَت أمّي وكأنّها تتراقص: إذ جعلَت تميل مرَّة تلو الأخرى وهي تحمل إبريقًا مُؤلَّفًا من يدَيها. فروَت الأرضَ من حولها، وسوَّتْها بقدمَيها، وهي تتمايل كمن ينثر البذور.

وفيما هي عائدة من الجنازة، كانت السماء في عينَيْ أمّي المسكينة أوسع ممَّا ينبغي. لم تكُن الطريق إلى البيت تزيد على بضع خطوات، إذ كانت مقابر العائلة تقع على مشارف القرية.

عرَّجَت آنيفا على نهر ليدايا سريعًا من أجل التطهُّر بالماء، أمَّا أنا فمضيتُ في إثرها أطمس آثار الأقدام المُفضية إلى المدفن.

ـ انفضُوا أقدامكم، فالغبار يهوى الترحال.

وعلى أرض مقابرنا المُقدَّسة، لاح صليبٌ آخر دليلًا على اختلافنا عن المسلمين والوثنيِّين. اليوم، أعرف أنَّنا لا نضع شواهد القبور فوق رفات الموتى إجلالًا، وإنَّما خوفًا. ذلك أنَّنا نخشى عودتهم. وبمضيّ الزمن، يطغى هذا الخوف على الحنين.

عَمَل سائر الأقرباء بالوصيَّة: فراعينا أن تكون درب العودة مختلفة كلّ الاختلاف عن تلك التي سلكناها ذهابًا. وعلى الرَّغم من ذلك، فلم تفارق تلك الصورة اللَّزجة رأسي: صورة جسد سيلينسيا مرفوعًا على الأكتاف، مُكفَّنًا بالأنسجة البيض التي راحت ترفرف كما الأجنحة الكسيرة.

وعند عتبة الباب، نظرَت أمّي إلى بيتنا وكأنَّها تلقي عليه باللَّائمة. ذلك البيت المفعم بالحياة، الضارب في القِدَم، الموغل في الأبديَّة. كان بيتنا يختلف عمَّا عداه من الأكواخ، إذ كان مُشيَّدًا بالإسمنت،

ومسقوفًا بألواح الزنك، ومُزوَّدًا بحجرات وصالة ومطبخ داخليّ. أمَّا أرضه، فقد اكتسَت بالأبسطة، وأمَّا نوافذه، فقد تدلَّت أمامها الأستار المُغبَّرة. كنَّا نختلف نحن أيضًا عمَّن عدانا من ساكني كولوماني؛ ولاسيَّما أمِّي، آنيفا أسّولوا، وهي المُتشبِّهة ابنة المُتشبِّهين[1]. في طريق العودة من الجنازة، أدركتُ كم كانت جميلة، فقد انتصر مُحيَّاها على الحزن على الرَّغم من رأسها الحليق حدادًا. جعلَت تتفرَّس فيَّ ردحًا من الوقت وكأنَّها تقيس مقدار مَعزَّتي عندها. دار في خَلَدي أنَّها نظرة مفعمة بحنان الأمّ، وإن لم تكُن كذلك. فقد رَسَم إحساسٌ آخر كلماتها:

ـ لن تُضطرّي لتجشُّم أحزان الأم ما حييتِ.

فقلتُ لها:

ـ أرجوكِ يا ماما، فأنا فقدتُ أختي من فوري.

ـ لن تفقدي ابنة ما حييتِ. تلك هي مشيئة الرَّب.

ثمَّ أشاحَت عنِّي بوجهها. خلعَت خُفَّيْها، ثم اجتازَت الباب وغاصَت في الفراش. قد تدفن الأمّ ابنة لها، أجل. وقد سبق لآنيفا أن دفنت ابنتَيْن من قبل. بَيدَ أنَّها لا تعود من ذلك الوداع أبدًا. فليس هناك من يتطلَّب عناية الأم أكثر من ابنٍ راحل.

عند ذاك، طلب أبي من النَّادبات مغادرة باحتنا. ودلف إلى غَبَش البيت، حيث انحنى فوق المرأة سائلًا:

ـ لمَ حلقتِ رأسك؟ أولسنا مسيحيِّين؟

---

(1) مُتشبِّه: كانت تُستخدَم في موزمبيق للإشارة إلى الشخص الأسود أو الخلاسيّ الذي يعيش في المدينة في ظلّ الاستعمار البرتغاليّ، فيتحدَّث اللُّغة البرتغاليَّة ويشغل وظيفة مُستقرَّة ويعتنق المسيحيَّة.. وما إلى ذلك من مظاهر التشبُّه بالبرتغاليِّين.

هزَّت كتفَيْها. وفي تلك اللَّحظة، لم تعُد آنيفا شيئًا على الإطلاق. سكتَت النَّادبات عن العويل، فلم تعرف ماذا هي صانعة بمثل هذا الصمت الهائل.

ـ وماذا نحن فاعلان الآن، نتوانغو؟

كانت تنادي زوجها بلقب نتوانغو، مثلها كمثل نساء كولوماني جميعًا. كان الرجل يُدعَى جِنتيو سيرافين إمپيپيه. وعلى الرَّغم من ذلك، فما كانت المرأة تناديه باسمه قطّ، على سبيل الاحترام. كنَّا من المُتشبِّهين، أجل، ولكنَّ انتماءنا إلى كولوماني أقوى ممَّا ينبغي، وحاضرنا برُمَّته مُؤلَّف من الماضي. في تلك اللَّحظة، وفيما هو يستكنُّ إلى جوارها، حدَّثها الزوج في رقَّة لم تعهدها، وكأنَّ كلّ كلمة سحابة تتأمَّل السماوات.

ـ ماذا نحن فاعلان الآن؟ حسنًا، الآن... الآن نعيش يا امرأة.

ـ ما عدتُ أعرف كيف أعيش، نتوانغو.

ـ لا أحد يعرف كيف يعيش. ولكن ذلك ما تطلب منَّا ابنتنا: أن نعيش.

ـ لا تحدِّثني عمَّا طلبَت منَّا ابنتنا. فأنت لم تنصت إليها قطّ.

ـ ليس الآن! ليس الآن يا امرأة.

ـ أنت لم تفهم سؤالي: ماذا نحن فاعلان بالشطر الذي لم ندفن من ابنتنا؟

ـ لا أودُّ الحديث في هذا الشأن. هيَّا نخلد إلى النوم.

استوت في جلستها قليلًا، متَّكئةً على مرفقها. كانت عيناها مفتوحتَيْن عن آخرهما مثلها كمثل الغريق.

ـ ولكنْ ابنتنا سيلينسيا...

ـ صمتًا يا امرأة! أنسيتِ أنَّه لم يعُد في الإمكان التفوُّه باسم ابنتنا قطّ.

ـ أنا في حاجة لأن أعرف: أيُّ شطر من جسدها دفنَّا؟

ـ قلتُ لكِ صمتًا يا امرأة.

وكما ترتجف الأوراق، هكذا أخذ يرتجف صوت أبي، في حين مضى يصارع جحيمًا داخليًّا. والجوَّال المُخضَّب بالدماء حيث استقرَّت بقايا ابنته ما زال يقطر في الذاكرة. مرَّة أخرى، داهمَته الذكرى التي لم يوارِها التراب: ذكرى جَلَبة الأصوات والأوجال التي أيقظَته من سباته فجر أمس. فاجتاز چِنتيو إمپيپيه الباحة، وهو يحدس المأساة. قُبَيل لحظات، كان قد سمع الأسُود تحوم حول البيت. وإذا بأصوات الزئير والصراخ والعويل تذوب بغتةً في الخواء، ثمَّ يغوص العالَم شيئًا فشيئًا، حتى لم يبقَ في داخله شيء. على المرء ألّا يكون قد عاش يومًا لينسى مثل ذاك النسيان.

أعادت آنيفا السُّؤال:

ـ القلب؟

ـ مرَّة أخرى؟ ألم أقل لكِ صمتًا؟

ـ هل دفنَّا القلب؟ أنت تعرف جيِّدًا ما يصنعون بالقلب...

تنفَّس أبي عميقًا، وتأمَّل الثياب البالية المنشورة تحت سقف البيت. لم يحسّ بأدنى اختلاف بينه وبين تلك الثياب المتداعية في الخواء بلا هيئة ولا روح. عاد له صوتُه، وقد اكتسى بمسحة وداعة:

ـ يا امرأة، فكِّري في الأمر كما يلي: الأبناء لا تواريهم القبور.

ـ لا أودُّ سماع حديثك، سأخرج.

ـ تخرجين؟

ـ سأفتِّش عن بقايا ابنتنا هناك في الدغل...

ـ لن تذهبي. لن تغادري هذا البيت.

ـ لن يمنعني أحد.

سوف تخرج من البيت، أجل، وتسير حيث لم تعُد ثمَّة دروب يسلكها البشر، فتُدمى قدماها، وتحترق عيناها تحت أشعَّة الشمس؛ وعلى الرَّغم من ذلك، فلسوف تذهب للتفتيش عن بقايا سيلينسيا، صغيرتها الأبديَّة. اعترض الزَّوج سبيلها مُتوعِّدًا:

ـ سأشدُّ وثاقك بالحبال كالحيوان.

ـ أُشْدُد وثاقي إذن. فلقد صرتُ حيوانًا منذ أمدٍ بعيد. وصرتَ أنت تنام مع حيوان في فراش واحد منذ أمدٍ بعيد...

وبذلك، أُقفِل باب الحديث. أحاطت آنيفا ساقَيْها بذراعَيْها، في صمت، وكأنَّها تودُّ الاستسلام للنُّعاس.

سأل جِنتيو:

ـ أتنامين على الأرض؟

أمَّا هي، فقد استلقَت أرضًا، متَّكئةً برأسها على حجر، وفي نيَّتها الإنصات إلى صوت أحشاء العالَم. تعرف نساء كولوماني أسرارًا. فعلى سبيل المثال، يعرفن أنَّ الأجنَّة تبدِّل وضعها داخل أرحام الأمَّهات، في لحظة بعينها. وفي أرجاء العالَم كافَّة، تدور الأجنَّة حول نفسها، امتثالًا لذلك الصوت الأرضيّ الفريد. الأمر الذي يجري للموتى أيضًا: ذلك

أنَّهم ذات ليلة، وفي تلك اللَّيلة دون سواها، يتلقَّون أمرًا بالدَّوران داخل رَحَم الأرض. وعند ذاك، تنبثق أضواء وتنساب على شواهد القبور، كما يثور الغبارُ المُفضَّض. مَنْ نام وأذنه على الأرض، سمع دَوَران الموتى حول أنفسهم. ولهذا السَّبب، الذي كان چِنتيو يجهله، أعرضَت آنيفا عن الوسادة والفراش. فاستلقَت وجعلَت تنصتُ إلى الأرض. أمَّا ابنتها، فلن تلبث أن تُسمِعها صوتَها. لعلَّ أومينيا وإغواليتا[1]، التوأمتَيْن اللتَيْن رحلتا فيما مضى، تبعثان إليها رسائل مِن الجانب الآخر مِن العالَم أيضًا، مَنْ يدري؟

لم يستلقِ الزوج علمًا منه أنَّ ليلةً طويلةً في انتظاره. فلسوف تقضّ مضجعَه ذكرى جسد الابنة المهترئ. أمَّا أصداء زئير الأسد، فلسوف تتردَّد بداخله، وتمزِّق الساعات. بقي في الشرفة ردحًا من الوقت شاخصًا إلى العتمة. فربَّما عاد عليه ذلك السكون بالراحة. بَيْدَ أنَّ الصمت بيضة معكوسة: نتهشَّم نحن في جوفها، بينما تبقى القشرة للآخرين.

أرَّقَته الشكوك: كيف وقعَت المأساة؟ هل غادرَت ابنته البيت في منتصف اللَّيل؟ أمَّا والحال كذلك، فهل عقدَت النِّيَّة على وضع حدٍّ لحياتها؟ وإلَّا، فهل اقتحم الأسد محيط البيت بطريقة أقرب إلى اللُّصوص ممَّا هي إلى الوحوش؟

تناثر العالَم بأسره إلى شظايا بغتةً، ودبيب خطى مسترقّة يبدِّد هدوء الدَّغل. هوى قلب چِنتيو بين قدمَيْه. فما يحدث دومًا على وشك أن يتكرَّر، جاءت الأسُود لتلتهم بقايا اليوم الفائت.

---

(1) يمكن ترجمة اسمَي التوأمتيْن عن البرتغاليَّة على النحو التالي: «الواحدة ومثيلتها»، علمًا أنَّ «أومينيا» تصغير كلمة «أوما» Uma التي تعني «واحدة»، وكذلك «إغواليتا» تصغير كلمة «إغوال» Igual التي تعني «مماثلة» أو «مثيلة».

وعلى غير المُتوقَّع، انفجر الرجل صارخًا كالممسوس، وانطلق يركض في دوائر:

ـ أعرف أنَّكم هناك، يا أبناء الشيطان! أظهروا أنفسكم، أودُّ رؤيتكم خارج الدَّغل، إنَّكم ڤانتومي ڤا ڤانو!

رأيتُه من النافذة في هَذَيانه المحموم، يصرخ في الأسُود البشريَّة، أي الڤانتومي ڤا ڤانو. وعلى غير المُتوقَّع، هوى عاجزًا وكأنَّما قد تهشَّمَت ركبتاه. ثمَّ رفع رأسه على مهل، فرأى جناحَيْ وطواط داكنَيْن يعانقانه. لم يُسمَع صوتٌ واحد، ولم يتردَّد فوق رأسه حفيف أوراق ولا رفيف أجنحة. كان جِنتيو إمپيپيه مُقتصَّ أثر، يعرف إشارات السافانا العصِيّة على الإدراك. كثيرًا ما قال لي: وحدهم البشر يعرفون الصَّمت. أمَّا باقي الحيوانات، فالعالَم لا يصمت عندها البتَّة، حتى الأعشاب إذا نمت والبتلات إذا تفتَّحَت أسفر عنها صخبٌ عارم. في الدَّغل، تعيش الحيوانات على حاسَّة السَّمع، وذلك ما حسدها عليه أبي في تلك اللَّحظة، وتمنَّى أن يصير مثلها حيوانًا. فيعود إلى جُحره، بمنأى عن البشر، ويغفو بلا إحساس بالذَّنب أو الأسى.

ـ أعرف أنَّكم هناك!

وفي هذه المرَّة، لم تعُد كلماته مُحمَّلة بالغضب، وإنَّما شابَت صوتَه بحَّةٌ جعلَته يخرج ذابلًا. وفيما هو يردِّد السُباب، عاد إلى البيت ملتجئًا إلى الحجرة. في حين ظلَّتِ المرأة قابعةً، مستلقيةً على الأرض، كما تركها. وفيما هو يرتِّب الغطاء، تشبَّثَت آنيفا أسّولوا بجسم زوجها بقوَّة، وصاحت شبه غافية:

ـ هيَّا نتطارح الغرام!

ـ الآن؟

ـ أجل. الآن!

ـ آنيفا، لقد فقدتِ زمام أمركِ تمامًا. أنتِ لا تدرين بأيَّة أمور تتفوَّهين.

ـ أتعرض عنِّي يا زوجي؟ ألا تريد أن تفعلها معي الآن؟

ـ تدرين أنَّنا لا نستطيع، مراعاةً للحِداد، وإلَّا دنَّسنا القرية.

ـ ذلك ما أريد، تدنيس القرية، والعالَم.

ـ آنيفا، أنصتي إليَّ جيِّدًا. لسوف يمضي الزمن، وينسى البشر. فهم ينسون حتى أنَّهم على قيد الحياة.

ـ منذ أمدٍ بعيد وأنا لم أعُد على قيد الحياة. والآن، لم أعُد حتى في عِداد البشر.

نظر إليها أبي، لا يعرف من تكون. فالمرأة لم يسبق لها أن نطقَت يومًا بمثل هذا. أعني أنَّها ما كانت تتكلَّم إلَّا فيما ندر. طالما كانت كتومًا، تترقَّب في الظلِّ دومًا. ومنذ قضَت التوأمتان لم تعُد للتفوُّه بكلمة. فكان زوجها يسألها من آن لآخر:

ـ آنيفا أسّولوا، هل أنتِ على قيد الحياة؟

وعلى الرَّغم من ذلك، فلم تكُن هي المُقلَّة في الكلام، بل إنَّ الحياة هي التي صارت لغة غريبة عنها. دار في خَلَد چِنتيو أنَّ زوجته تُعدُّ نفسها لذلك الغياب مرَّة أخرى، من دون أن ينتبه لآنيفا وهي تتعرَّى في العتمة. تجرَّدَت من ثيابها، ثمَّ عانقَت چِنتيو إمپيپيه من الخلف، فأذعن هو لذلك العناق الذي يليق بأفعى. بدا مستسلمًا، وإذا هو ينحِّي المرأة

جانبًا ويسير مبتعدًا بخطًى حثيثة صوب الباحة الخارجيَّة، ثمَّ يغيب في العتمة من فوره.

وفي جوف الحجرة، استسلمَت أمِّي لمداعبات جريئة وكأنَّ رَجُلَها ما زال ماثلًا أمامها في واقع الأمر. في تلك المرَّة، أمسكَت هي بزمام الأمور، فراحَت تتمايل فوق عَجِيزَتها، وتتراقص فوق النيران، وتتفصَّد عرقًا، وتئنّ:

ـ لا تتوقَّف، چِنتيو! لا تتوقَّف!

عند ذاك، اشتمَّت رائحة العرق لاذعًا كثيفًا كعَرق الحيوان. وسمعَت زمجرة. فخطر لأمِّي أنَّه لم يكُن رَجُلَها ذلك الذي استقرَّ فوقها، بل حيوانًا من الدغل، مُتعطِّشًا إلى دمائها. تحوَّل چِنتيو إمپيپيه وحشًا وهو يطارحها الغرام، وأخذ يلتهمها بالمعنى الحرفيّ للكلمة. أمَّا وقد ذابَت في نَهمِه، فإنَّها ظلَّت بلا حراك، تحت رحمة شهيَّته القطيَّة.

«لقد جُنَّ جنوني»، دار في خَلَدها وقد أغمضَت عينَيْها وجعلَت تتنفَّس عميقًا. وعلى الرَّغم من ذلك، فعندما أحسَّت بالمخالب تخدش عنقها، انفجرَت آنيفا تصرخ ملء صدرها، حتى إنَّها للحظةٍ ما عادَت تدري إن كانت تصرخ ألمًا أو لذَّةً. هبَّ إليها أبي، وإن لم تساوره الشكوكُ في ما يجري. تجاوزَت زوجته الباب في الاتِّجاه المقابل، وانطلقَت تعدو في هياج، فلم يتمكَّن چِنتيو من الحيلولة دون خروجها إلى الباحة.

لو كانت أمُّنا تملك حرِّيَّة الاختيار، لهربَت بعيدًا، وظلَّت تعدو إلى ما لا نهاية. بَيْد أنَّ كولوماني مكان حبيسٌ، تحاصره الجغرافيا ويصيبه الخوف بالضُّمور. ومرَّة أخرى، توقَّفَت آنيفا أسّولوا عند مدخل الباحة،

قرب سياج النباتات الشائكة التي تحمينا من الدَّغل. رفعَت يدَيْها إلى رأسها، ثمَّ نزلَت بهما على وجهها، وكأنَّها تزيل عنه خيوط عنكبوت.

ـ ها قد قتلتُ هذا المكان! قتلتُ كولوماني!

وذلك ما سوف تتناقله الألسن في القرية: إنَّ امرأة چِنتيو سيرافين إمپيپيه لم تمهل الأرض وقتًا لتبرد. فلا دنس شرّ من الجنس يوم الحِداد، والقرية لا تزال ساخنة. لقد ازدرَت آنيفا أسّولوا أسلافنا جميعًا إذ طارحَت الغرام يومذاك، ولاسيَّما لأنَّها طارحَت نفسَها الغرام.

وبالعودة إلى فراشها، رزحَت أمي المسكينة تحت وطأة اللَّيل، طافيةً ما بين النوم واليقظة. وعند بزوغ الفجر، أحسَّت بخطى چِنتيو إمپيپيه الناعسة.

ـ هل أفقتَ باكرًا يا زوجي؟

كانت أمّي تستبق الشمس فجرَ كلّ يوم، فتجمع الحطب، وتحضر الماء، وتضرم النار، وتعدُّ الطعام، وتحرث الحقل، وتنفخ الحياة في الطين، وتفعل كلّ ذلك وحيدة. فهل يشاطرها زوجها أعباء الواقع الآن، من دون سبب واضح؟

صرَّح إليها چِنتيو إمپيپيه مهمومًا:

ـ أحمل خبرًا.

ـ تحمل خبرًا؟ نتوانغو، تعرف أنَّ الأخبار في كولوماني كنعيق البوم.

ـ سيحضر البعض إلى هنا. بعض الغرباء.

ـ أهم بشر؟ بشر بحقّ؟

ـ إنَّهم قادمون من العاصمة.

صمتَت أمِّي مبهوتةً. لابدَّ أنَّه خبر من تأليف زوجها. فمنذ قرون خلَت، لم يصلهم غرباء ولا أخبار...

ـ منذ متى وأنتَ على علم بهذا النبأ؟

ـ منذ بضعة أيَّام.

ـ تعرف أنَّه إثم.

ـ أيُّ إثم؟

ـ الاطِّلاع على الأخبار محفوف بالمخاطر، وإذاعة الأنباء محفوفة بالآثام. أتظنّ الربّ سيغفر لنا؟

ومن دون أن تنتظر جوابًا، طفقَت آنيفا تلوِّح بذراعَيْها، كما لو كانت تطرد أشباحًا، وقد اشتبكَت بأوراق النباتات المحيطة. ثمَّ وضعَت يدها على كتفها، فتأكَّد لها أنَّ دماءها تسيل.

ـ ما هذا، نتوانغو؟ مَن خدشني؟

ـ لا أحد. الأشواك، إنَّها أشواك الأكاسيا. عليَّ أن أقلِّم تلك الشجرة.

ـ لم تكُن الشجرة، بل إنَّ أحدهم قد خدشني. انظر إلى كتفي. إنَّها آثار خدوش، أحدهم قد خدشني.

ثمَّ تجادلا. وإن كان كلاهما على حقّ. فحتى النباتات لها مخالب في تلك القرية. وكلّ ما هو حيّ في كولوماني مُدرَّب على النَّهش. فالطيور تنقر السماء، والأغصان تخدش السَّحائب، والأمطار

تنهش الأرض، والموتى يثأرون من القَدَر بأسنانهم. وبعينَيْن مُتَّسعتَيْن، أجالَت آنيفا بصرها في الغابة. فانعكس على صفحة وجهها خوفٌ خليقٌ بغزال.

ـ هناك مَن يربض في العتمة، نتوانغو.

ـ هدِّئي من رَوعكِ يا امرأة.

ـ هناك مَن يسترقُ السَّمع إلى حديثنا. هيَّا ندخل إلى البيت.

بدأت أضواء النَّهار الأولى تفيق من سباتها. وسرعان ما يصبح التنقُّل في البيت ممكنًا من دون الاستعانة بالقنديل. وفوق خزانة الثياب، ما زال يرتجف ضياء مصباح الزَّيت المعروف باسم الشيبيفو. وبغتةً، عاود آنيفا الوهمُ العذبُ بأنَّ قمرًا ينير مطبخها. لم يكُن المطبخ يتَّسع للشمس، وإن كان له سقف مُضاء بنور القمر. استجمعَت آنيفا ثقتها، وخطر لها أن تتحدَّى زوجها، فصاحت عاليًا وبوضوح:

ـ لا أريد أيًّا من أقربائك هنا مرَّة أخرى. اليوم يهرولون لتقديم آيات العزاء. وغدًا، يومَ أصير أرملةً، يهرولون بقدر أكبر من السرعة ليسلبوني كلّ شيء.

على الرَّغم من ذلك، لم أقُل شيئًا. كانت تُعدُّ نفسها أرملة بالفعل. ولم يبقَ سوى أن يدرك إمبيبيه غيابه.

ـ يا زوجي، ماذا عن أولئك القادمين، أهم بشر حقًّا؟

ـ أجل، حقًّا.

ـ هل أنتَ على يقين من ذلك؟

ـ إنَّهم بشر مُعتمَدون، بشر بالولادة. وسيحضر بينهم صيَّاد.

سقط الدَّلو الذي كانت تحمله آنيفا بيدها اليسرى، فسالت المياه في أرجاء الباحة. أمَّا المقشَّة التي في يدها، فقد صارت الآن سيفًا تطرد به الشياطين.

سألَت همسًا:

ـ صيَّاد؟

ـ إنَّه هو. ذلك الذي خطر لكِ، الصيَّاد الخلاسيّ[1].

ظلَّت المرأة بلا حراك أوَّلَ وهلة، إلَّا أنَّها عقدَت العزم بغتةً، فأحكمَت وضع الخفَّيْن في قدمَيْها وسترَت رأسها بشال، ثمَّ ودَّعَت زوجَها.

ـ إلى أين أنتِ ذاهبة يا امرأة؟

ـ لستُ أدري، سأفعل ما لم تفعل أنت يومًا. أنا ذاهبة إلى الطريق، فأنصب لذلك الصيَّاد شَرَكًا، وأقتله. لا يمكن السَّماح لذلك الرجل بالوصول إلى كولوماني.

ـ دعي عنكِ الجنون يا امرأة. فنحن في حاجة إليه، في حاجة إليه كي يقتل تلك الأسُود اللَّعينة.

ـ نتوانغو، ألا تفهم؟ هذا الرجل سيأخذ منِّي ماريامار. سيأخذ آخر بناتي إلى المدينة.

ـ أتفضِّلين أن تفترسها الأسُود؟

لم تجِر المرأة جوابًا. ذلك أنَّ التَّفضيل كلمة لم تُصنَع من أجلها. فكيف يتسنَّى التَّفضيل لمن لم يتعلَّم كيف يحبّ يومًا؟

---

(1) خلاسيّ: مَنْ وُلِد لأبويْن أحدهما أسود والآخر أبيض.

ـ يا زوجي، أقسم أن ألوذ بالهرب إن لم تتركني أخرج من فوري.

جذبها الرجل من معصمَيْها ودفعها صوب الخزانة العتيقة، فسقط القنديل. رأت آنيفا قمرها الصغير ينشطر إلى ألسنة مُزرقَّة، متناثرة على أرض المطبخ.

تنهدَّتْ مغلوبة على أمرها:

ـ أنا في حاجة لردع ذلك الخلاسيّ.

عند ذاك، قرَّرتُ أن أتدخَّل دفاعًا عن أمِّي. ما إن رآني أبي خارجةً من شبه العتمة حتى تضاعف حَنَقه، فرفع ذراعه مُتأهِّبًا لفرض حُكمه.

ـ أتضربني يا أبي؟

حدَّق إليّ حائرًا. كلَّما تملَّك منِّي الغضب، صفَت عيناي المُتَّقدتَيْن. خفض چِنتيو إمپيپيه وجهه، عاجزًا عن مواجهتي.

سألتُه:

ـ أتعرف من استدعى الصيَّاد؟

فأجاب أبي:

ـ الكلّ يعرف. إنَّهم أصحاب المشروع، أصحاب الشركة.

ـ كذب. إنَّما هي الأسُود التي استدعَت الصيَّاد. وهل تدري من استدعى الأسُود؟

ـ لن أجيب عن سؤالك.

ـ أنا. أنا التي استدعيتُ الأسُود.

فقال أبونا غاضبًا:

ـ سأقول لكِ أمرًا، فانصتي جيِّدًا. لا ترفعي إليَّ عينَيكِ ما دمتُ أتكلَّم. أو أنَّك فقدتِ الاحترام؟

خفضتُ عينَيَّ، كما تفعل نساء كولوماني. ومرَّة أخرى عدتُ ابنةً، في حين أخذ چِنتيو يستردُّ زمام السُّلطة الذي أفلت من بين يدَيْه للحظات.

ـ أريدكِ أن تبقي حبيسةً هنا عندما يصل الصيَّاد. أسمعتِ؟

ـ أجل.

ـ لا تطلِّي بطرف أنفكِ خارج البيت ما بقي هؤلاء في كولوماني.

خيَّم الصَّمت على الحُجرة من جديد. جلستُ وأمِّي على الأرض وكأنَّها آخر مكان في العالَم بأسره. لمستُ كتفها راسمةً لفتة مواساة. فتنحَّت هي جانبًا. وفي لحظة، استتبَّ نظام الكون من جديد: فالنساء على الأرض، وأبونا يذرع المكان من المطبخ وإليه، مستعرضًا ملكيَّته للبيت كلّه. مرَّة أخرى، امتثلنا لتلك القوانين التي لا يمليها الربّ ولا يفسّرها الإنسان. وبغتةً، توقَّف چِنتيو إمپيپيه في وسط المكان، ثمَّ جَهَر فاتحًا ذراعَيْه:

ـ أعرف ما الحلّ. نترك ذلك الخلاسيّ يحضر، ونتركه يقتل الأسُود. ثمَّ لا نتركه يغادر.

سألتُه في خوف:

ـ أتقتله؟

ـ هل أنا ممَّن يقتلون البشر؟ بل تقتلينه أنتِ.

ـ أنا؟

ـ تقتله الأسُود التي استدعيتِها أنتِ.

يوميَّات الصيَّاد

(١)

الإعلان

«واحد هو الطريق للهرب من الـمكان: الخروج من أنفسنا.
وواحد هو الطريق للخروج من أنفسنا: الوقوع في الحب».

(مُقتطَف مُختلَس من دفاتر الكاتب)

إنَّها الثانية صباحًا وقد جافى عينَيَّ النُّعاس. خلال ساعات تُعلَن نتيجة المناقصة. عند ذاك أعرف ما إذا وقع عليَّ الاختيار لصيد أسُود كولوماني. لم يدُر في خَلَدي يومًا أن تضطرب نفسي إلى هذا الحدّ ترقُّبًا لإعلان الاختيار. ما أحوجني إلى النوم! ليست الراحة مطلبي. ولكنِّي أودُّ الغياب عن ذاتي. أنام حتى لا يكون لي وجود.

* * *

كاد الصباح يطلع وما زلتُ أنازع الملاءات. ما لي مرض سواه: الأرق المُطعَّم بإغفاءات قصيرة تتبعها صحوات مذعورة. فأنا أغفو كما الحيوانات التي أطاردها بحكم مهنتي، وأستيقظ مُتوثِّبًا كمن يعرف أنَّ غيابًا أطول من اللَّازم قد يُفضِي إلى الموت.

أستدعي النُّعاس بالوسيلة التي كانت تستعين بها أمِّي لتحملنا على النوم. أذكر حكايةً كانت هي الأثيرة عندها، أسطورة من مسقط رأسها، كانت تسردها كما يلي:

«في قديم الزمان، لم يكُن ثمَّة شيء سوى غمرة اللَّيل. وكان الرَّبُّ يرعى النجوم في السماء. فكانت إن زادها الرَّبُّ طعامًا تسمن وتفيض بطونها بالضياء. وفي تلك الأثناء، كانت سائر النجوم تأكل وتضيء بالقَدْر

نفسه من البهجة. لم تكُن النهارات قد وُلِدَت بعد، ولذا كان الزمن يسير على قدم واحدة ليس إلَّا، وكلُّ شيء في منتهى البطء في قبَّة السماء اللَّامتناهية! حتى كان أن وُلِد نجمٌ في قطيع الراعي، نجمٌ يشتهي التفوُّق على كلّ النجوم حجمًا. كان ذلك النجم يُدعَى نجم الشمس، فما لبث نجم الشمس أن استولى على المراعي السماويَّة، وطرد باقي النجوم التي بدأت تذوي بعيدًا. وإذا نجومٌ تتألَّم لأوَّل مرَّة، وتهزل حتى ابتلعتها العتمة. أمَّا نجم الشمس فراح يتباهى بضخامته أكثر فأكثر، وهو المختال بأملاكه واسمه المفعم بالذكورة. وهكذا، فقد أعلن نفسه سيِّد النجوم كافَّة، وسوَّلت له الخُيلاء أنَّه مركز الكون. سرعان ما ادَّعى أنَّه هو خالق الرَّب. ولكنْ ما جرى في حقيقة الأمر أنَّه لمَّا تأتَّى لنجم الشمس ذلك القدر من السيادة والضخامة، وُلِد معه النهار. فما عادت غمرة اللَّيل تجرؤ على الاقتراب حتى يغيب نجم الشمس ويرقد متعبًا. ولمَّا طلع النهار، نسي البشر ذلك الزمن اللَّامتناهي حين كانت النجوم جميعًا تسطع بالقدر نفسه من السَّعادة، ونسوا الدرس المستفاد من غمرة اللَّيل التي كانت ملكةً منذ الأزل من دون أن تُضطَرّ إلى فرض حكمها قطّ».

كانت تلك هي الأسطورة. ولكنْ بعد مضيِّ أربعين عامًا، لم يعُد لتلك التهويدة المفعمة بالأمومة أدنى تأثير. سرعان ما أعرف إن كنت عائدًا إلى الدَّغل، هناك حيث نسي البشر جميع الدروس. سيكون ذلك صيدي الأخير. ومرَّة أخرى، يتردَّد في دخيلة نفسي صدى الصَّوْت الأوَّل من بين جميع الأصوات: «وكلُّ شيء في منتهى البطء في قبَّة السماء اللَّامتناهية!»

* * *

الصباح الباكر، وأنا لم أغفُ إلَّا لمامًا، أُعِدُّ نفسي للذهاب إلى مقرّ الجريدة، على بعد مُربَّعَيْن سكنيَّيْن من بيتي. ولكنِّي أستلُّ بندقيَّتي العتيقة من الخزانة قبل الخروج. أودعها فوق ساقيَّ وأنا أتحسَّسها بحُنُوٍّ يليق بعازف كمان. اسمي منقوش على كعب البندقيَّة: أركانچو باليرو ـ صيَّاد. لا بدَّ أن يكون أبي فخورًا باستمرار تقليد العائلة العتيق من خلالي. التَّقليد الذي كان سببًا في اقتران ذلك الاسم بنا: لأنَّنا نحن أصحاب الرَّصاص، آل باليرو[1].

* * *

صيَّادٌ أنا، وأعرف معنى أن يطارد المرء فريسةً. وعلى الرَّغم من ذلك، فقد عشتُ مُطارَدًا مدى الحياة. عشتُ ورصاصةُ بندقيَّةٍ تطاردني منذ الطفولة. تلك الرَّصاصة التي سرقت من عينَيَّ النوم نهائيًّا، منذ أربعين عامًا. كنتُ طفلًا ينام كما لا يقدر على النوم سوى الأطفال. وإذا دويُّ الرصاصة يشقُّ اللَّيل والعالَم. لستُ أدري كيف قطعتُ الرواق الطويل آنذاك، أجرِّر قدميَّ الصغيرتَيْن الملتصقتَيْن بالأرض. في الصالة، وجدتُ أبي وقد انشقَّ صدره، يلوِّح بذراعَيْه في بحرٍ من الدِّماء، وكأنَّه يسبح إلى ضفَّة لا يراها سواه. وبينما العالَم يتداعى، لبث أخي رونالدو في حجرته جالسًا، والسِّلاح على عنقه.

أمرني بهدوء عجيب:

ـ لا تمسسني. إيَّاك أن تمسَّني ما حييت، وإلَّا احترقت.

---

(1) باليرو: قد تعني باللُّغة البرتغاليَّة صانع الرَّصاص أو صاحبه، وهي مُشتقَّة من كلمة «بالا» Bala، أي رصاص.

مكث على تلك الحال، جامدًا بلا حراك، حتى اجتاح الجيران والأقرباء بيتنا فزعين صارخين. ومن النافذة، رأيتُ أخي يقتاده رجال الشُّرطة. لا شكّ يرقى إلى ما جرى: فقد أطلق أخي رصاصةً على أبينا، الصيَّاد ذائع الصيت إنريكي باليرو. الحادث الذي تكهَّنتْ به أمّي قبل وقوعه:

ـ الأسلحة الناريَّة في البيت تُفضي إلى المأساة.

هكذا، كانت مارتينا باليرو تقول. ولكنَّ أمَّنا لم تكُن هناك يومَ قضى أبي نحبه للتأكُّد من صحَّة توجُّسها. فقد سبقته إلى الموت بأسابيع، تحت وطأة مرض غريب أتى عليها في طرْفة عين. وإذا بي يتيم الأب والأم ـ في شهرٍ واحد ـ وأنا لا أكاد أبلغ العاشرة من عمري. ثمَّ افترقت عن أخي رونالدو إلى الأبد. أخي الذي أُعفِي من جميع تحرِّيات الشُّرطة نظرًا لأنَّه في سنّ المراهقة. كان ينظِّف السلاح كعادته امتثالًا لتعليمات الأب. وعلى الرَّغم من ذلك، فقد تقرَّر إيداعه في مستشفى الأمراض النفسيَّة أوَّلًا. يُقال إنَّه لم يعُد للكلام قطّ، لم يعُد بشرًا مرَّة أخرى قطّ. كان رونالدو صورة مُجسَّدة للطِّيبة، ولكنَّ روحه استسلمَتْ لوخز الضمير الذي راح ينهشه. وفي تلك السماء اللَّيليَّة، سماء الأسطورة التي كانت تسردها لنا أمّنا، لحق أخي بالنجوم التي ابتلعتها العتمة.

***

كان أبي رجلًا يملأ العالَم، يطأ بقدمه أرضيَّة البيت فنحسُّ بالمكان يتأرجح تحت ثقله فجأة كما لو كنَّا في قاربٍ صغير. أمَّا عمله، فكان أكثر من مُجرَّد مهنة، لأنَّ أبانا، إنريكي باليرو ذائع الصيت، كان صيَّادًا يكثر عليه الطَّلب، وغيابه يملأ البيت تنهيدات وأسرارًا. كان

رجلًا ممشوق القوام، مُتقشِّفًا، لا يميل إلى الحديث. لو كنتُ قد نشأتُ معه من دون غيره، فلربَّما عجزت عن تعلُّم الكلام. ولكنَّ أمِّي كانت تخفِّف من وطأة ذلك الجانب الانطوائيّ الذي تميَّز به أبي. كان مهاجرًا من جبال مانيكا[1]، حيث نشأ وسط الأجراف والصخور. فكنَّا نسمعه يردِّد في حنين:

ـ هناك حيث وُلِدت، الأرض أوسع من السماء.

وربَّما لكونه من عشيرة أخرى، وقع اختيار إنريكي باليرو على خلاسيَّة ليتَّخذ منها زوجة. حينها، لم يكُن من الشَّائع أن يتزوَّج أسْود من عرقٍ آخر. فجعله الزواج أشدّ عزلة، يتجنَّبه السُّود ويستبعده البيض والخلاسيُّون. في حقيقة الأمر، لم أفهم أبي حتى صرت أنا نفسي صيَّادًا. كان أبي يستغرب العالَم ذاته.

***

مُوظَّفة الاستقبال في الجريدة امرأة بدينة، تجرِّر صوتها ولفتاتها. تبدو وكأنَّها قد وُلِدَت على تلك الحال، جالسة، وعجيزتها تشبه كوكبًا يضاهي كوكب الأرض.

ـ جئتُ أسأل عن نتيجة المناقصة.

أهزُّ قصاصة الإعلان أمام النافذة الزجاجيَّة. لمُوظَّفة الاستقبال صوت يشبه صوت الناي، خُلِق لينسلَّ عَبْر شقوق الزجاج المُهشَّم.

ـ هل أنت الصيَّاد شخصيًّا؟

ـ أنا الصيَّاد الأخير. وهذا صيدي الأخير.

---

(1) جبال مانيكا: تقع في المنطقة الوسطى من موزمبيق.

ترفع المُوظَّفة بصرها إلى السَّقف كرائد فضاء يتأمَّل السَّماء ظهرًا. تفضُّ مظروفًا أمامي في حين أستطرد في نشوة، محاولًا إرجاء لحظة الكشف عن النتيجة بلا أدنى شكّ:

ـ لستُ أدري لنشر الإعلان سببًا. لم يعُد هناك المزيد من الصيَّادين. هناك من يجوبون الأنحاء مطلقين نيرانهم. أمَّا أولئك فليسوا صيَّادين، وإنَّما قتلة، كلُّهم. لم يبقَ صيَّاد غيري أنا.

ـ أركانچو باليرو؟ أهذا اسمك؟

ـ لم يبقَ غيري.

أكرِّر وأنا لا أحير جوابًا. أسترسل في خطابي الهاذي. سرعان ما لا يبقى حيوان واحد، أجزم لها. فأولئك الصيَّادون الزائفون لا يرحمون منها لا الصِّغار ولا الإناث الحبلى، ولا يراعون الفصول المُحرَّم خلالها الصَّيْد، بل إنَّهم يجتاحون المتنزَّهات والمحميَّات. ويمدُّهم أصحابُ النفوذ بالسِّلاح وكلِّ شيَء. عند أولئك القتلة، ينحصر الأمر برمَّته في الثلاثيَّة المُقدَّسة: السلاح، والمال، والسُّلطة. ثمَّ أتنهَّد في إحباط:

ـ عندهم كلُّ شيء لحم، كلُّ شيء نيامَه[1].

عند ذاك وحسب أعود إلى العينَيْن الخامدتَيْن، عينَي المرأة البدينة التي تترقَّب ختام مرافعتي.

ـ اسمك أركانچو باليرو؟ لك أن تصيد كما تشاء، فلقد رست عليك المناقصة.

ـ هل لي بالدخول إلى مكتبكِ؟ أودُّ لو قبَّلتُكِ.

(1) «نيامَه»: تعني «لحمًا» في بعض اللُّغات المحلِّيَّة المنطوقة في موزمبيق.

وإذا هي تهبُّ في خفَّة غير مُتوقَّعة وتطلُّ من نافذة مكتبها، حيث تترقَّب مغمضة العينَيْن، وكأنَّ قبلتي الجائزة الوحيدة التي لم تنَل سواها مدى الحياة!

* * *

أعجِّل بالابتعاد عن مقرّ الجريدة، وأنسلُّ من بين جمع من الباعة الجائلين. أذهب لزيارة أخي رونالدو، في مستشفى إنفولينيي للأمراض النفسيّة. فلقد أُودِع في المستشفى منذ الحادثة التي أودت بحياة أبينا. لم أزره منذ عام. أمَّا الآن، فأتوق لإبلاغه بخبر المناقصة. يستحقُّ رونالدو أن يكون أوَّل من يعلم. وإن لم يكُن لي سواه أشاطره السعادة في واقع الأمر.

الرّحلة بالسيَّارة طويلة، إذ تقع المستشفى فيما وراء ضواحي الخشب والزَّنك بمسافة. وفيما أنا مُتَّكئ برأسي على الزجاج، أرى الجموع المُحتشِدة وهي تمرّ في الطرقات وعلى الأرصفة. أفي الأرض مُتَّسعٌ لكلّ هؤلاء؟ أسمع صوت أبي يتحسَّر في حنين: «هناك حيث وُلِدت، الأرض أوسع من السَّماء!». أغمض عينيَّ وأتخيَّل للحظةٍ أنَّني آتٍ من مكان آخر، مفعم بالأرض والسماء.

أحيانًا، أسائل نفسي ما إذا كان يجدر بي النزول في مستشفى أنا الآخر. فحبيبة أخي، المُمرِّضة التي تُدعَى لوزيليا، موقنة من جنوني. ربَّما كان بي مسٌّ من الجنون، لستُ أجادل في هذا الشأن. ولكنّي أسأل: أيكون لمن فقد الحياةَ عقلٌ؟ مراعاةً للصدق، فإنَّ لوزيليا هي التي أبعدتني عن روحي. هي التي من أجلها أكتب هذه اليوميَّات، وعبثًا آمل أن تقرأ تلك المرأة مخطوطاتي المكتوبة على عجل. ليست هذه

هي المرَّة الأولى التي أزيِّن فيها الحروف من أجل لوزيليا. فقد سبق لي أن كتبت بضعة أسطر وجيزة ولكنْ مشؤومة. كتبتُ لها آنذاك دعوةً. أمَّا الآن، فأخربش على الورقة وداعًا. وداعًا زائفًا، ككلّ ما في الصيَّاد، وهمًا ابتكرتُه بنفسي. هناك حيث تسكن الذكرياتُ في نفوس الآخرين، لا يسكن في نفسي إلَّا كذب وسراب.

* * *

لوزيليا على حقّ، فقد بدأ جنوني يومَ شقَّت الرَّصاصة نومي وعثرتُ على أبي في الصالة يلوِّح بذراعَيْه، غارقًا في دمائه. قبل أن أصبح يتيمًا، كان كلُّ شيء عندي سليمًا بلا مساس: البيت، والزَّمن، والسَّماء التي قيل لي إنَّ أمِّي تجوبها ساهرةً على حراسة النجوم. وعلى الرَّغم من ذلك، فلقد نظرتُ إلى الحياة بغتةً فتملَّكني الذُّعر. كم كانت الحياة لامتناهية، وكم كنتُ صغيرًا وحيدًا! ما كدتُ أطأ الأرض بقدميَّ حتى انكمشت. كم كانت قدماي هزيلتَيْن! وفجأةً، لم يعُد هنالك سوى الماضي. وإذا الموت بحيرةٌ أشدّ عتمة وبطئًا من قبَّة السَّماء. وأمِّي على الضِّفَّة الأخرى تكتب الرَّسائل، وأبي يسبح، فلا يعبر البحيرة اللَّامتناهية أبدًا.

* * *

لم يتبدَّل في المستشفى العتيق شيء. كانت لوزيليا هي التي جاءت إلى صالة الانتظار الضخمة لمقابلتي. ما زالت جميلة، بنظرتها المفعمة بالغواية، وعادة ترطيب الشفتَيْن باللِّسان التي تلازمها. كانت لوزيليا مُمرِّضة في ذلك المستشفى، حيث لم يكُن شيء غريبًا عليها.

ـ ما أطول الوقت الذي أمضيتَه في الخارج...

فكَذَبْتُها القول:

ـ كنتُ هناك، منشغلًا.

ـ أنا وأخوك تزوَّجنا.

أتظاهر بالسعادة. تتحدَّث لوزيليا، فيتباعد صوتها شيئًا فشيئًا. توضح لي أنَّ المستشفى قد أخلى طرف رونالدو عشيَّة الزَّفاف، بل إنَّهما حاولا الإقامة في البيت، فلم يتسنَّ لهما ذلك. إذ لم يعُد رونالدو يعرف كيف يكون له وجود إلَّا في المرض. فأُودِع في المستشفى مرَّة أخرى.

***

شيئًا فشيئًا، ما عدتُ أنصتُ إلى قريبتي الجديدة. قد أكون عاجزًا عن مصاهرة المرأة التي أردتُها حبيبةً. أبتعد عن الحاضر، فأعود إلى أحداث مضى عليها عام. في المكان ذاته اعترفتُ إلى لوزيليا بشغفي المُتَّقد بها. كانت أمسية خاوية، من تلك الأمسيات التي تجرِّر نفسها كالمرض المعديّ. فتنفَّستُ عميقًا، وأنا لا أنظر إلى وجهها، وبحتُ بمشاعري إلى لوزيليا التي راعها ما قلت. لم تقُل شيئًا، فاسترسلتُ أنا في حديثي:

ـ لوزيليا، عليَّ الإفضاء بشيء إليكِ. كلَّما جئتُ إلى هنا، إلى هذا المستشفى، جئتُ لزيارتكِ أنتِ.

ـ قولك عارٍ من الحقيقة. وماذا عن أخيك؟

ـ جئتُ من أجلكِ أنتِ.

وعند ذاك سلَّمتُها الرسالة. فتمهَّلَت قبل الشروع في القراءة، وظلَّت أصابعها الصغيرة جامدة، ويدها مُتأمِّلة. ثمَّ راحت تقرأ بصوت خافت:

«منذ أحببتُكِ والعالَم بأسره لكِ أنتِ. ولذا، فأنا لم أهبكِ شيئًا. وإنَّما بالكاد رددتُه لكِ. لا أترقَّب منكِ مقابلًا. وعلى الرَّغم من كلّ شيء، فإنَّ رسالتي تطلب ردًّا، على الطريقة القديمة: إن كنتُ أروق لكِ، إن كنتِ تبادلينني الإعجاب، فاطْوِي طرف الرسالة وردّيها إليَّ غدًا».

في اليوم التالي، لم تتطرَّق لوزيليا إلى الأمر. لم تجلب الرِّسالة، ولم تنبس بكلمة واحدة. ليس لها أن تتخيَّل كم آلمتني بما أبدته من عدم اكتراث. كان يجدر بي أن أملك زمام نفسي، ولكنِّي لم أستطِع:

ـ ألم تطوي الرِّسالة؟

هزَّت رأسها نافيةً. فأخفيتُ الألم الذي أحدثه الصدّ في ذاتي. كم تتَّسع نفوسنا لدفن تلك الميتات الصغيرة التي نموتها! قطعنا الأروقة جنبًا إلى جنب، في صمت بارد بقدر برودة المصحَّة النَّفسيَّة ذاتها. وفيما أنا خارج، طلبَت منِّي لوزيليا:

ـ لا تنقطع عن زيارة المستشفى، من فضلك. فأخوك ليس له سواك.

ـ عليكِ بالتخلُّص من رسالتي.

ـ هذا ما سأفعله.

ـ إنَّ الاعتراف إليكِ بمشاعري لحماقة كبيرة، ما كان يجدر بي ارتكابها. والآن، ردِّي لي الرِّسالة.

ـ الرّسالة لي أنا. أولستُ مالكة كل شيء؟

ها قد مضى عام، ولوزيليا تسير أمامي، وتؤكّد لي أنّها مالكة روحي، مالكة العالَم بأسره.

***

يجلس أخي رونالدو في شرفة جناح المرضى، ناظرًا إلى يدَيْه الجامدتَيْن كعهده دائمًا. وكأنَّ الزَّمن لم يمضِ. فها هو ذا، على الحال نفسها من الإذعان في وجه القَدَر. أزفُّ إليه الخبر:

ـ غدًا، أذهب إلى الدَّغل.

فلا يتبدَّل فيه شيء. ما زال شاخصًا إلى يدَيْه وكأنَّهما بلا حياة. أردفُ قائلًا:

ـ سيكون صيدي الأخير.

في تلك اللَّحظة، ينتفض جسد أخي كاملًا، في هياج مباغت. وإذا به يخرج من سباته فجأةً. وفي يأس الغرقى، يتشبَّث بذراع لوزيليا ليقترب منِّي. يبدو أنَّه يتكلَّم، بَيْد أنَّه لا ينطق بكلمة، بالكاد يطلق ضربًا من التنهيدات الجزعة، وكأنَّه يزدرد الهواء بجرعات أكبر ممَّا يتَّسع له صدره. تفهم زوجته ما يقصد، فتومئ برأسها. يتفاهمان. بعد ذلك، يعود إلى مقعده القديم، حيث يغوص داخل ذاته. لم يعُد هنالك ما يُقال، فترافقني لوزيليا إلى البوَّابة. كنتُ أنا الذي كسرتُ حاجز الصمت المُحرِج.

ـ ماذا قال رونالدو؟

ـ طلب إليَّ مرافقتك في هذا الصيد.

ـ ليست هذه حقيقة!؟

تخفض لوزيليا بصرها، وتشير بلفتة مبهمة، وكأنَّما الأمر برمَّته كابوس. أسألها:

ـ هل يعرف شيئًا؟

ـ أيُّ شيء؟

ـ مشاعري نحوك.

ـ يعرف منذ أمد بعيد. رونالدو قرأ رسالتك إليَّ. عثر عليها في حقيبتي.

ـ وكيف ذاك؟

ـ لم أتخلَّص منها قطّ.

كان رونالدو مرتابًا، فصيدي الأخير بمثابة وداع للحياة. حتى وإن عدتُ إلى المدينة، سليمًا معافى، فلن أعود أنا نفسي أبدًا. لم يكُن الجنون مُجرَّد مرض، بل حِكْم صادر في حقّ العائلة. ولا خلاص لي من ذلك المصير السَّقيم إلَّا بالصَّيْد.

كان ذلك ما توجَّسه أخي رونالدو واعترف به إلى لوزيليا. وفي يأس، قدَّم إليَّ سببًا لمواصلة التشبُّث بالحياة. فكان ذلك السَّبب هو المرأة الوحيدة التي أحبَّها يومًا. درتُ على عقبيّ، وسارعت بالابتعاد عن ذلك المكان. عند ذاك استوقفتني لوزيليا:

ـ أركانچو؟ ألا تريد أن تعرف ما أودُّ فعله؟

ـ كلّا. ذلك شيء ما عاد يهمُّني الآن. فأنا ببساطة لا أريد منكِ أن تأتي. مكانكِ هنا، إلى جوار رونالدو. أليس هو الذي اخترتِه؟

ما روته ماريامار
(2)
العودة إلى النهر

«واحد هو الطريق للهرب من المكان: الخروج من «المرأة» اسمها الحقيقيّ «موافقة». ينهاها أحدهم قائلًا: «لا تذهبي»، فتجيب: «إنِّي باقية». ينهاها أحدهم قائلًا: «لا تتكلَّمي»، فتلزم الصمت. ينهاها أحدهم قائلًا: «لا تفعلي»، فتجيب: «لن أفعل»».

(قول مأثور من السنغال)

في اللَّيلة الفائتة، صدر الأمر في بيتنا: تبقى النساء في عزلة، بمنأى عن القادمين. مرَّة أخرى نُستثنَى، نُستبعَد، نُمحَى.

في اليوم التالي، أحرزتُ تقدُّمًا في الأعمال المنزليَّة. كنتُ أودّ التهوين على أمِّي التي أكبَّت على الأرض عند مدخل الباحة منذ الصباح الباكر. وفي لحظة بعينها، ارتميتُ إلى جوارها، عازمةً على مشاطرتها ذلك الثقل الذي ينوء بحمله الرُّوح. في البدء، تجاهلتني، ثمَّ تمتمت بأسنان مطبقة:

ـ إنَّ هذه القرية قتلت أختك. قتلتني أنا. ولكن اعتبارًا من الآن، فإنَّها لن تعاود القتل أبدًا.

ـ أرجوكِ يا أمِّي. لقد فرغنا من دفن واحدة منَّا لتوِّنا.

ـ لقد دُفِنَّا جميعًا منذ أمد بعيد، نحن النساء. دفنني أبوكِ. وحتى جَدَّتكِ، وجَدَّتكِ الكبرى، جميعهنّ دُفِنَّ على قيد الحياة.

كانت اَنيفا أسّولوا على حقّ، إذ ربَّما كنتُ أنا نفسي قد دُفِنت وأنا لا أدري. فواراني التراب من فرط جهلي بالحبّ. كانت قريتنا مقبرة حيَّة، لا يزورها إلَّا سُكَّانها. نظرتُ إلى البيوت المُمتدَّة عَبْر الوادي. البيوت

الحائلة ألوانها، المفعمة بالكآبة، وكأنَّها نادمة لأنَّها أُقيمَت فوق الأرض. مسكينة كولوماني، وهي التي لم تشتهِ أن تكون قرية يومًا. مسكينة أنا، وأنا التي لم أشتهِ أن أكون شيئًا.

توسَّلتْ أمِّي كي نذهب إلى المدينة مرَّات لا يُحصَى لها عدد.

ـ يا زوجي، أرجوك، أستحلفك بكلّ المُقدَّسات. فلنرحل من هنا.

ـ أنتِ التي تريدين الرحيل، فارحلي.

ـ سنترك القبور في رعاية أحدهم.

ـ بالعكس يا امرأة، فالقبور هي التي ستتركنا بلا رعاية إن رحلنا.

* * *

نفضتُ عنِّي الذكريات. فأيُّ طائل يُرجَى الآن من تقليب المواجع القديمة؟ لو أنَّنا تشبَّثنا بالماضي، فكيف تتمكَّن سيلينسيا من البكاء من خلال عيوننا، وهي التي قضت في الآونة الأخيرة؟

ـ يا أمِّي، أعرب أبي عن شكواه لأنَّكِ قد خالفتِ وصايا الحِداد أمس. أحقٌّ أنَّكِ ازدريتِ الأرواح؟

ـ دعيني أسْدِ إليكِ نصيحة يا بنيَّتي، عندما تطارحين الغرام، فليكُن ذلك في لُجِّ النهر، في الماء، كالأسماك.

ـ يا إلهي! ما هذا بحديث أم!

ـ أقول لكِ إنَّ مطارحة الغرام في الماء خير منها في الفراش.

ـ وكيف عرفتِ؟

ـ أرى الجارة.

ـ الجارة؟ مستحيل، فهي أرملة.

افترَّ ثغرها عن ابتسامة خبيثة، واعترفَت بأنَّها تتوارى عن الأنظار على ضفَّة النهر، من حيث تختلس النظر إلى الجارة وهي تغتسل وحيدة. فتتحوَّل يدا الجارة شيئًا فشيئًا إلى أيدي كائنات أخرى، وتبثُّ في جسدها رجفات لم تحسَّها من قبل.

ـ علَّمتني الجارة طريقة للثأر من الرجال...

تراني فهمتُ ما يخفيه ذلك الاعتراف؟ الجارة تطارح الموتى الغرام، الموتى دون سواهم. هذا ما ترمي إليه آنيفا. جيل إثر جيل من الموتى مرّوا من بين ذراعَيْ جارتنا. بشر قادمون من بعيد، بشر أنقياء العرق، بشر لم يكونوا بشرًا قط، فاتَّقدوا جميعًا في قاع النهر. ولم تجنِ المرأة من تلك الغراميَّات التي اختارتها بنفسها جميعًا سوى المزايا. فلا مرض، ولا خيانة، ولا مجازفة بالحَبَل. إن هي إلَّا ذكريات باقية، بلا رماد ولا بذور. لم تجد نساء كولوماني الحبّ المُتبادَل سوى بمنأى عن الأحياء، وذلك ما راحت أمّي تعلِّمني إيَّاه.

ـ الأمر الذي أصدره أبوكِ صحيح. من اليوم فصاعدًا، لن تغادري البيت.

لم أُفاجَأ على الإطلاق بأن تكون عزلتي امتثالًا لرغبة أبي. وعلى الرَّغم من ذلك، فلقد عجبتُ لتلك الحماسة التي بها تؤيِّد أمّي قرار زوجها الآن.

ـ هو ذاك إذًا، ماريامار. هنا تبقين، والباب مُقفَل دونكِ بإحكام!

ثمَّ دار في خَلَدي أنَّ الإصرار على إبعادي عن القادمين قد لا يكون مُحيِّرًا إلى هذا الحدّ. فأمّي لا تعرف الحبّ. بينما تحظى الجارة

بمزيَّة، فهي تَعْشَقُ وتُعْشَقُ في قاع النهر. على عكس أنيفا أسّولوا التي تخشى الطريق، والرحلة، والمدينة. ما كان خروجي هو الذي يُكدِّرها، وإنَّما شعورها بالحنق، لأنَّ أحدًا لا يريد اصطحابها. في حين كانت أمّهات أخرى، في أمكنة أخرى، يتمنَّين لبناتهنَّ الازدهار في أرجاء العالَم. ولكنَّ أسرتي قد لوَّثها الشرُّ السائد في قريتنا.

من رأى القرية من الخارج، كأولئك الذين هم في الطريق إليها الآن، ظنَّ سُكَّانها من الأنقياء الصالحين. بَيْد أنَّه محض خطأ. فأهل كولوماني يُحسنون ضيافة البعيد والغريب. أمَّا فيما بينهم، فالحسد والاغتياب سائدان. ولذا، كان جَدُّنا يذكر على الدوام:

ـ لا حاجة بنا ولا حتى إلى الأعداء. فلطالما اكتفينا بأنفسنا لإلحاق الهزيمة بأنفسنا.

***

كلَّما خوت الحياة، حفلَت بالراحلين: المنفيّون، المجانين، الموتى. في كولوماني، كلُّنا يعبد موتاه، كلُّنا يحتفظ بجذور أحلامه في موتاه. أمَّا أنا، فأكثر من شقَّ عليَّ موتُه هو أدچيرو كاپيتامورو. خالي الأكبر. على هذه الأرض، نلقِّب جميع الأخوال «أجدادًا». ولكنَّ أدچيرو هو الجَدّ الذي لم أعرف سواه. في البيت ندعوه أناكولو، أي «كبيرنا». ليس هناك من عرف عمره قط، حتى هو نفسه لم تكُن لديه أدنى فكرة عن تاريخ مولده. وبلغ من الخلود حدَّ أنَّه نسب إلى نفسه ملكيَّة النهر الذي يمرُّ بالقرية، طبقًا لمزاعمه. فكان يدَّعي بخُيلاء قائلًا:

ـ إنِّي أنا صانع هذا النهر، لوندي ليدايا.

وتطول قائمة ابتكاراته المدهشة: فعلاوة على النهر، كان جَدِّي صانع الصخور والهاويات والأمطار. ويرجع الفضل في كلّ ذلك إلى المينتيلا القديرة التي كان يُعدّها، أي الوصفات المنزليَّة والتمائم والتعاويذ. وعلى الرَّغم من كلِّ شيء، كان يدفع عن نفسه تلك الصفة الخطيرة:

ـ ما أنا بساحر، بل إنَّني مُجرَّد شيخ.

أمَّا والده، مواريمي المُبجَّل، فكان يحمل رتبة كابتنمور[1] في الحقبة الاستعماريَّة. فتولَّى جباية الضرائب وفضَّ النزاعات المحلِّيَّة لصالح المُستعمِرين. المنصب الذي ألصق بجَدِّي الأكبر ذنوبًا وأضرم نحوه الأحقاد، وخلق له عداوات دائمة. كما أنّه المنصب الذي ألصق بعائلتنا لقبها الذي تزهو به الآن: آل كاپيتامورو. على أرض بلا رايات، نرفع تلك الشارة المستعارة وكأنّه حقّ طبيعيّ عمره قرون.

أمَّا جَدِّي أدچيرو، فقد اتَّخذ لنفسه مهنة مغايرة بما يخالف تقليد العائلة: الصَّيْد. وهكذا، كان بحكم المهنة والقَسَم الذي قطعه على نفسه: صيَّادًا. كان يقول: «السلاح روحي». بَيْد أنَّه قتل رجلًا من دون قصد خلال مطاردة فهد في أنحاء كيونغا. وليطهِّر نفسه من تلك الدِّماء، كان عليه أن يفرك نفسه برماد الأشجار. ولكنَّه أبى الخضوع لتلك الطقوس، فتلك إهانة لا يحتملها رجل مُتشبِّه مثله. فحُظِر عليه الصيد، وانحصر دوره في اقتناص الأثر. وفي وقار يليق بالملوك، قَبِل بتجريده من منصبه وشَغْل مكانة أدنى. فلم يفقد طباعه النبيلة حتى الممات.

(1) كابتن ـ مور: كان منصبًا عسكريًّا يخوّل صاحبه السُّلطة على قرية أو مقاطعة بعينها في ظلّ الاستعمار البرتغاليّ.

وعلى الرَّغم من تولّيه أعمالًا دنيا، فما برح يلقي بظلّه على قرية كولوماني بأسرها. أمَّا الآن، والقرية ترتعد أمام تهديد الأسُود، فالكلّ يشعر بالحنين إلى تلك الحماية الإلهيَّة.

كان في وسع أبي جِنتيو سيرافين إمپيپيه أن يصبح صيَّادًا هو الآخر، وكان له كلّ الحقّ في ذلك، ولكنَّه آثر العمل في اقتناص الأثر، تضامنًا مع مرشده الراحل. بما أنَّ واحدًا منهما قد جُرِّد من منصبه وعُهِد إليه بعمل أدنى، فليلحق به الآخر إذًا. ففي خاتمة المطاف، كان جِنتيو يطمح إلى السَّير على خطى الصيَّاد المخلوع عن عرشه. وعلى الرَّغم من ذلك، فمنزلة الجَدِّ كانت عصيَّة على البلوغ، إذ كان أدچيرو أكثر من مُجرَّد موينيكايا، أي كبير العائلة. فامتدَّت سلطته إلى أنحاء الجوار كافة. كان حُكْمًا صامتًا، غير مُعلَن، يليق بصاحب جلالٍ، لا حاجة به إلى الكلمات. أمَّا أنا، ماريامار، فكنتُ عنده شخصًا مُميَّزًا. ومن أجلي احتفظ «كبيرنا» بالبشرى الأكثر إبهامًا. فتنبَّأ قائلًا:

ـ أمَّا أنتِ، ماريامار، فمن النهر جئتِ. ولسوف تفاجئين الجميع، وتذهبين حيثما النهر ذاهب في يوم من الأيَّام.

***

امرأةٌ أنا، ويستحيل أن يكون السفرُ قَدَري يومًا. وعلى الرَّغم من كلِّ شيء، كان أدچيرو كاپيتامورو على حقّ. فبالكاد مرَّ يومان على موت سيلينسيا وها أنا مسافرة على متن طوْف ماضٍ في اتِّجاه النهر. أهرب من الحكم بالسجن الذي أصدره في حقِّي سجَّاني بالوراثة، جِنتيو إمپيپيه. لا طرقات تنفع للهرب من كولوماني ولا دغل. فأبي على الطريق، والأسُود القاتلة في الدَّغل، وكلُّ مخرج بمثابة شَرَك. لم يبقَ لي سبيل

سوى النهر. دُعِي هذا الخيط من المياه ليدايا، تيمُّنًا باسم طيور اليمام التي تزورنا في موسم الأمطار. كان يبدو غديرًا مجهولًا، ولكنَّا خفنا أن يجفَّ إلى الأبد لو ظلَّ بلا اسم. يُقال إنَّ جَدِّي أدچيرو كاپيتامورو هو من سمَّاه. أمَّا نحن، فكنَّا نتظاهر بالتَّصديق.

وهكذا، يمضي كلانا قدمًا: نهر ليدايا الذي يُدعَى باسم الطائر؛ وأنا، ماريامار، التي تُدعَى باسم المياه[1]. أسافر عكس اتِّجاه القَدَر، ولكن في اتِّجاه التيَّار. كان القارب يشبه الإذعان طوال الوقت، إذ لا يمضي مدفوعًا بقوَّة ذراعَيَّ، بل مدفوعًا بقوى أؤثر الجهل بها. نوفمبر شهر الابتهال من أجل تساقط الأمطار. أمَّا أنا، فأبتهل من أجل أرض أتمكَّن فيها من التساقط كالأمطار، بلا وزن ولا جسد.

***

يُقال إنَّ هذا النهر يمرُّ بالمدينة في موضع أكثر بعدًا. أشكُّ في ذلك. فنهري الذي لا يجيد البرتغاليَّة، نهري العامر بأسماك لا تعرف أسماءها سوى بلغة الماكوندي[2]، لا أصدِّق أن يُسمَح له بالدُّخول إلى المدينة. حتى أنا سيعترضون سبيلي، لو طرقتُ باب العاصمة يومًا.

***

«أذعني لكلّ شيء، ما عدا الحبّ»، هكذا كانت تقول لي سيلينسيا، أختي المسكينة. لكنَّ الحبّ هو الذي يدفعني إلى الخروج

---

(1) جدير بالذكر أنَّ المقطع الأوَّل من الاسم، أي «مار» Mar، يعني باللُّغة البرتغاليَّة بحرًا. ويرِد تفسير معنى ماريامار باستفاضة في موضع لاحق.

(2) الماكوندي (وتُعرَف أيضًا باسم الشيماكوندي): لغة جماعة عرقيَّة معروفة بالاسم نفسه، وموطنها جنوب شرقيّ تنزانيا وشمالي موزمبيق.

من كولوماني، والنأي بنفسي عن نفسي، عن مخاوف الحاضر وكوابيس المستقبل. ليست الرَّغبة في تمزيق الحبال هي التي تحدوني إلى العصيان، بل إنَّ الدافع الأكبر غير ذلك. فأرتكب هذا الجنون بسبب الإعلان عن وصول الزائرين، بسبب واحد منهم: أركانچو باليرو، الصيَّاد. ذلك الرجل الذي صادني أنا، منذ زمن مضى. ومن حينها، لم تعرف نفسي الطمأنينة يومًا. إنَّما الهرب من الحبّ هو السَّبيل الأمثل للإذعان إليه. فكلَّما وطَّدتُ سيادتي على نفسي، تمكَّنتْ منِّي عبوديةُ هذا الحبّ أكثر فأكثر. وليس في العالَم بأسره نهرٌ واحد يحرِّرني من ذلك الشَرَك.

***

أُصِبتُ بأركانچو باليرو منذ سبعة عشر عامًا. كنتُ في السادسة عشرة من عمري لمَّا عَبَر النهر معي، مُجرَّد صبيَّة، وإن كانت أحلامي تكبُر جسدي عمرًا. لم تعُد لي وجهة سوى البقاء بمنأى عن كولوماني. في أمسيات الأحد، كنتُ أسطو على قنِّ الدواجن الذي تملكه الإرساليَّة الكاثوليكيَّة، ومن ثمَّ أبيع الدجاج على حافَّة الطريق. كنتُ أنوي ادِّخار نزر يسير من المال كي أولِّي هاربةً إلى المدينة، وإن كانت الطريق شبه مهجورة، خالية من السابلة إلَّا فيما ندر. كانت الحرب قد انتهت في العام نفسه، عام 1992، وإن ظلَّت مشنقةٌ خفيَّة تحيط بعنق مكاننا وتخنقه.

لم أفهم سببًا قطّ لتجمُّع كلّ هذا العدد من الباعة الجائلين على حافَّة الطريق الميِّتة. ربَّما كان ذلك ضربًا من الابتهال، وسيلة نجثو بها أمام القَدَر؛ أو ربَّما كان السَّبب مرور شاحنات جمع الأخشاب غير المشروع من آن إلى آخر، صفقات أصحاب النفوذ الذين كنَّا ندعوهم

«أصحاب الأرض». مهما يكُن من شيء، كنتُ أرفع الدجاجات في الهواء فتخفق بأجنحتها في طيران أعمى قصير. لم يحدث يومًا أن توقَّف أحد أو اشترى. أمَّا الدجاجات، فكانت تتدَّلى من يدي مرَّة أخرى، مُحدِثةً قوقأة غبيَّة، وكأنَّها مُثقَلة بانطلاقة الطيور التي تجرَّأت عليها لبضع لحظات.

ذات مرَّة، دنا منِّي الشرطيّ ماليكيتو پروپريو ـ عنصر النظام الوحيد في كولوماني ـ مُفعَمًا بالغطرسة، وتوجَّه إليَّ راغبًا في التحقُّق من مصدر بضائعي. فأشار إلى الدجاجات، بوصفها جسم الجريمة، واتَّهمني بسرقتها. ثمَّ أمرني بمرافقته. فسألته مرتعدةً:

ـ إلى المخفر؟

ـ لا مخفر في كولوماني، كما تعرفين حقّ المعرفة. ولكنِّي أملك الحجز الخاصّ بي.

كانت وقائع الاستغلال المُتورِّط فيها ماليكيتو معروفةً لدى القاصي والداني. وفي تلك اللَّحظة، لم تفعل نظراته العَكِرة سوى التأكيد على نواياه الخبيثة. انطفأ النور في عينَيَّ، وخارت ساقاي. ولكنَّ ماسورة البندقية المغروزة في ظهري لم تمهلني.

ـ أرجوك، لا تؤذني.

وعند ذاك، ظهر أركانچو باليرو كفارس وُلِد من العدم. وقف أمامي، على درَّاجته البخاريَّة، أمبراطورًا ذا مهابة وحاكمًا ذا سيادة على العالَم. وقف الشرطيّ في وجه الدَّخيل، يتفرَّس فيه من قمَّة رأسه إلى أخمص قدميه. وبعد صمتٍ مدروس، قرَّر الانسحاب. لستُ أدري ما إذا كان الصيَّاد قد أدرك مدى ملاءمة ظهوره آنذاك، غير أنَّه سألني باسمًا:

ـ هل لي أن آخذ دجاجة؟

كنتُ أودّ لو أخذني أنا نفسي. حدَّق إليَّ الرجل، والمفاجأة جليَّة على وجهه. وإذا بي أشعر بوطأة الخجل بغتةً: ذلك أنَّ أحدًا لم يكُن قد نظر إليَّ يومًا. فكأنَّ جسدي في تلك اللَّحظة قد وُلِد فيَّ أخيرًا. أمَّا هو فتنهَّد قائلًا:

ـ هاتان العينان. آه، هاتان العينان!

فانخفض وجهي ورأيتُني مُعلَّقةً، طائرًا لا يطير ولا يصدر صوتًا. ثمَّ همس الزائر:

ـ هذه القامة تليق بكِ.

كان حديثه يُعرِّيني جسدًا وروحًا. وللهرب من ذاك العذاب، انسحبتُ إلى ظلٍّ على ضفَّة النهر. فجاء الرجل في إثري، يدفع درَّاجته البخاريَّة.

ـ أتودِّين المجيء معي إلى پالما؟

ـ إلى البلدة؟ لا أستطيع.

ـ سآخذكِ وأعود بكِ على الدرَّاجة البخاريَّة. سنذهب عَبْر طريق مختصرة بحذاء النهر، لن يرانا أحد.

ـ قلتُ لك إنَّني لا أستطيع.

ـ سنشاهد التلفزيون، ألا تريدين؟

فتأمَّلتُ المنظر من حولي على مهل. كم كان العالَم كبيرًا، كبيرًا إلى ما لا نهاية! كان الكَوْن شاسعًا والزائر ينتظر منِّي ردًّا. ما أكثر الخواطر

التي تبادرت إلى رأسي! فعلى سبيل المثال، خطر لي سؤال الصيَّاد أن يساعد أمِّي على حمل المياه ما دام يملك درَّاجة بخاريَّة، أن يساعد نساء كولوماني على جمع الحطب، والطين، ونقل محاصيل الحقول. والأهمّ ألَّا يطلب منِّي شيئًا مهما كان.

في صمت، رحتُ أجيل النَّظر على مهل في مياه ليدايا. ولمَّا أعياه الترقُّب، سألني أركانچو عن اسم النهر. كان قد جاء لصيد تمساح مفترس بثَّ الرعب في النُّفوس. ولكنَّه لن يفعل ما لم يعرف اسم النهر.

ندَّت عنِّي تنهيدة. لم يكُن الزائر يرغب في معرفة اسمي. بدا أنَّه لم يهتمَّ بشيء سوى المنظر. فأجبتُه، غير آبهة:

ـ لوندي ليدايا، إليك اسمه كاملًا. ولكنَّنا ببساطة ندعوه ليدايا.

ـ وماذا يعني؟

ـ ليدايا هو الاسم الذي ندعو به إحدى سلالات اليمام.

ـ اليمام؟

سألني أركانچو، ثمَّ ضحك من شيء بدا له طريفًا وإن لم أُدرك كنهه.

ـ صحيح، فمن الأنهار ما يحدونا إلى الطيران.

هكذا، تكلَّم الصيَّاد. ودَّع أحدنا الآخر ناظرَيْن إلى النهر، النهر نفسه الذي أتَّخذ منه الآن طريقًا للابتعاد عن كولوماني، والهرب من العائلة، والخروج من حياتي.

* * *

لمَّا شرعتُ في هذه الرحلة، والوقت لا يزال فجرًا، كانت غايتي تحذير الصيَّاد من الشَرَك الذي يُعَدُّ للإيقاع به. كانت خطَّتي بسيطة: فلسوف أقفز عن القارب عند الجسر، ثمَّ أهرع إلى الطريق حيث أبقى مترقِّبة وصول الزائرين. منذ ستة عشر عامًا مضت، خلَّصني أركانچو من تهديد الشرطيّ المُستغِلّ. أمَّا هذه المرَّة، فأنا الذي سأخلِّصه. وإذا بي أرى نفسي على قارعة الطريق، ألوِّح بذراعَيَّ كرايتَيْن لا تعرفان الكلل. لعلَّ الصيَّاد يعانقني ويرفعني إلى السَّماء في طيرانٍ خلَّاب! من يدري؟

وعلى الرَّغم من ذلك، أخذ شعور آخر يستحوذ عليَّ وأنا ماضية باتِّجاه النهر. فأنا لستُ ذاهبةً لملاقاة الصيَّاد، ولكنِّي بالأحرى هاربة منه. ولمَ أهرب من الكائن الوحيد الذي يُحتمَل أن يكون قد أحبَّني؟ لستُ أملك جوابًا. دَرَجَت أمِّي على القول بأنَّ المياه تنحت الصخور كما تُشكِّل المرأةُ روحَ الرجل. كان ذلك ممكنًا في حالتي. بَيْد أنَّه لم يكُن. فلم يكُن لي حبّ، ولا رجل، ولا روح. لأنِّي مع مضيِّ الوقت، فقدتُ الأمل. والمرء لا يفقد الأمل سوى لأنَّه فقد الحياة. لذلك أهرب خشية أن أُلْتَهَم، لا خشية أن يلتهمني الجزع الساكن في دخيلة نفسي، بل مخافة أن يلتهمني خواء اللَّاحُبّ، واشتياقي لأن أكون محبوبة.

***

أخيرًا، يبلغ القاربُ بِرْكةً صفت المياه في أعماقها. كانت تلك البِرْكة مكانًا مُقدَّسًا، لا يجرؤ على الذهاب إليه سوى السَّحَرة، حيث تتَّخذ المياه لنفسها عشًّا، بحسب ما يُقال في القرية. كان كبار الشيوخ يدعون ذلك المكان لايالي واقاتي، أو «بيضة الزمن». حريٌّ بسكينة الفردوس التي خيَّمت على المكان أن تبثَّ في نفسي الطمأنينة، ولكنْ

كلًّا. أدركُ أنَّ القارب راكد في هذا الموضع الذي لا أفارقه مهما سعيتُ جاهدة. فلا تيَّار، ولا دوَّامات، ومع ذلك، فالطوْف جامد في خضمٍّ ليدايا. لا بدَّ أنَّها القاعدة القديمة: لكلّ أرض صغيرة أذرع مُمتدَّة. ومهما رحلنا عنها، لا نفارقها أبدًا. «ملعونة هذه الأرض التي خلت من السماء حتى صار لزامًا علينا التنقيب عن السّحاب»، هكذا كان يغمغم الجّدُّ أدچيرو مُتذمِّرًا. وهكذا ألعن مسقط رأسي في هذه اللَّحظة.

تهزُّني رجفة، ويثب قلبي في صدري، عندما أحسُّ بحضور خفيّ على الضِّفَّة وأنا واقفة على القارب المتراقص. وعلى الرَّغم من أنّي امرأة، فقد أخذتُ غريزة الصيد المتوارثة في عائلتنا. أعرف ظلالًا تختلج وسط الظِّلال، أعرف روائح وإشارات لا يعرفها سواي. والآن، تأكَّد لي وجود حيوان على الضِّفَّة! حيوان يتسلَّل خلسة من بين النباتات على حافَّة النهر.

وبغتةً، كانت هناك. اللبؤة! جاءت إلى الضِّفَّة لتنهل من مياه النهر العذبة. تتأمَّلني بلا خوف ولا هياج، وكأنَّها تترقَّب وصولي منذ أمد بعيد.ترفع رأسها وتنشب نظرتها المتسائلة في أعماق ذاتي. مظهرها لا ينمُّ عن توتُّر. يمكن القول بأنَّها تتعرَّفني، وتُحيِّيني باحترام يليق بأخت. نُطيل ذلك التأمُّل المُتبادَل، وشيئًا فشيئًا، يستقرُّ في ذاتي إحساس دينيّ بالتناغم.

ولمَّا روت عطشها، تتمطَّى اللبؤة وكأنَّها تودّ خروج جسد آخر من جسدها. ثمَّ تأخذ في التراجع ببطء، وذَنَبها يتراقص كبندول يكسوه الزغب، وكلُّ خطوة بمثابة ربتة على سطح الأرض. أبتسم في خُيلاء يتعذَّر كبحها. الكلّ يعتقد أنَّ ذكور الأسُود التي تهدِّد القرية. ولكنْ كلًّا. فهي تلك اللَّبؤة، المرهفة المفعمة بالأنوثة كالراقصة، المهيبة

الراقية كالإلهة، إنَّها تلك اللَّبؤة التي بثَّت كلّ هذا الرعب في الأحياء كافَّة. رجال من ذوي النفوذ، مقاتلون مُدجَّجون بالأسلحة المُتطوِّرة. كلُّهم يجثون عبيد الخوف، مهزومين تحت وطأة العجز.

ومرَّة أخرى، تتأمَّلني اللَّبؤة على مهل، ثمَّ تحوم في دائرة قبل أن تختفي. وإذا بشيءٍ لن أقدر على وصفه ما حييت يسلبني الإدراك فجأة، فأنطلق صارخةً ملء صدري:

ـ أختي! أختي!

أتشبَّث بالمجذافَيْن، في استماتة، وأعجِّل بتوجيه القارب صوب الضِّفَّة:

ـ سيلينسيا! أومينيا! إغواليتا!

تتردَّد أسماء أخواتي الراحلات وسط ذلك المشهد المفعم بالضَّباب. أرتجف من قمَّة رأسي إلى أخمص قدميَّ، فلقد خرقتُ المبادئ المُقدَّسة التي تحظِّر النطق بأسماء الموتى. فقد يعاود الموتى الظهورَ في العالَم مُلبِّين النداء. ربَّما كانت تلك غايتي السرِّيَّة. نزوة يائسة تجعلني أعود إلى العصيان:

ـ هذي أنا يا أختي، هذي أنا، ماريامار!

عند ذاك، أدرك مدى عبثيَّة حالتي، أنا التي لم أرفع صوتي قطّ، أصرخ الآن وأنادي من يعجز عن السَّماع. أولئك الذين يتَّهمونني على حقّ، فأنا مجنونة، وفقدتُ زمام نفسي. أجهش بالبكاء، وكأنِّي أعوِّض بذلك ما لم أبكِه عند مولدي. كان أدچيرو مُحِقًّا: ليس الحزن ألَّا تبكي، وإنَّما الحزن ألَّا يكون لك من تبكيه.

ـ لا تتركنني، أرجوكنَّ، خذنني معكنَّ.

يتردَّد النداء عَبْر أرجاء الغابة، ولثانية يبدو لي أنَّ أصواتًا أخرى تنادي سيلينسيا. ولكنَّ النباتات تتكاثف، غزيرةً جامدةً. وفي الموضع الذي منه شربت اللَّبؤة لتوِّها، تظهر الآن بقعة حمراء تتمدَّد بسرعة على صفحة المياه. وفجأةً، يتضرَّج النهر كاملًا بالحُمرة، وإذا بي أُبحِر في خضمّ الدماء. الدماء نفسها التي تنساب هاربةً من بين فخذَيَّ كلَّما حلمتُ بالولادة، الدِّماء نفسها التي تسري مع التيَّار. كان جَدِّي أدچيرو كاپيتامورو على يقين من أنَّ ذلك النهر قد وُلِد من بين يدَيْه، كما وُلِدتُ أنا من عاطفته. والآن، أدرك أنَّ سجني لم يكُن هو الأرض بقدر ما كان جَدِّي أدچيرو. فهو الذي جمَّد القارب مكانه، وتركني عالقةً في بِرْكة نهر ليدايا المُقدَّسة. أتوسَّل:

ـ أرجوك يا جَدِّي. دعني أمضِ في اتِّجاه النهر.

أستلقي وقد انثنيتُ على نفسي في قلب الطوْف، مُفتِّشةً عن نعاسِ أولئك الذين لم يُولَدوا بعد. وإذا بقارب آخر يقطع الصَّمت، على غير المُتوقَّع، ويدنو منِّي كتمساح يتسلَّل خلسة، ما يبثُّ الذُّعر في نفسي. لا بدَّ أنَّه أدچيرو قد أتى لخلاصي. أنادي، وفي حلقي غصَّة:

ـ جَدِّي؟

الآن، يطفو القاربان جنبًا إلى جنب، وإذا بخيال يهبُّ واقفًا ليشدَّ وثاق عارضة المجذاف بحبل. يقف الدخيلُ مقابل الضوء، فلا أرى منه سوى خياله القاتم. لا أريد إهدار لحظة واحدة، فأشير إلى الضِّفَّة مُعلنةً:

ـ كانت هناك! اللَّبؤة كانت هناك. هيا بنا يا جَدِّي، فلا بدَّ أنَّها ما زالت قريبة.

ـ اجلسي، ماريامار.

يتملَّكني الفزع، فهو ليس أدچيرو. بل إنَّه ماليكيتو پروپريو، جلَّاد القرية المنعزل. ومن دون أن ينبس بكلمة واحدة يعود بي إلى كولوماني، وهو يجرُّني جرًّا. في منتصف الطريق، يضع المجذافَيْن ويحدِّق إلى وجهي، أمَّا القارب المهجور تحت رحمة التيَّار فيعاود الانسياب في اتِّجاه النهر.

ـ أنتِ مدينة لي بشيء، ماريامار. ألا تذكرين؟ وهذا مكان يصلح للوفاء بديْنك.

يشرع في التجرُّد من ثيابه، وهو يدنو منِّي، دبقًا، ولعابه يسيل. الغريب أنَّني لا أخشاه، بل إنَّني، ولدهشتي، أنقضُّ على ماليكيتو صارخةً، فأبصق عليه وأخدشه، وقد انتفش كلّ شعري. وبين خوف ودهشة، يتراجع الشرطيُّ، وفي رعب يتلمَّس الخدوش الغائرة التي تركتُها على ذراعَيْه.

ـ أيَّتها الساقطة، أتريدين قتلي!؟

يغطِّي كتفَيْه بالقميص لمداراة الجروح، ثمَّ يستأنف الرحلة إلى كولوماني على عجل. وفيما هو يجذِّف يردِّد همسًا:

ـ إنَّها مجنونة، الفتاة مجنونة تمامًا.

على الضِّفَّة، يقف المحافظُ فلوريندو ماكوالا وأبي چِنتيو إمپيپيه في ترقُّب. فأبادر قائلةً بصوت يشوبه التوتُّر:

ـ رأيتُها، رأيتُها يا أبي! إنَّها اللَّبؤة! كانت حقيقيَّة، لا صناعيَّة.

ـ كذب. لا نفع يُرجَى من اختلاق القصص، لأنّي سأنزل بكِ العقاب.

ـ رأيتُها يا أبي، في البِرْكة.. اللَّبؤة. وأنا على يقين مطلق ممَّا أقول.

فيكذِّبني ماليكيتو زاعمًا بأنَّ شيئًا لم يكُن هناك لكي أراه. وحتى لو أنَّني رأيت، فكيف لي التأكُّد من كونها أنثى؟ علمًا أنَّ ذكور الأسُود في هذه المنطقة ضئيلة الحجم، وتكاد تكون بغير لبدة!

يتقدَّم المحافظ في حيطة لئلَّا تبتلَّ قدماه، ويقف على مسافة حذرة مصدرًا أمره لأبي:

ـ لا أريد أيّ تواصل بين هذه الصبيَّة والبعثة.

ـ ستبقى في البيت، لك أن تطمئنّ أيُّها الرفيق المحافظ. سأشدُّ وثاقها في الباحة.

ـ أريدها بعيدًا عن الزائرين. وأنت، ماليكيتو، ماذا بك؟ أتنزف؟

ـ جرحتُ نفسي بالحبال يا سيِّدي. والآن، هل تأذن لي بأن أقول شيئًا يا سيِّدي؟

ـ قُلْ.

ـ يا رفيق إمپيپيه، كان رأس ابنتك فيما مضى عاطلًا عن العمل، أمَّا الآن فقد أصبح مخيفًا. كيف تغامر بزيارة ذلك المكان المُقدَّس وحيدة؟

ـ أنت على حقّ، ماليكيتو. ألا تعرف بما جرى لتاندي التي ذهبت إلى حيث لا يجدر بها؟

ينشغل الرجال الثلاثة بمناورات إرساء القارب. وفيما أنا جالسة على الضِّفَّة، أنتبه إلى وجه الشبه بين القارب والنعش: الجوف الضخم نفسه، والمسار المُؤدِّي إلى خارج الزمن نفسه. لم يأخذني النهر إلى قَدَري. وإنَّما حملني إلى تلك التي كانت بمنأى عنِّي، إلى اللَّبؤة، أختي المُرتقَبة.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

يوميَّات الصيَّاد
(2)

الرحلة

«أعلِّق شبكتي، شبكة صيد الفراشات، وأترقَّب أن تغويني الفراشة بروحاتها وغدواتها، بتردُّدها. كم أغدو سعيدًا لو تسنَّى لي الذوبان في الضياء والهواء، ولا غاية لي سوى التقرُّب منها والتمكُّن من السيطرة عليها! والآن، يسري عليَّ وعلى الطَّريدة قانونُ الصَّيْد القديم: فكلَّما حاولتُ الإذعان للحيوان، بكلّ كياني، تحوَّلتُ إلى فراشة، جسدًا وروحًا. وكلَّما أوشكتُ على تحقيق رغبة الصيَّاد، اقتربت الفراشة من هيئة الإرادة البشريَّة. وكأنَّ الإمساكَ بها هو الثمنُ الذي يتعيَّن عليَّ الوفاء به لأستردَّ وجودي البشريّ في خاتمة المطاف [...] وفي طريق العودة من الصَّيْد، يستحوذ روحُ الكائن المحكوم على الصيَّاد».

(ترجمة حرَّة لمُقتطَف من «صيد الفراشة»،
والتر بنيامين)

لم ترُق لي المطارات يومًا. فما أشدّ ازدحامها بالناس، وما أشدّ خوائها منهم. أؤثر عليها محطَّات القطار، حيث يجد المرء من الوقت فائضًا لإراقة الدموع والإشارة بالمناديل. تنطلق القطارات ببطء، لاهثة، نادمة على الرَّحيل. أمَّا الطائرة فتنطلق باستعجال مُجرَّد من البشريَّة. حتى أسطورة أمِّي تفقد مغزاها بينما أتأمَّل الطائرات المنطلقة في الهواء. إذ لم يعُد كلّ شيء على هذه الدرجة من البطء في قبَّة السَّماء اللَّامتناهية. ها أنا في مطار ماپوتو، موقنًا بأنِّي لستُ في أيِّ مكان. أحدهم يتحدَّث بالإنجليزيَّة، يردُّني إلى أرض الواقع.

ـ إنَّه الكاتب. سيكون رفيق سفرك.

الكاتب رجل أبيض، قصير القامة، ذو لحية ونظَّارة، مُثقَّف ذائع الصِّيت، يتوقَّف البعض لطلب توقيعه. يهبُّ واقفًا ليشدَّ على يدي:

ـ أنا غوستاڤو. غوستاڤو ريغالو.

يبدو أنَّ اسمه يروق له. يتوقَّع منِّي أن أتعرَّفه. ولكنِّي أتظاهر بأنِّي لا أعرفه على الإطلاق.

ـ سأعدُّ تقريرًا عن الصَّيْد، تعاقدتْ معي الشركة نفسها التي تعاقدتْ معك.

ـ أنا على يقين بأنّه سيروق لك، كما سيروق للأسُود العلم بأنَّ موتها يستحقُّ تقريرًا.

ـ هذه أوَّل مرَّة أشارك فيها بصيْد. يجدر بي القول إنَّني مناهض، ولكن لا تأخذ كلامي على محمل الإهانة.

ـ مناهض لأيِّ شيء؟

ـ مناهض للصَّيْد. ولاسيَّما صَيْد الأسُود.

ـ المشكلة يا عزيزي الكاتب أنَّك لم ترَ أسدًا قطّ.

ـ كيف لم أرَ أسدًا؟

ـ رأيتَ أسُودًا في رحلات سفاري فوتوغرافيَّة، ولكنَّك لا تدري ما الأسد. فالأسد لا يكشف ذاته بحقّ ما لم يكُن على أرض هو ملكها وسيِّدها. تعالَ معي سيرًا في أرجاء الدَّغل، تعرف ما الأسد.

***

أربع ساعات على متن الطائرة، إلى جوار الكاتب، كانت كافية لتقدير حجم الفجوة التي تفصل بيننا. باختصار، الكاتب يثير أعصابي، بمظهره المُثقَّف، ومُفكِّرته المُشهَرة، وعجزه عن الصَّمت. وبالحكم على الطريقة التي ينظر بها في وجهي، أدركتُ أنَّه شعور مُتبادَل. في الكاتب شيء يذكِّرني برونالدو، وبالطريقة التي كان يرمقني بها أخي. وكأنَّه يوجِّه إليَّ اتهامًا.

***

الريشة ثقيلة، والطائر أيضًا. وأخفُّ الطيور أقدرها على الطيران. هكذا يقول المثل الذي كانت تستشهد به دونا مارتينا، أمِّي الراحلة. تثقل على نفسي هذه الخِفَّة وتلك، أمَّا نعاسي فلا يتحوَّل إلى طيران

ليليّ قطّ، وإنّما هو حالة من اليقظة تجعلني أروح في النُّعاس وأعود منه كالمخمور، أغوص فيه وأطفو على صفحته كالغريق. الأمر الذي أورثتني إيَّاه تلك اللَّيلة التعِسة لمَّا أطلق رونالدو النار على أبي. الأرق يأتي بذكريات لم أودّ لها ذكرًا؛ والنوم يمحو ذكريات وددتُ لو احتفظت بها. إنَّما النُّعاس مرضي وجنوني.

***

خلالِ الرِّحلة يغلبني الخمول. أتصنَّع النوم حتى أتظاهر لاحقًا بأنّي قد أفقتُ على صوت ورقة تُمزَّق. يعتذر غوستافو بابتسامةٍ خجلى:

ـ أكتب رسالة لحبيبتي. على الطريقة القديمة. رسالة زائفة، لمُجرَّد صرف الذهن، لصرف الذهن عن الحنين إليها.

رسالة زائفة؟ هل من رسالة إلَّا وكانت زائفة؟ أذكر رسائل الحبّ التي كان أبي يمليها على أمّي. كان ذلك واحدًا من طقوسه، في الساعات الأخيرة من المساء، ونقيق الضفادع يتردَّد آتيًا من البحيرات المحيطة. كنَّا من السُّود والخلاسيِّين الذين انحدروا إلى منزلة السُّود. فلم يبقَ أمامنا سوى مشارف الحيّ لنسكن هناك، حيث تتراكم الأمطار والأمراض. كانت مارتينا باليرو، أمّي، تتزيَّن من أجل الإملاء، إذ كانت تلك هي اللَّحظة الوحيدة التي فيها تتلقَّى أمّي كلماتٍ عذبة من زوجها. وفي تلك اللَّحظة فحسب، كان يبدو لها وادعًا، شبه خاضع، وكأنَّه يطلب الصَّفح. في حين تبدو أمّي كما لو كانت لوحة من النَّسيج العتيق، وقد أكبَّت على الورق، جامدةً بلا حراك، وإلى جوارها رونالدو يخربش واجبات منزليَّة بلا نهاية. في تلك اللَّحظة، كان يبدو أكبر سنًّا من أمّي نفسها. حتى يومنا هذا، ما زال صوت أبي وهو يملي رسالته يتردَّد بداخلي:

ـ «عزيزي إنريكي، يا زوجي الحبيب، يا حبّ حياتي الوحيد»... مارتينا، أتكتبين؟

فيمليها رسائل طويلة، متماثلة دومًا، حيث تتشابك الكلمات وكأنَّه مخمور. كم كانت علاقة أبي بالكلمات مضنية! ورثتُ عنه تلك العلاقة الرديئة بالكتابة، على عكس رونالدو الذي كانت الحروف عنده لعبة يسيرة. ربَّما لهذا السَّبب أضيق بالسلاسة التي بها يخربش رفيق سفري السطور بغزارة. أو لعلَّ ما يكدِّرني ألَّا يكون لي من أكتب إليه رسالة حبّ، من يدري؟

* * *

أمَّا وقد فرغ الكاتب من رسالته الخياليَّة، فهو يطوي الورقة في تروٍّ لإيداعها في المظروف، ثمَّ يفتح سحَّاب الحقيبة ويضعه وسط عدَّة مظاريف أخرى. ربَّما كانت الرِّسالة زائفة، ولكنَّ التَّمثيل مُقنع. ومن جديد، تداهمني الذكرى. فبمنأى عنَّا، كان إنريكي باليرو يفي بما تبقَّى من طقوسه، واضعًا الرِّسالة في مظروف يرطِّب حوافه بشفتَيْه، ثمَّ يحتفظ به في حقيبة السفر كعادته التي لا تتبدَّل. كان يحمل تلك الرَّسائل في رحلات الصَّيْد الطويلة، مرفقةً بصورة ضبابيَّة لمارتينا.

ـ الصورة ضبابيَّة ليراها الآخرون، ثمَّ لا يحدِّقوا إليها أكثر ممَّا ينبغي.

غيور هو إنريكي العجوز! بل إنَّ غيرته أفضت إلى إراقة الدِّماء وإعلان الحِداد.

* * *

عَبْر نافذة الطيَّارة أرى خيوط الضياء الأخيرة تذوب وسط السحائب. أذكر الأقصوصة التي كانت ترويها أمِّي، حيث تَصِمُ نجمَ الشمس بالصَّفاقة،

وأذكر إحساسي باليقظة بمُجرَّد أن يبدأ الظلام في إرخاء سدوله، الأمر الذي ربَّما كان مردّه تلك الأسطورة. لستُ نهاريًّا، ولا ليليًّا. عند الغروب، كنتُ أعود إلى البيت، وقد أدركني التعب من ألعاب بلا نهاية في تلك الباحات التي كانت تتَّسع كالسافانا مترامية الأطراف، هناك حيث أتخيَّل نفسي صيَّادًا. أمَّا رونالدو، فكان يرمقني في غيرة من تلك الحميميَّة التي تجمعني بالعالَم. كان رونالدو مكانه البيت، أمَّا أنا فمكاني الطريق.

ـ ماما، أرجوكِ، لا تجعليني أغتسل الآن. اتركيني قذرًا كما أنا، اتركيني قليلًا فحسب.

كان العرق والغبار يطيلان نشوة الغابات التي أخترعها في أرجاء الباحة. ونظرًا لغياب أبي بصفة شبه دائمة، كان في وسع مارتينا باليرو النزول عند مطالبي لتمارس بذلك تدليل الأم بحرِّيَّة وسيادة. فكان ذلك الذي يتراءى لنا راحةً، يبدو في عينَيْها حنينًا أليمًا. وفي تلك الأوقات الطوال من العزلة، كانت أمِّي تداوم على الوفاء بطقوس كتابة الرَّسائل التي يُعهَد بها إليها: فتضع ثوبها الأكثر أناقة ـ ثوبها الذي لا تملك دونه في حقيقة الأمر ـ وتتظاهر بالإنصات إلى إنريكي باليرو الغائب وهو يمليها الرَّسائل. كانت تمثِّل دورها في الكتابة بمنتهى الإخلاص، حتى إنَّنا كنَّا نسمع صوت أبينا مُترنِّحًا، يتردَّد صداه في أروقة البيت.

***

ـ ما كلّ هذا الاستعجال؟

فلا يحير الكاتب جوابًا. منذ هبوط الطائرة في بِمبا، بدأنا رحلة طويلة عَبْر الطريق وصولًا إلى مقاطعة پالما. ما زالت في انتظارنا تسع ساعات من السفر عَبْر طرقات رمليَّة حالتها مُتردِّية للغاية.

في سيَّارة الدَّفع الرُّباعيّ، استقرَّ أربعة من الرُّكَّاب: في المُقدِّمة أنا والكاتب غوستاڤو، وفي المقعد الخلفيّ فلوريندو ماكوالا محافظ المقاطعة، ومعه زوجته البدينة دونا نافتاليندا، أو السيِّدة الأولى، كما يتوخَّى المحافظ أن يدعوها. كانت تستحقُّ اسمها، فهي تبلغ من الثقل حدًّا كان يجعل السيَّارة تميل على نحوٍ خطير إلى الجانب الذي جلست فيه.

غوستاڤو هو من يتولَّى قيادة السيَّارة. فلقد آثرتُ التفرُّغ لمراقبة الدَّغل الذي يحفُّ الطريق الضيِّقة. مضت ساعتان والمشهد لا يزيد على صفٍّ رتيب من أشجار عجاف زائغة مُجرَّدة من الأوراق.

أعاود السؤال:

ـ ما هذه السُّرعة؟

كان سؤالي بمثابة أمر. فلا بدَّ أن يعرف غوستاڤو من هو الآمر الناهي في هذه البعثة. أنا وهو على طرفيْ نقيض. فالكاتب أبيض قصير القامة. أمَّا أنا فخلاسيٌّ طويل القامة. الكاتب يتكلَّم بلا انقطاع ويحملق في عيون الآخرين، أما أنا فعيون البشر تسلبني روحي، وكلَّما زادت النظرة بشريَّةً تماديتُ في الحيوانيَّة.

ـ أما زال أمامنا الكثير؟

يسأل غوستاڤو بصوت شديد الاختناق، حتى إنَّ أحدًا لا يسمعه.

وأخيرًا، تنتهي الحال بالرجل إلى الإذعان، فتخفُّ سرعة السيَّارة أمام ابتسامة الازدراء البادية على وجهي. أختلس النَّظر إلى المقعد الخلفيّ:

ـ دونا نافتاليندا، أنائمة أنتِ؟

يردِّد صمتُها أصداء المشهد من حولنا، والعالَم يبدو كأنَّه بِكْرٌ لم يزَل، والسكون أشدّ مهابة داخل السيَّارة. أعرف ذلك الصَّمت. أعرف كيف يغوص في أنفسنا خلال أيَّام القيظ، فيثقل على رغبتنا في الحديث أوَّل الأمر، ثمَّ لا نذكر ما نرغب في قوله، ولا تلبث أن تغدو حتى الأنفاس تبديدًا للطاقة. تتذمَّر دونا نافتاليندا:

ـ أركانچو على حقّ، خفِّف السرعة. فالطريق رديئة للغاية، والمقعد الخلفيّ يكاد يقفز بنا.

يتلاءم صوت نافتاليندا مع مكانتها، فهو مفعم بتلك العذوبة الخليقة بمن يعرف ما يريد حقّ المعرفة إلى درجة أنَّه لا يحتاج حتى لأن يملي أوامره. أُجيل بصري في المنظر كما تلعق النارُ الأعشاب. فهناك حيث يرى الكاتب أشجارًا، أرى بعينيَّ مأوي من الظلال. وفي واحد من تلك الظلال تربض الأسُود ذائعة الصِّيت، آكلة البشر والأحلام.

***

أستغرقُ في تأمُّل الظلال، فلا أنتبه إلى المونولوج المفعم بالحيويَّة الذي انطلق من المقعد الخلفيّ، حيث شرع المحافظ يلقي خطابًا حول السيَّارات وأنواعها وطُرزها وبلدانها والأعوام التي فيها أُنْتِجَت سيَّاراته الأثيرة، ومدى حاجته لسيَّارة كتلك التي وضعتها في خدمتنا الشركة التي تعاقدت معنا. أسأل بلا داعٍ سوى تغيير مجرى الحديث:

ـ أما زال أمامنا الكثير؟

فيعيد المحافظ ما ردَّده قرابة الاثنتي عشرة مرَّة: لم يعُد أمامنا الكثير. بل إنَّنا «كدنا» نصل. فيسأل الكاتب:

ـ غريب، لا يُرَى أحد. ألا يعيش الناس هنا؟

فينتفخ فلوريندو ماكوالا، شاعرًا بالإهانة. أيقصد الزائر أنَّه لا يحكم سوى الأحجار والغبار؟

ـ سرعان ما تراهم. الناس. وما أكثرهم.

* * *

ـ أوقفِ السيَّارة، أوقفِ السيَّارة!

أُلقي أمري وقد فتحتُ الباب وأطللتُ بنصف جسدي خارج السيَّارة. وفي اللَّحظة التالية، أتَّجه إلى حافة الطريق للتحقُّق من بضع شجيرات، أقدِّم ساقًا وأؤخِّر ساقًا، والنسور تحلِّق في دوائر، عاليًا في السماء. ربَّما كانت هنالك جيفة مُتعفِّنة في تلك الأنحاء. إنذار كاذب. أشير إلى الآخرين ليترجَّلوا من السيَّارة.

ـ دعونا ننَل قسطًا من الراحة.

دونا نافتاليندا تترجَّل من السيَّارة. يئنُّ هيكل السيَّارة الچيپ في معاناة. بينما المحافظ يأمر مفزوعًا:

ـ ساعداها على النزول. لا تتركاها تسقط، كرمى للربّ، لا تتركاها تسقط.

ـ يا زوجي، لا تجرؤ على مسّ جسدي. لا تنسَ أنَّ ذلك محظور.

يمتدُّ أكثر من ذراع للمساهمة في عمليَّة إنزال السيِّدة الأولى. أتردَّد، وأنا لا أدري أين أضع يدي. أخشى أن تتيه يداي وسط اللَّحم والشحم. أمامي عجيزة هائلة تحجب ضوء النهار، وكأنَّها كسوف مفاجئ. يسرُّ إليَّ الكاتب قائلًا:

ـ لو كنت أعرف لأحضرتُ رافعة.

تنزل نافتاليندا على الأرض، وتسرُّ إلى زوجها بشيء. يغمغم المحافظ في حَرَج وهو مطبق الأسنان:

ـ زوجتي في حاجة للذهاب إلى الدَّغل.

أجيبه بجفاء:

ـ لها أن تذهب.

ـ ولكنَّها خائفة.

ـ اذهبْ برفقتها.

ـ ولكنَّها تؤثر أن تحرسها بنفسك.

ـ الأفضل أن يتولَّى الزوج ذلك الأمر، كما يتولَّى دونه من الأمور.

فتعلن نافتاليندا بخُيلاء أمبراطورة:

ـ ليس الأمر أنّي خائفة، ولكنّي سمعتُ أنَّ الأسُود لا تأكل سوى النساء. وبصفتي السيِّدة الأولى، فلستُ أدري ما إذا كنتُ على قائمة الضواري أنا الأخرى.

يعقِّب الكاتب بقوله:

ـ لكِ أن تتأكَّدي من كونك على القائمة.

ولكنّي أطمئنها مشيرًا إلى بضع صخور أمامنا.

ـ المكان آمن هناك. لكِ أن تذهبي، دونا نافتاليندا، وسنبقى هنا لنراقب المكان.

ولصرف أذهاننا عن ذلك الانتظار المخجل، يتظاهر الكاتب بأنَّ بندقيَّتي تستأثر باهتمامه، فيعترف قائلًا:

ـ كنتُ أحلم بحمل السلاح منذ زمن مضى، كنتُ أودُّ لو صرتُ مقاتلًا. في تلك الآونة، كنَّا نقول إنَّ الحرِّيَّة ستولد من فوَّهة البندقيَّة.

ـ وهل تمَّ لك ما أردت؟

ـ الحرِّيَّة؟

ـ كلَّا. أسألك عمَّا إذا تسنَّى لك أن تصبح مقاتلًا.

ـ تقريبًا.

ـ لا «تقريبًا» في الحديث عن السلاح والحرِّيَّة. هل رأيتَ أحدهم يُقتَل ذات مرَّة؟

ـ لم أرَ أحدهم يُقتَل قطّ. وماذا عنك؟ هل قتلتَ بشرًا أم أنَّك لم تقتل سوى الحيوانات؟

سرعان ما تداهمني ذكرى أبي مُضرَّجًا بدماء لم تكُن له فحسب، بل كانت دماء آل باليرو جميعًا. وإذا بنبرة كئيبة تلقي بظلِّها على صوتي. فأولئك الذين نقتلهم، مهما كانوا غرباء عنَّا، مهما ناصبونا العداء، تجمعهم بنا صلة قربى إلى الأبد. فلا يرحلون أبدًا، وإنَّما يبقون أكثر حضورًا من الأحياء.

***

ترجع دونا نافتاليندا إلى رفقتنا، تبتسم إذ تبدو لها مسلِّيةً تلك الطريقة التي ينفض بها الكاتب عن ثيابه الغبار وكأنَّه يجلد نفسه. ثمَّ تؤكِّد بقولها:

ـ أرأيتَ مزايا الأسد؟ فالأسد لا يتَّسخ أبدًا.

يهمهم غوستافو وهو ينفض الغبار عن ثيابه بهمَّة:

ـ لا تهفو نفسي لشيء سوى الاغتسال. فقد علق بي من الغبار أكثر ممَّا أرتديه من الثياب.

أنصحه ساخرًا:

ـ الأفضل أن تظلَّ هكذا. الأفضل أن تظلَّ هكذا ليبدأ جسدك في اعتياد الأرض. فيعتاد كونه من الأرض، من هذه الأرض.

ـ أنا من هذه الأرض.

ـ ذلك شيء لا يقدر على الجزم به سوى الأرض.

أولّيه ظهري وأسير مبتعدًا، فأسمع الكاتب يهمس في حَنَق:

ـ مكابر لعين!

* * *

نعود إلى السيَّارة، فيهرع المحافظ لتفقُّد الحمولة: دزينة من الجداء المُكدَّسة في حقيبة السيَّارة. تبدو الحيوانات هادئة، بما لها من سذاجة خليقة بالحيوانات المُجترَّة. تسأل دونا نافتالياندا:

ـ أليس الأفضل شدّ وثاقها؟

ظلَّت الجداء واقفة على أظلافها طوال الرحلة، تحافظ على اتِّزانها بحرفيَّة الراقصين. يعقِّب فلوريندو بزهو قائلًا إنَّ الجداء قد خُلِقَت للوقوف في السيَّارات، فهي تحافظ على اتِّزانها حتى في الهاوية، حيث لا يعود للأرض وجود. ثمَّ يفتح المحافظ ذراعَيْه بلفتة ودود:

ـ لا تنسَ يا رفيقي الصيَّاد، فواحد من هذه الحيوانات طُعْم لاصطياد الأسد. فاختَر منها ما شئت.

ـ عزيزي المحافظ، حديثك ينطوي على خطأ. أعني، أكثر من خطأ. أوَّلًا، لستُ رفيقك. والأهمّ من ذلك أنَّني لا أستعين بالطُعْم في الصَّيْد. فأنا صيَّاد حيوانات، ولستُ بصيَّاد أسماك.

ـ افعلْ كما شئت إذًا. فالحقيقة واحدة مهما يكُن. عليك بالتخلُّص من تلك الأسُود، سيَّان عندي إنَّ صِدْتها كالحيوانات أو كالأسماك. فالأمر على قائمة أهدافي السياسيَّة.

عند المحافظ أنَّ أَكَلة البشر شأن سياسيّ. يُذكِّرني مُشدِّدًا على حديثه:

ـ لقد أصدر إليَّ رؤسائي تعليمات في غاية الوضوح، فالشعب يصوِّت، أمَّا الحيوانات فلا. ولا بدَّ من التخلُّص من بواعث الشكوى على وجه السرعة.

ثمَّ يلقي أمره مُجدَّدًا باقتضاب:

ـ عليك بقتلها.

فأجيبه:

ـ لن أقتلها. لك أن تتأكَّد من ذلك.

ـ ماذا تقول؟

ـ أنا صيَّاد. ولذا فأنا لا أقتل، بل أصيد.

ـ أليس القتل والصَّيْد واحدًا؟

ـ عندك أنت، ربَّما. ولكنَّهما عندي مختلفان كلّ الاختلاف. ودعني أقُل شيئًا قبل الوصول إلى القرية. لم تكُن المحافظة هي التي تعاقدت معي. ولستُ مدينًا بالطاعة سوى لمن يؤدِّي راتبي.

* * *

نستأنف الرحلة، وإذا بسحابةٍ من الغبار تبدِّد سكينةَ السافانا في غمضة عين، تلك السكينة التي دامت دهرًا. يدرك المحافظ أنَّه مُضطَرٌّ للتراجع في مواجهتي. فحضور الكاتب ذائع الصِّيت فرصة مثاليَّة لتلميع صورته. فيؤكِّد المحافظ بفتور، وكأنَّه يفكِّر بصوت مسموع:

ـ قتلتَها أو صدتَها، فما يهمُّ أن يتمكَّن الناس من استئناف أنشطتهم اليوميَّة، لمحاربة الفقر المطلق.

ما عاد الرجل يتكلَّم، وإنَّما يخطب. ويعلن أنَّ الحملة التي يقودها حزبه سوف «تُخلِّص» الناس من الحكم بالتعاسة الصادر في حقِّهم. يستخدم تلك الكلمة المُفخَّمة: «الخلاص». في مرآة السيَّارة، أطالع الغبار يموج وغفوة عذبة تجتاحني. كم كنتُ أودُّ خلاص نفسي! كم كنتُ أودُّ الغوص بين ذراعَيْ مُخلِّصٍ كما يغوص الغريق. أقصد بين ذراعَيْ مُخلِّصةٍ، لوزيليا.

* * *

يعلن المحافظ قائلًا:

ـ يا رفيق أركانچو، سأرافقك حين تخرج للصَّيْد.

فأجيبه:

ـ في الصَّيْد لا أحد يرافق أحدًا. في الصَّيْد كائنان لا ثالث لهما: القاتل والقتيل.

ـ أحتاج لأن يراني شعبي، أن يراني عائدًا إلى القرية مُحمَّلًا بغنيمة الصَّيْد.

وأخيرًا، تتراءى لنا بيوت. فتقول نافتالياندا للكاتب:

ـ لن يلبث الناس أن يخرجوا إلى الطريق أفواجًا.

يصوِّب المحافظ قولها:

ـ هذه بيوت لا يسكنها الناس.

فيسأل غوستاڤو:

ـ لا يسكنها الناس؟ فمن يسكنها إذًا؟

فيجيب المحافظ:

ـ إنَّه الخوف الذي يسكن هنا الآن.

***

بعد مضيّ تسع ساعات على خروجنا من بِمبا، عاصمة المقاطعة، يصل موكبنا إلى القرية. كان المحافظ على حقّ. بل إنَّه لم يكُن الخوف وحسب هو الذي يسكن كولوماني. فالرُّعب مُرتسمٌ على وجوه الجمع الذي تحلَّق حولنا. يصدر ماكوالا أمره:

ـ لا توقف السيَّارة في وسط الطريق.

أبتسم. فالطريق من الضِّيق حتى إنَّها بلا وسط، ولا حوافّ، وكلُّ شيء حولنا قد اصطبغ بلون الغبار. أنا نفسي اكتسيتُ بالغبار حتى صار جسدي لا يُعرَف باطنه من ظاهره. أنفض نفسي، فتبدو يداي كأنَّهما سحابتان فارقتا جسدي، ونوبة من السُّعال تنفض صدري. وإذا بكيان ضبابيّ يبدأ في الاستحواذ عليّ.

***

يحيط بنا بحرٌ من الناس، لا ننتبه إليه. تهمس زوجة المحافظ في مسمعي شارحةً أنَّهم قد حشدوا الأهالي من قرى أخرى للترحيب بنا. وبما يخالف قواعد السلامة كافة، سيعود أولئك القرويّون العُزَّل إلى

بيوتهم ليلًا. بَيْد أنَّه شيء لا مفرّ منه فيما يبدو: لأنَّ قوَّة الزعيم تُقاس بحجم طقوس الاستقبال. فلم يُرِد فلوريندو ماكوالا إهدار الفرصة لإثارة إعجابنا. لا يترك الفرصة تضيع من بين يدَيْه لنسبة الفضل إلى نفسه، ويأخذ في تشجيع غوستافو ريغالو:

ـ أترى يا عزيزي الكاتب؟ الشعب يحبّنا. أنا وحزبي. اكتبْ ذلك، وصوِّر الأمر برمَّته.

وفي خضمّ الجموع يتعلَّق أحدهم بذراعي. فأجيبه بالشدّ على يده باستعجال. عند ذاك، أُدرك أنَّه رجل أعمى. تعترض لفتته المرتبكة سبيلي وتستوقفني. يرتدي سترة عسكريَّة مُموَّهة تتنافى وقدميْه الحافيتَيْن.

يصيح الأعمى وكأنَّنا قد حقَّقنا مشيئة القَدَر.

ـ ها قد وصلتم!

ثمَّ يردف مدليًا بحكمه:

ـ جئتم لتسيل دماؤكم في كولوماني.

وفي لحظة بعينها، أبدأ في الإشارة بيدي للجموع، مستسلمًا لنزوة غريبة. أذكر مناسبات أخرى أُسْتُقبِلتُ فيها كالمُخلِّص. ولكنَّ أولئك الناس يرمقونني بأطراف عيونهم. تتعلَّق يد الأعمى الدبقة بذراعي مرَّة أخرى:

ـ هل جئت ببندقية؟ لمَ فعلت وتلك الأسُود لا تُقتَل بالرَّصاص؟

يطاردني بهمَّة تحدوني إلى الشكّ في حقيقة إصابته بالعمى. الشكّ الذي تفاقم لمَّا تشبَّث بي في استماتة كالغريق، وسألني:

ـ أتراني؟

ـ فيمَ سؤالك؟

ـ لا أحد يرانا، نحن أهل كولوماني، وحدهم المواوي يعيروننا انتباههم، وحدهم السَحَرة.

يساعدني المحافظ على التحرُّر من قبضة الأعمى الوقح، فيدفعني إلى مُقدِّمة السيَّارة حيث تفتح كشّافات السيَّارة مساحة مضاءة، ويسرُّ إليَّ بقوله:

ـ لقد وصلنا ليلًا. ولذا فالبعض يخالنا ڤازيليو.

ـ من؟

ـ ڤازيليو، أهل اللَّيل. فلا أحد يزور القرى في مثل هذا التوقيت سوانا.

ثمَّ يأمر المحافظ بصوت مرتفع:

ـ دعونا نمرّ! فقد جئنا نخلِّصكم، جئنا بمن يقتل الأسُود.

يطأطئ الأعمى رأسه ثمَّ يعاود التعلُّق بذراعي، ليختم حديثه قائلًا:

ـ لا موت، ولا قتل. فقد جئتم تقضون نَحْبكم جميعًا في بيتنا.

أتلفَّتُ حولي. منذ ليلتَيْن قُتِلَت شابَّة هنا. وقبلها قُتل عشرون شابَّة أخرى، التهمتهنَّ الضواري. في موضع لا يبعد عنَّا، وسط الأرض المعشوشبة، ما زالت آثار دماء لا تُمحَى، تركتها جرائم لا تُوصَف. أفكِّر في ما يعتري أولئك الناس من ألم ومن خوف. أفكِّر في عجز تلك القرية، البعيدة كلّ البعد عن العالَم وعن الرَّب. كانت كولوماني أشدّ منّي يُتمًا.

أرخى اللَّيل سدوله، وخلا العالَم من الظلال.

ما روَتْه ماريامار
(3)

ذكرى لا تُقرأ

«يصحو الغزال كلّ نهار وهو يعلم أنَّه مُضطرٌّ للعدو أسرع من الأسد وإلَّا قُتِل. ويصحو الأسد كلّ نهار وهو يعلم أنَّه مُضطرٌّ للعدو أسرع من الغزال وإلَّا مات جوعًا. أسدًا كنتَ أو غزالًا، لا يهمُّ. فخير لك البدء في العدْو حالما تشرق الشمس».

(قول مأثور من إفريقيا)

في اللَّيلة الفائتة، حين وصل الغرباء إلى كولوماني، لم أختلس النَّظر إلى حفل الاستقبال الذي أُقيم لهم أمام مقرّ المحافظة. كان في وسعي الهرب من سجني للحظات. ولكنْ حتى الهرب لم أقدم عليه. على مدى أعوام، كان الحلم بلقاء أركانچو باليرو مرَّة أخرى هو الشيء الذي أبقاني على قيد الحياة. أمَّا وقد صار الآن هناك، على بعد خطوات، أبقى أنا بعيدة نائية، أختلس النظر إلى الحشد المُتحلِّق حول الموكب. يبدون كالنُّسور. ويتغذّون على البقايا. على بقايانا نحن. وذلك ما قلتُ لأمِّي: «يبدون كالنُّسور». والطيور الجارحة لا تعمى ولا حتى بعد الموت، كما تقول الحكمة المحلِّيَّة. يردُّني صوتُ اَنيفا أسّولوا المُستبِدّ إلى الواقع:

ـ ماريامار، لا تنامي تحت ظلال شجرات الغار! اذهبي واذبحي دجاجة.

وليمة عامرة تُعَدُّ على شرف الزائرين. أمَّا نحن، النساء، فلسوف نبقى وسط الغَبَش. نغسل، نكنس، نطهو، ولكن واحدةً منَّا لن تجلس إلى المائدة. أعرف وأمِّي ما يجب علينا فعله، من دون أن نتبادل كلمة واحدة تقريبًا. يقع على عاتقي الإمساك بدجاجة من قنِّ الدواجن الخاصّ بنا، ثمَّ ذبحها ونتف ريشها. وبينما ألاحق الدجاجة، في مطاردات صاخبة،

أسمع خطى آتية من خلفي تنضمُّ إلى عمليَّة الصَّيْد. أُمسك عن العدْو، بأنفاس مكتومة، وأُجيل عينَيّ في بحثٍ مُتلهِّف. لا أرى أحدًا. تندُّ عن صدري زفرة أسى:

ـ أهذه أنتِ يا أختي؟

وأخيرًا، أقرُّ لنفسي بأنّي وحيدة، جالسة على الدَّرَج المُعلَّق على قنِّ الدواجن حيث تبيت الدجاجات ليلتها في مأمن من الضواري الصَّغيرة.

في مكان قريب كلّ القرب، نزل أركانچو باليرو. وأنا في عزلة الباحة أنتف ريشات الدجاجة التي أُحكم ركبتَيّ حولها. تحلّق الريشات، تهدهدها النسائم الشاردة. وإذا بي أرى سيلينسيا فجأةً، مقابل الضوء، تلتقط الريشات المُتأرجِحة بيدَيْها. تضمُّ يدَيْها جنبًا إلى جنب لئلّا ينسلَّ من بين أصابعها شيء، ثمَّ تقدِّم لي كرة الزغب الناعمة. ألتقط الهديَّة وأُنصت إلى الصوت المألوف:

ـ انظري يا أختي، فهوذا قلبي. لم تأخذه الأسُود. تعرفين لمن يجدر بكِ تسليمه.

أنتبه إلى الدماء المنسابة على ذراعَيّ، وساقَيّ، وعباءة الكاپولانا[1]. لعلّه دم الدجاجة، هكذا يتراءى لي، ولكنَّ دوارًا يأخذني ويجعل على بصري غشاوة. وفي صدري يتفجَّر غضب عصيٌّ على السيطرة، بركان ثائر. والصوت الأموميّ خارج من البيت:

ـ ماريامار، ألم تذبحي الدجاجة بعد؟ أو أنَّكِ تهدرين الوقت كعهدكِ على الدوام؟

(1) «الكاپولانا»: عباءة تقليديَّة من القطن أو الحرير مُزيَّنة بنقوش زاهية الألوان وتلفُّها نساء موزمبيق حول أجسادهن.

أريد أن أجيبها، فلا تطاوعني الكلمات. وإذا بي أفقد القدرة على الكلام بغتةً، إن هي إلَّا خشخشة مبحوحة تنفض صدري. أهبُّ مذعورة، أتحسَّس بيدَيَّ حلقي، فمي، وجهي. أصرخ طلبًا للمساعدة، فلا يخرج منِّي إلَّا هدير أجوف. وعند ذاك، يندلع الإحساس المُرتقَب، فأحسُّ بشيء خشن كالرِّمال يحتكُّ بسقف حلقي، وكأنَّ لسانَ قطٍّ قد دُسَّ فيه. تظهر آنيفا أسوِّلوا عند الباب، ويداها على خصرها، تطالبني بالخدمات التي عُهِد إليَّ بها:

ـ ماريامار، هل عادت إليكِ النوبة مرَّة أخرى؟

تُفزِع أمِّي سيلينسيا بظهورها. أسمع خطاها، حثيثة، وهي تسير مبتعدة، بينما تؤكِّد لي قوقأة الطيور المهتاجة أنَّها أحسَّت بحضور سيلينسيا هي الأخرى. لم تدرك الدجاجات أنَّ واحدة منها تستلقي ذبيحة على ساقَيّ، ولكنَّها تعرَّفت الحركةَ المُتملِّصة للزائرة الراحلة. لو كان حقًّا أنَّ بي مسًّا من الجنون، فالطيور تشاطرني الجنون إذًا.

تدنو منِّي أمِّي، وقد استأثرت حالي باهتمامها. ترفع يدَيْها إلى وجهها على مهل وكأنَّها تبحث عن النجدة. وعلى بعد خطوتَيْن منِّي، تقف جامدةً في دهشة:

ـ ماذا فعلتِ بالدجاجة، يا بنيَّتي؟ ألم تذبحيها بالسكين!؟

تولِّيني آنيفا ظهرها، بشعر أشعث، وتلوذ بالبيت. أنظر إلى الدجاجة المُمزَّقة وقد تناثرت أشلاؤها على الأرض. وعند ذاك، أرى نسرًا يحطّ عند قدمَيَّ.

***

في تلك اللَّحظة، تتبادر إلى ذاكرتي واقعة بعينها: منذ رحل الآباء الكهنة عن كولوماني والحرب في أوجها، لم يعتنِ أحد بمزرعة الدواجن المملوكة للإرساليَّة؛ ولبثت الدجاجات مهجورةً في قنانها التي أخذت تتداعى قطعة تلو الأخرى. وشيئًا فشيئًا، أصبحت طيورًا برِّيَّة، تنقِّب في الأراضي الخلاء بهمَّة ولا ترجع حتى يرخي اللَّيل سدوله. أخذت قنان الدواجن تتهدَّم والألواح العتيقة تتلاشى، وأتى عليها النمل الأبيض. كان ذاك بمثابة تحذير، إذ راحت التُّخوم الفاصلة بين النظام والفوضى تتلاشى. فجاءت السافانا البدائيَّة تستردُّ ما نُهِب منها.

وذلك ما جرى: فقد التهمت النسورُ الدجاجات، واحدة تلو الأخرى. واحتلَّت الطيور الجارحة المساحة التي كانت محجوزة للطيور الداجنة فيما سبق، وألِفت المكان حتى إنَّها ما عادت تخشى حضورنا. بل وأصبحت نصفُ دزينة من الطيور الجارحة تلبِّي نداء جَدِّي أدچيرو الذي كان يكافئها بنتفٍ من الدِّهن.

ذات مرَّة، أُعِدَّ في بيتنا عشاء فاخر. فسألت سيلينسيا:

ـ اليوم يُقدَّم الدجاج على العشاء، فبمَ نحتفل؟

ساورتنا الشكوك حيال ضخامة الطَّيْر المشويّ. فلم يتحلَّ غيري بالشَّجاعة للتَّساؤل في ارتياب:

ـ هل ما نأكله نسر؟

فردَّ أبي قائلًا:

ـ وماذا لو كان ما نأكله نسرًا؟ ألم تسمعي يومًا بأنَّنا، نحن الصيَّادين، نأكل عيون النسور لنأخذ عنها بصرها الثاقب؟

لم أدرِ يومًا ما الذي آكله. وعلى الرَّغم من ذلك، فالحقّ أنَّني منذ العشاء الذي تناولناه يومذاك وأنا لم أنعم بالنوم الهادئ مرَّة أخرى قطّ، إذ كانت الكوابيس تنتشلني من الفراش لأصحو ونهم غير معهود يستحوذ عليَّ، وشراهة تسلبني كياني. لم تكُن الطريقة التي يتملَّكني بها ذلك الجوع شيئًا خليقًا بالبشر. فما كنتُ أحسُّ بالجوع وحسب، بل كنتُ أنا نفسي جوعًا من قمَّة رأسي إلى أخمص قدميَّ، والرِّيق اللَّزج ينساب على شدقي. أمَّا جَدِّي الذي طالما أفاق من نومه مُبكِّرًا، فكان يعجب لحالي قائلًا:

ـ طلع الفجر وما زلتِ تأكلين بقايا العشاء؟ أيَّ جوع ذلك؟

فمضوا بي إلى پالما، لإجراء الفحوص بالمستشفى، حيث أشارت المُمرِّضة إلى أنَّه «ربَّما كان داء السكَّري». فكان ذلك الاشتباه بلا أساس، إذ لم تكشف الفحوص عن الإصابة بأيِّ داء، فعدتُ إلى كولوماني وأنا لم أُشفَ من النوبات الغامضة.

***

ظلَّ جَدِّي يلقاني في الشرفة فجرًا وأنا ألوك البقايا، وأنقِّب عن عظام الدجاج وسط طحين المنيهوت[1]. كان أدچيرو يغتنم العتمة ليزاول نشاطه الآخر بوصفه نحَّات أقنعة. وإعمالًا بالقواعد المتوارثة، كانت تلك المهمَّة سرِّيَّة، فلا يمكن السَّماح بأن يرتاب أحد في كونه صانع تلك الأقنعة. كانت المنحوتات تصوِّر النساء دومًا: فالرَّبَّات اللَّائي كُنَّاهنَّ فيما مضى لا يردن الذهاب أدراج النسيان. كانت أيدي الرجال تقول ما لا تجرؤ شفاههم على التفوُّه به. سألتُه:

(1) المنيهوت: جذور تشبه البطاطا الحلوة ويكثر استخدامها في عدد من بلدان إفريقيا وأميركا الجنوبيَّة لصنع الطحين.

ـ هل لي بنحتِ قناع؟

فأجابني بأنَّ القناع لا يقتصر على ذلك الشيء الذي يغطّي وجوه الراقصين. فالراقص، ومُصمِّم الرقص، وحتى الموسيقى التي تموج في جسده: الأمر برمَّته قناع.

ـ إذًا، فهل لي بوضعه حين تفرغ منه؟

ـ ما هذا بقناع. إنَّه مينتيلا، أي تميمة، سمِّه كما شئت.

ـ جَدِّي، كرمى للرَّب! أتصدِّق بهذا حقًّا؟

ـ لا يهمُّ رأيي أنا، بل إنَّ ما يهمُّ رأي الموتى. ومن دون هذا ـ أردف وهو يُدير الدولاب الخشبيّ بين يديه ـ من دون هذا يبقى الأسلاف بعيدًا عن كولوماني، وتبقين أنتِ بعيدًا عن العالَم!

ـ جَدِّي، أستميحك عذرًا، ولكنْ يجدر بك أن تكون بعيدًا كل البعد عن تلك المعتقدات، وأنت من المُتشبِّهين بالميلاد...

فيفترّ ثغره عن ابتسامة مبهمة مفعمة بالطِّيبة كانت هي إجابته؛ ثمَّ يوبِّخني: لا يجب عليَّ التخلُّص من بقايا الطعام في الباحة.

ـ وإلَّا اجتذبت الحيوانات...

ربَّما كانت تلك غايتي: استدعاء الحيوانات إلى البيت، ونشر فوضى الغابة، وتحويل قنان الدجاج إلى أعشاش نسور!

***

وبمضيّ الوقت تفاقمت النوبات اللَّيليَّة، إذ كنتُ أفيق لأجد الملاءات مُمزَّقة، والحوائج متناثرة على أرض الحجرة، فأسائل جَدِّي بعينَيْن مغرورقتَيْن بالدموع:

ـ ما ذاك بجوع، بل إنَّني مريضة. ما خطبي يا جَدِّي؟

ذات مرَّة، أجابني أدچيرو بأنَّ السَّبب في ذلك المرض سرٌّ، سرٌّ دفين ضارب في العمق، حتى إنَّه هو نفسه قد نسي أمره في خاتمة المطاف.

ـ لم أفهم يا جَدِّي. إنَّك تبثُّ في نفسي الخوف.

كنتُ مريضة، أجل. ولكنَّ مرضي هو الشيء الوحيد الذي وفَّر لي الحماية من ماضيَّ.

ـ ليست المشكلة فيكِ أنتِ يا حفيدتي، وإنَّما المشكلة في هذا البيت، في كولوماني. لم تعُد هذه القرية مكانًا، بل مرضًا.

تمكَّن المرضُ منِّي ومن كولوماني. لمَّا فُتِنتُ بالصيَّاد، منذ ستة عشر عامًا، لم يكُن شغفي به أكثر من مُجرَّد رجاء. كنتُ أطلب النجدة ليس إلَّا، راجيةً في صمت أن يخلِّصني من ذلك المرض، كما سبق أن خلَّصتني الكتابة من الجنون. فالكتبُ تهمس إليَّ بأصوات كالظلِّ في قلب الصحراء.

***

بعد رحيل أركانچو، منذ أعوام طوال مضت، خطر ببالي أن أكتب إليه. كنت سأكتب إليه رسائل بلا نهاية، إذعانًا لتلك الرَّغبة الدفينة، ولكنِّي لم أفعل. لا أحد يفوقني حبًّا للكلمات، ولكنِّي في الوقت نفسه أخاف الكتابة، خشية أن أغدو شخصًا آخر، فلا تسعني نفسي مرَّة أخرى. ومثلما كان جَدِّي ينحت الخشب في الخفاء، كنتُ أؤدِّي مهمَّة سرِّيَّة. وكانت الكلمة المرسومة على الورق تميمتي، قناعي، وَصْفتي.

***

اليوم، أعرف مدى صحَّة ما ذهبتُ إليه لمَّا احتفظتُ لنفسي بتلك الرَّسائل. في واقع الأمر، لو تلقَّى أركانچو باليرو رسائل كتبتُها له بنفسي لارتاب في الأمر. كثيرون هم أولئك الذين يعجبون لمعرفتي بالكتابة في كولوماني. فمن دواعي العجب أن تكون امرأة هي من تتقن الكتابة تحديدًا على أرض أغلبيّتها من الأمِّيِّين. يظنُّوني قد تعلَّمتُ في الإرساليَّة الكاثوليكيَّة، مع الكهنة البرتغاليِّين، ولكنَّ مدرستي وُلِدَت قبل ذاك في واقع الأمر، إذ تعلَّمتُ القراءة مع الحيوانات. فكانت أولى الحكايات التي سمعتُها في حياتي عن الحيوانات البرِّيَّة. علَّمتني الأقاصيص تمييز الصواب من الخطأ، والخير من الشرّ، مدى الحياة. خلاصة القول إنَّ الحيوانات هي التي بدأت تجعلني إنسانة.

جاءت تلك التلمذة بلا تخطيط، وإن كانت لها غاية. كان أبي وجَدِّي يأتيان من الصَّيْد باللَّحم الذي نأكله والجلود التي نبيعها. ولكنَّ جَدِّي كان يأتي بشيء آخر، فيجيء من الدَّغل مُحمَّلًا بالغنائم الصغيرة التي كان يهديني إيَّاها: مخالب، وأظلاف، وريشات. فيترك الغنائم على طاولة عند مدخل البيت. وتحت كلّ واحدة منها يكتب حرفًا على ورقة قديمة. فيرفق حرف «النون» بريشة النسر، وحرف «الجيم» بظلف الجدي، وحرف «الميم» بـ«الموندا»، وهو الاسم الذي يُطلَق على السهم بلغة أرضنا. تلك هي الحروف الأبجديَّة التي كانت تمرُّ أمام عينَيّ. وإذا كل حرف لون جديد أرى به العالَم.

ذات مرَّة، استقرَّ على الورقة مخلب أسد. في حين راح جَدِّي يطلق من حنجرته «ألفا» بصوت جهير، وقد أقعى إلى جواري. ثمَّ أخذت يدُه الهائلة ترشد يدي وأنا أرسم الحرف على الورقة. وأخيرًا، ابتسمتُ

منتصرة. كانت أوَّل مرَّة أواجه فيها أسدًا. وهناك استقرّ الوحش، مخطوطًا على الورقة، رابضًا عند قدمَيّ. مكتبة ياسمين

ـ حذارِ يا حفيدتي. فالكتابة خُيَلاء محفوفة بالأخطار. تبثُّ الخوف في نفوس الآخرين....

في عالَمٍ مِنْ الرجال الصيَّادين، كانت الكلمة سلاحي الأوَّل.

* * *

من أعالي شجرة الجوَّافة القائمة في الباحة، أختلس النظر إلى ساحة القرية. لم تسبق لي يومًا رؤية الشيتالا، أي سقيفة «الرجال الكبار»، عامرةً بالناس إلى هذا الحدّ. ها قد تناولوا غداءهم، وشرابهم، وتعالت أصواتهم. لا أتمكَّن من رؤية المدعوِّين الذين كانوا على الجانب الآخر من السقيفة. أبدِّل من وضعي على الجذع اللَّدن، وأتنشَّق عطر الجوَّافة الناضجة لأهوِّن على نفسي الانتظار. ألمح أركانچو يخرج من الساحة ليتنسَّم الهواء. لم يتغيَّر كثيرًا. زاد وزنه، ولكنَّه ما زال محافظًا على مظهره الخليق بأمير. يثب قلبي في صدري. وعلى قمَّة الشجرة، يتبادر إليَّ انطباع بأنّي على قمَّة العالَم والزمان.

وفجأةً، أرى نافتاليندا وهي تجتاز الساحة بخطى ثابتة. ماذا هي فاعلة في ذلك المكان المحظور على النساء؟ أعرفها منذ الطفولة، وسبق أن شاطرتُها عزلة كنيسة الإرساليَّة. البعض يقول إنَّها قد جُنَّت من فرط البدانة. أما أنا فمؤمنة بجنونها. وحده الجنون الصغير قادر على تخليصنا من الجنون الكبير.

* * *

يردّني مشهد الساحة الحافلة بالناس إلى زمن ماضٍ، فأذكر تلك المرَّات حين كان جَدِّي أدچيرو يحضر لاصطحابي في نزهة بالقرية. كان يمسك يدي ويمضي بي إلى الشيتالا، حيث مُجرَّد وجودي هرطقة لا يسمح بها سواه. كان الرجال يسألون جَدِّي أدچيرو عن مغامراته في الصَّيْد. فيتردَّد في أوَّل الأمر. وفي بعض الأحيان يدفعني إلى منتصف المكان مُعلنًا:

ـ ماريامار، أنت التي ستروين القصص.

ـ ولكنِّي صبيَّة، لم أصِد قطّ، ولن أصيد أبدًا...

فيحتجُّ بقوله:

ـ كلُّنا صيَّاد، وكلُّنا فريسة.

كان يكسب الوقت ليغدو هو مركز العالَم؛ ثمَّ ينهض بعد ذاك مفعمًا بالعظمة، لا عُمْر له، والكلمة المختالة تحوم في أرجاء المكان. وفي لحظة بعينها، كان أدچيرو يسكت عن الكلام، فيتنهَّد، باحثًا بعينَيْه عن هدف، موحيًا بأنَّ روايته سوف تطول. كان يجلس وعَرَقه يتصبَّب غزيرًا. بَيْد أنَّه ما كان ينشد موضعًا يجلس فيه، بل عرشًا يتربَّع عليه. لأنَّه اعتبارًا من تلك اللَّحظة فصاعدًا، سيفرض ملكه. في حقيقة الأمر، ما كان جَدِّي يستحضر الصَّيْد إلى الذاكرة، بل كان يعود إلى الصَّيْد. في ذلك المكان، وفي تلك اللَّحظة بعينها، كان جَدِّي ينصب الشَرَك للطريدة، تحت أنظار الحضور المشدوهة. وصمتٌ مفعم بالترقُّب يخيِّم على المحفل خشية أن تنفر من الصيَّاد الحيواناتُ التي يطاردها، لا ذكرياته.

ـ أدچيرو، احكِ لنا قصَّة أخرى. احكِ لنا عن تلك المرَّة...

فكان جَدِّي يرفع ذراعه مستنكرًا، ويأبى تلبية الدعوة، قائلًا: لا «كان يا ما كان» في حكايات الصيَّاد. لأنَّ كلّ شيء يُولَد هناك، يُولَد مع صوته في آن واحد. ولأنَّ سرد القصص يعني إلقاء الظلال في قلب الوهج، فالصَّمتُ يأتي على كلِّ ما تكشف عنه الكلمةُ في اللَّحظة نفسها. وحده المُصلِّي الذي يسلِّم روحه كليًا يعرف ما احتراق الكلمات وتساقطها في الهاوية!

* * *

ذات ليلة، طالت الحكاية، ودارت كؤوس الشَّراب مرَّة تلو أخرى، وإذا بچِنتيو إمپيپيه يقاطعه بصوت متلعثم:

ـ آهٍ منك، أدچيرو! إنَّك لكاذب بارع!

فكانت رمية حجر لم تسقط في بِرْكة. وبدت نظرة أدچيرو الذاهلة كجرح لم تتباعد حوافّه بعد. فقال شاهرًا إصبعه في استياء:

ـ چِنتيو، لقد كسرتَ الشوكة في فمك.

انسحب جَدِّي من الشيتالا مُحطَّمًا، وغاب تحت جنح اللَّيل. لم يرافقه أحد سواي. جلستُ في العتمة أترقَّب أن يتكلَّم. وأخيرًا، بعد أن طال صمته المفعم بالتنهيدات، تساءل في حسرة:

ـ لمَ؟ لمَ فعل بي چِنتيو ما فعل؟

ـ أبي مخمور.

ـ جاحد. كلُّهم جاحدون. إنَّ ما يسمُّونه أكاذيب أسمِّيه أنا هدايا.

تاهت نظراته في اللَّانهاية. ومرَّت بذهن أدچيرو ألف خاطرة وألف ذكرى. وشيئًا فشيئًا، تغلَّب على غضبه.

ـ ماريامار، تدرين؟ أحزن ما في الأمر أنَّ جِنتيو قد يكون مخمورًا، ولكنَّه على حقّ. فجميع الأمجاد التي تزخر بها حكاياتي، الأمر برمَّته دخان بلا نار.

وأقرّ بأنَّه يجب على المرء الارتياب في الصيَّاد. ليس لأنَّ الصيَّاد كاذب، ولكن لأنَّ حقيقة الصَّيْد هي ذاتها حقيقة الرقص: فكلُّها أجساد هاربة من واقعها، طبقًا لفهم أدچيرو.

ثمَّ قال شارحًا إنَّ مسيرة الصيَّاد يصنعها الإخفاق والنسيان في حقيقة الأمر. فكلُّ صيَّاد يُخفق مهما أتقن التصويب. ويحقِّق نصرًا واحدًا، عن كلّ ألف هزيمة. ولذا، فالصيَّاد مبتكر بطولات، لأنَّه لا يصدِّق نفسه، ويخشى مواطن ضعفه بأكثر ممَّا يخشى الطريدة الأشدّ ضراوة.

ـ ليتني كنتُ كاذبًا. بل إنَّني لستُ شيئًا في حقيقة الأمر. ولم آتِ بشيء قطّ.

ـ لا تقل ذلك يا جَدِّي. فما أكثر ما خرجتَ للصَّيْد!

ـ تودِّين أن تعرفي يا حفيدتي؟ في الصَّيْد، تعمل الفريسة بأكثر ممَّا يعمل المُفترِس.

لم تكُن شكوى. فالشيء الذي كانت تهفو إليه نفسه، في حقيقة الأمر، أن يُعفَى من كلّ التزام. وقد دَرَج على القول بأنَّ السَّعادة ألَّا يفعل المرء شيئًا. السَّعادة أن يسمح المرء للرَّب بأن يكون. أطرق جَدِّي، ويداه تختلجان على ركبتَيْه في توتُّر. وإذا به يهبُّ فجأةً، عاقد العزم، كأنَّ روحًا جديدًا قد زاره. وبخطى ثابتة، اتَّجه صوب السقيفة مُجدَّدًا، واتَّخذ لنفسه مقعدًا، ونفخ صدره في مواجهة الجمع:

ـ تبغون قصصًا؟ سأروي لكم قصَّة إذًا. قصَّتكم أنتم.

فغمغم البعض:

ـ ها هو سوف يبدأ.

استطرد أدچيرو:

ـ أنسيتم أنَّكم كنتم عبيدًا؟

فعقَّب البعض الآخر قائلًا:

ـ ما أتعسنا!

ـ أوَ نسيتم أنَّهم قد أخذونا إلى ما وراء البحر، إلى حيث لم يعُد منَّا أحد؟ أوَ نسيتم أبي، مواريمي كاپيتامورو؟ ذلك الذي أخذوه إلى ساو توميه[1]، أفلا تذكرون؟

فقال الرجال في صوت واحد:

ـ إنَّنا ذاهبون.

ثمَّ أردفوا مُوجِّهين حديثهم إليَّ:

ـ تعالي معنا، فالآن تنهمر الكلمات كالأمطار.

انصرفوا واحدًا تلو الآخر، حتى لم يبقَ تحت السقيفة غيري أنا، أحدِّق إلى الكرسيّ المتأرجح ويدي على قلبي، هناك حيث جلس جَدِّي مسترسلًا في خطابه الناريّ. ومع ذلك، فقد جرأت على مناداته للعودة إلى العالَم، بصوت شبه ضائع. ولكنِّي كنتُ في عينَيْه خفيَّةً آنذاك. فلقد استحوذ نبيٌّ مُتَّقد الحماسة على قريبي الطَّاعن في العمر.

(1) ساو توميه: مُستعمرة أسَّسها البرتغاليُّون في إفريقيا بحثًا عن أراضٍ تصلح لزراعة قصب السكَّر. ولم تستقلّ ساو توميه عن حكم البرتغال حتى عام 1975.

ـ لا يتركُ العبيدُ ذكرى وراءهم، أتدرون السَّبب؟ لأنَّهم بلا مقابر. ذات يوم، لن يعود لأحد مقابر في كولوماني، ولن تبقى ذكرى واحدة تثبِّت أنَّها كانت مأهولةً بالناس...

ـ جَدِّي، هيا بنا إلى البيت.

ـ لم تعُد بهم حاجة ولا حتى لوضعنا على متن السفن. فها هي ذي ساو توميه هنا، في كولوماني. هنا، حيث يسكن الجميع جنبًا إلى جنب، العبيد وسادة العبيد، الفقراء وسادة الفقر.

***

في تلك اللَّحظة، خلت السقيفة إلَّا منَّا، فرحتُ أتأمَّل جَدِّي أدچيرو كما لو كان طفلًا، أشدّ عزلة وهجرانًا منِّي أنا. دنوتُ من المقعد الذي اتَّخذ منه لنفسه منصَّةً، ورفعتُ ذراعي عاليًا لأمسَّ يده.

ـ جَدِّي، هيَّا بنا. هيَّا بنا إلى البيت.

فمضينا عَبْر الطريق الضيِّقة بحذاء النهر، وقد تشابكت ذراعانا.

يوميَّات الصيَّاد
(3)
رسالة طويلة لم تنتهِ

«يرى الرجلُ الندى، وترى المرأةُ المطر».
(قول مأثور من كولوماني)

في اللَّيلة ذاتها، استضافونا في بناء المحافظة، مبدين لنا أفخم مظاهر الضِّيافة. فاقترحوا علينا أن نزيح أكوام ملفَّات الأرشيف، ونستخدم بضع أرائك متهالكة أخذت تتعفَّن في ذلك المكان. وبذلك، نصنع طاولات وأسِرَّة مُرتجَلة.

على عتبة الباب، يودِّعنا المحافظ وهو يغدق علينا من لطفه بابتسامة واسعة:

ـ غدًا، تأتي سيِّدة من القرية لتنظيف المكان وإعداد الطعام.

فتصوَّب قولَه السيِّدة الأولى:

ـ كان يجب أن تأتي تاندي، خادمتنا. ولكنَّ الأمر وما فيه أنَّها تعرَّضت...

يعجِّل فلوريندو بمقاطعتها:

ـ تعرَّضت لوعكة.

ـ وعكة؟ أيّ قول هذا يا زوجي؟ وعكة؟

يدفع ماكوالا زوجته إلى الباحة برفق حازم. يتجادلان في الخارج. ورويدًا رويدًا تتلاشى الأصوات. يبدو أنَّهما قد ابتعدا، ولكنَّ خطى

نافتاليندا المنفعلة تعلن عن عودتها، وبها إصرار على تركنا مع كلمتها الأخيرة:

ـ لمُجرَّد التوضيح، «تعرَّضت لوعكة» تعني أنها قد تعرَّضت لهجوم كاد يودي بحياتها. ولم تكُن الأسُود هي التي هاجمتها. ليست وحوش الدَّغل هي التهديد الأخطر في كولوماني. الحذر يا صديقي، كلّ الحذر.

تعاود المرأة الخروج، بينما أفكِّر أنا في المعجزة التي صنعت بابًا يتَّسع لكلّ هذا الجسد. أمرِّر أصابعي على سطح المكتبَ وأبتسم. سأكتب هذه اليوميَّات وسط غبار الزمن وأكداس الحروف المحتضرة. فما هذا المخطوط بأكثر من رسالة طويلة لم تنتهِ، رسالة إلى لوزيليا.

* * *

أوقظ الكاتب بحدَّة لا ضرورة لها. كان الرجل قد غفا لتوِّه، لا بدّ أنَّه خارج من بئر سحيقة.

ـ أنا في حاجة لمساعدتك. اتبعني بالسيَّارة، لإضاءة الطريق...

ـ ماذا يجري؟

ـ إنَّهم قد ملأوا الطريق بالشِّراك.

ـ وماذا في ذلك؟

ـ أنا صيَّاد، لا أستعين بالشِّراك.

أمضي سيرًا على قدمَيَّ، أمَّا الكاتب الناعس فيقود السيَّارة على مهل في إثري. ألتقط الشِّراك من هنا ومن هناك، فألقي بها إلى خلفيَّة الشاحنة. أجد أمامنا بناء من الجذوع يزيد ارتفاعه على قامة رجل، وقد استقرّ فوقه سقف من القش.

ينبّهني الكاتب:

ـ يبدو بيتًا.

ـ إنَّه أوتيغو، شَرَك يُنصَب للإيقاع بالأسُود.

أمرّر حبلًا من بين الجذوع وأحكم وثاقه بالسيَّارة، آمرًا غوستافو بأن يطيح بالسقف والسياج سيرًا إلى الخلف.

ـ هيَّا، بقوَّة، اضغط على الدوَّاسة!

وبين جهد المُحرّك، وصراخي نافد الصبر، أعود إلى زمن الطفولة. أذكر مرَّةً قرَّر فيها أبي اصطحابي إلى الدَّغل. اعترضت أمِّي بشدَّة، فعلاوة على أخطار الصيد كانت الحرب في أوجها. تجادلا عند باب البيت. كان الوقت فجرًا، ونبَّهت صرخات أمِّي الجوار. قرَّر باليرو الأب أن يضع حدًّا للخلاف، فدفعني إلى داخل السيَّارة الجيپ ثمَّ أوصد أبوابها دوني وأنا في القمرة. وإذا السيَّارة تندفع إلى الخلف بسرعة محمومة حتى أطاحت بي صدمة مباغتة لأرتطم بالزجاج الذي تهشَّم. سالت الدِّماء حارَّةً على وجهي. أذكر كيف حملتني أمِّي بين ذراعَيْها وهي تبكي في صمت. أودعتني في فراشي، وذراعاها مُضرَّجتان بدمائي، ثمَّ أعلنت لأبي في هدوء غامض:

ـ اعلمْ يا زوجي أنَّ هذا الصبيّ لن يغدو صيَّادًا أبدًا.

***

أمَّا وقد نزعنا الشّراك، أعود إلى البيت، وعلى ضياء مصباح الزيت أفتح مُفكِّرتي. أراجع ذكريات اليوم غير آبه بشيء. يسألني الكاتب وهو يدنو منِّي:

ـ إذًا، فأنت أعسر؟

ـ أجل. ولكنّي أطلق النار بيميني.

ثمَّ أُردِف شارحًا بإلهام مفاجئ أنَّ اليد اليسرى هي التي تسند الطفل عند حمله على الذراع. ولذا لا يجوز أن تكون هي اليد التي تقتل.

يجيبني غوستافو قائلًا:

ـ عجيب! فاليد اليسرى ملعونة في أكثر الثقافات. إلى أيَّة عشيرة ذهبتَ بحثًا عن ذلك الرأي؟

ـ عشيرة بيتي، آل باليرو. أمَّا اليوم، فقد اقتصرت تلك العشيرة عليَّ أنا، من دون غيري.

ـ وماذا تكتب؟ إن لم يكُن هذا تطفُّلًا من جانبي.

ـ أكتب هذه القصَّة.

ـ أيَّ قصَّة؟

ـ قصَّة الصَّيْد. سأنشر كتابًا.

لا يخفي غوستافو ابتسامته المنفعلة. ينزل عليه ذلك الكشف وكأنَّه لكمة في المعدة. فتتوالى أسئلته بلا انقطاع: كتاب؟... من هو الناشر؟... وإلى أيّ لون أدبيّ ينتمي الكتاب؟... رواية أم شهادة؟ لا أمهله حتى ينتهي من سلسلة التساؤلات والتحقيقات. فأخبره لتهدئته:

ـ أعتقد أنَّني لن أفلح في ذلك.

ـ ولمَ لن تستطيع؟

ـ الكتابة ليست كالصَّيْد. فالكتابة تستلزم قدرًا أكبر بكثير من الشجاعة. أن يفتح المرء صدره، أن يكشف نفسه بلا سلاح، ولا حماية...

يدرك غوستاڤو المفارقة الساخرة التي تنطوي عليها كلماتي. عند ذاك، يحاول مهاجمتي على أرضي أنا.

ـ قلتُ لك إنَّني أمقتُ الصَّيْد.

ـ ولمَ أنت هنا ما دُمتَ تمقته؟

ـ في هذه الحالة، لم يبقَ بديل أمامنا لإنقاذ حياة البشر.

ـ أتدري ما رأيي؟ إنَّه الخوف.

ـ ماذا؟

ـ أنت خائف.

ـ أنا؟

ـ إنَّك تخاف ذاتك، تخاف أن يصيدك الحيوانُ الساكن في نفسك.

يولِّيني غوستاڤو ظهره، ولكنِّي لا أنثني. فمهما استقرَّ به المقام في عالَمٍ حضريٍّ حديث، ما زال الدَّغل البدائيّ مفعمًا بالحياة في دخيلة نفسه. وسيبقى شقٌّ من روحه وحشيًّا على الدوام، حافلًا بوحوش عصيَّة على الاستئناس.

ـ تعالَ معي إلى الدَّغل ترَ، فأنت همجيٌّ يا عزيزي الكاتب.

ـ سمِّني كما شئت، فلن أجد بطولة عظيمة في إطلاق النار على حيوانات عزلاء. لا مجد في مواجهة غير متكافئة إلى هذا الحدّ.

في صمت، آخذ مخلب أسد من الجراب وأودعه على الطاولة.

ـ ماذا يبدو لك هذا؟

ـ طرف من أطراف أسد.

ـ طرف؟ إنَّه سلاح. إنَّها بندقيَّة الأسد. كما لك أن ترى، فالحيوان يتفوَّق عليَّ في التسلُّح. وفي خاتمة المطاف، من هو الصيَّاد؟ أنا أم هو؟

ـ هذا حديث لن يفضي بنا إلى شيء.

ـ دعني أقُل إنَّك بدأتَ بداية غير مُوفَّقة على الإطلاق بوصفك مراسلًا.

ـ ولمَ؟

ـ لم تدرك السَّبب الذي دفعني إلى التخلُّص من الشِّراك.

ـ وأنت بدأت بداية شرًّا منها، فأنت لم تتكرَّم ولا حتى بالحديث إلى الناس قبل التخلُّص من تلك الشِّراك التي نصبوها بكلّ همَّة.

ـ أيُّها الكاتب، تدري؟ لو جئتُ إلى هنا لصيد مصَّاصي الدِّماء لكان ذلك أفضل؛ ولأصبح كتابك على قائمة الأكثر مبيعًا بلا أدنى شكّ، فمبيعات مصَّاصي الدِّماء مرتفعة.

أنفخ في الشمعة، فتخيِّم العتمة على الحجرة. وفي الخارج، يوقظ البدرُ التام في نفسي أرقًا قطيًّا. وخلف أستار الأجفان، أعود إلى ذكرى لوزيليا. ولكنَّ سرابًا آخر يتبدَّى لي فجأةً. شابَّة سوداء، جميلة. فتاة محلِّيَّة باسمة قرب النهر، تظلُّ بلا وجه. ربَّما كانت مجرَّد امرأة من نساء القرية. اللَّيلة أنام مع نساء كولوماني جميعًا.

***

ما كدتُ أغفو حتى سمعت زئير أسد، وإذا العالَم يقف مكانه. فلا صمت بعد زمجرة الأسد. يسأل الكاتب، مضطربًا:

ـ أَسَمعتْ؟

ـ إنَّها لبؤة.. ما زالت بعيدة.

شيئًا فشيئًا، يخفت الزئير، ويصمت الظلام. وأخيرًا، أخوض حربًا مع اللَّيل.

* * *

منذ الصباح الباكر وامرأةٌ تُدعَى آنيفا أسّولوا تغسل وتنظّف وتسخّن المياه، من دون أن تنبس بكلمة واحدة. لها حضور ساكن كالظلّ. فلا تخاطبني بكلمة إلَّا وهي في طريقها إلى الخروج، من دون أن ترفع عينَيْها عن الأرض قطُّ. تسألني:

ـ هل تذكرني؟

لا أذكر. أشرح لها ظروف زيارتي السَّابقة العابرة. منذ أمد بعيد كلّ البعد، جئتُ إلى هنا لصيدِ تمساح. كانت أيَّامًا قلائل رحلتُ بعدها إلى غير رجعة. أردتُ الاعتذار عن تلك الفظاظة غير المقصودة. أمَّا هي، فقد بدا عليها الارتياح لعجزي عن التذكُّر.

ـ صارِحْني بالحقيقة، هل جئتَ للصَّيْد وحسب؟ أو جئتَ بحثًا عن شخص في كولوماني؟

ـ أيّ شخص؟ لا أعرف أحدًا في هذه القرية.

ـ ذلك خيرٌ لك. فلا أحد في هذه القرية.

ولم تزِد على قولها شيئًا يومذاك ولا في الأيَّام التالية. كانت تجوب المكان، بلا جسد، ولا صوت، ولا حضور. أدرك الكاتب أنَّ تلك المرأة جسر يعبر من خلاله إلى أهل القرية. وعلاوة على ذلك، فهي أمُّ ضحيَّة الأسُود الأخيرة. ولذا، يتبع غوستاڤو خطى آنيفا كظلّها. وبينما تملأ الخادمة صفيحة الماء، يسألها الكاتب عن الملابسات المحيطة بمصرع ابنتها.

ـ ماذا جرى ليلتها؟ هل كانت خارج البيت في تلك الساعة؟

ـ بل كان الأسد في الداخل.

ـ داخل البيت؟

فتُردِّد قولها، بزفرة تكاد تكون غير مسموعة:

ـ في الداخل.

تشير إلى صدرها وكأنَّها تلمِّح إلى داخل آخر. تعانق صفيحة المياه، ثمَّ تحملها على رأسها رافضة المساعدة.

ـ ينبغي لي الذهاب إلى البيت، فما زال عليَّ الطهو وإعداد حفل الاستقبال المزمَع إقامته على شرفكم.

تنهض في وضع مستقيم، وكأنَّ صفيحة المياه طَرَف من جسدها، وكأنَّ المياه هي التي تحملها.

***

يحضر المحافظ ظهرًا ليقدِّم لنا مُقتَصَّ الأثر الذي سيرافقنا خلال الصَّيْد. يُدعَى جِنتيو إمپيپيه، وهو زوج آنيفا، المرأة التي تنظِّف البيت من أجلنا ـ هكذا يقدِّمه فلوريندو. ثمَّ يردف بصوت مكتوم:

ـ الفتاة التي لقيَت مصرعها... كانت ابنة هذا السيِّد...

أنشر خريطة على الطاولة، وأطلب من الرجل أن يزوِّدني بالمعلومات اللَّازمة حول الأمكنة التي فيها تعرَّض الضحايا للهجوم.

ـ لا أقرأ سوى الأرض. أمَّا الخرائط فلغة لا أتقنها.

هكذا يجيبني مُقتَصُّ الأثر. له مسلك حادّ، يكاد يكون فظًّا. أعرف ذلك الصنف من الأشخاص. غلاظ في المعاملة، رغم براعتهم

في فنون الصَّيْد. ومع ذلك، فهناك ما يحدوني إلى التَّفكير بأنَّ چِنتيو يشعر نحوي بالاستياء، يشعر بألم تسبَّبتُ فيه بنفسي.

ـ أيكون لي الحقّ في حمل السِّلاح؟

ـ كلَّا.

أجيبه بالعبارات المقتضبة نفسها. يحاول المحافظ كسر الحاجز الجليديّ صائحًا بحماسة زائدة عن اللَّازم:

ـ لقد اهتدى صيَّادنا إلى تفسير لهجمات الأسُود. أخبر الرفيق چِنتيو، فهو في حاجة لأن يعرف...

كان الأمر عندي جليًّا، فلقد أتى القرويُّون على الحيوانات الصغيرة، تلك التي تعتمد عليها آكلات اللُّحوم الضخمة في غذائها، ولمَّا يئست الأخيرة فقد أخذت في مهاجمة القرى، لأنَّ البشر يمثِّلون فريسة سهلة للأسُود. ويُعَدُّ الدافع وراء سلوك الأسُود غير المألوف هو الشرخ الذي قوَّض السلسلة الغذائيَّة (كان ذلك هو المصطلح الذي استعنتُ به في شيء من الغطرسة).

عند ذاك، يدلي مُقتَصُّ الأثر بحُكْمِه في وجوهنا:

ـ خنازير.

للوهلة الأولى خِلتُه يسبُّنا. وإذا هو يكرِّر:

ـ إنَّه ذنب الخنازير!

يرفع الكاتب وجهه ليقول إنَّه لم يفهم، ولكنَّه لا يلبث أن يتخلَّى عن المحاولة، فقد أصبح عدم الفهم نشاطه الأوفر حظًّا من النجاح منذ وصل إلى كولوماني. عند ذاك، يخلص چِنتيو إمپيپيه إلى ما يلي:

ـ الخنازير هي التي أرتني طريق الأسُود.

كانت المزارع المحيطة بالبيوت تجتذب الخنازير البرّيَّة التي اقتحمت الباحات، فتتبَّعتها الأسُود لتجتاح بذلك مكانًا لم تجرؤ على اختراقه من قبلُ قطُّ.

***

في وقت لاحق، وبينما أرتِّب حوائجي، أُفاجأ بالكاتب وهو يطالع يوميَّاتي خلسة. فلا أتدخَّل. أترك أصابعه النهمة تتصفَّح المُفكِّرة الصغيرة. ولكنْ بدلًا من الضيق بذلك، يملأني اهتمامه بزهو غير مُتوقَّع. أيعترف الفنَّان شخصيًّا بفنِّي أخيرًا؟

لستُ أدري ـ ولن أدري ما حييت ـ ما رأي غوستافو فيما يقرأ. أعرف أنَّه، في لحظة ما، تختلج يداه ويلتمع في عينَيْه بريق.

***

تردّني الأوراقُ المرتجفة بين يديْ غوستافو إلى طفولتي. ومرَّة أخرى، أرى اليوم الذي اضطُرّ فيه رونالدو إلى التأكُّد من المحتوى الحقيقيّ للرسائل التي تكتبها أمِّي باستمرار. وأبي الذي عقد ذراعَيْه على صدره، يترقَّب حكم القاضي الأعلى. في حقيقة الأمر، رحتُ أسائل نفسي أنا الآخر: هل كانت الرَّسائل التي تكتبها مارتينا وفيَّة لما يمليه عليها أبي؟

في تلك المرَّة، سكت أبي عن الإملاء وصمت هنيهةً. فسألته زوجته وقد رأته مستغرقًا:

ـ ما الخطب؟

فقال هو، ماضيًا في حزم صوب زوجته:

ـ لا أصدّق أنَّكِ ملتزمة بما أُمليه عليكِ.

وبحدَّة، انتزع إنريكي باليرو الرِّسالة من بين يدَيْ زوجته، ثمَّ شرع يقلِّب الورقة مرَّة تلو أخرى مُحدِّقًا بها عن كثب وكأنَّه يرى من خلالها. الأمر الذي أكَّد لي شكوكي القديمة: لم يكُن أبي يتقن القراءة.

ـ رونالدو، يا بنيْ، تعال.

نهض أخي يرتعد من قمَّة روحه إلى أخمص قدمَيْه. فمدَّ أبي يده بالمُفكَّرة، شاخصًا بعينَيْه إلى ابنه.

ـ اقرأ المكتوب هنا بصوت عالٍ.

اتَّسعت عينا رونالدو عن آخرهما، وإن لم يبدُ قادرًا على التَّركيز في شيء. وراحت الخطوط تتراقص بين يدَيْه المرتجفتَيْن. وإذا بصوته عقدة بلا طرف يمكن الإمساك به لحلِّها.

ـ اقرأ!

ـ في أيّ موضع يا أبي؟

ـ اقرأ. اقرأ في أيّ موضع.

كانت نظرة أمِّي ابتهالًا. حدَّق إليَّ رونالدو في جَزَع ورعب، ثمَّ تنفَّس عميقًا، حتى إنَّني لم أتعرَّفه لمَّا طفا صوته في الصالة:

ـ عزيزي إنريكي، يا زوجي الحبيب...

ـ هيًّا، استمرّ...

ـ ... يا حبّ حياتي الوحيد.

حدَّقتُ إلى وجه أمِّي فرأيتُ الحزن، حزن البشر أجمعين.

* * *

سرعان ما يبدأ حفل الاستقبال المُعلَنة إقامته في وسط القرية. يودُّ الكاتب كسب الوقت واغتنام الساعة المُتبقِّية للحديث إلى الشهود، وجمع الشهادات. أرافقه. نمضي هائمَيْن، عَبْر الطرق المختصرة في كولوماني. أتقدَّمه والبندقية في حزامي، بخطى عسكريَّة. مرَّة أخرى، يسأل الكاتب عن جدوى السلاح في أوج النهار، في قلب القرية!

ـ للحيوانات سبل أخرى في تمييز النهار من اللَّيل، والدَّغل من القرية.

الآن، أتمكَّن من تقدير أبعاد القرية. تمتدُّ الأكواخ إلى ما وراء النهر، وتكسو التلَّةَ على الضِّفَّة المقابلة. كانت القرية قد توسَّعت منذ زيارتي الأخيرة. لا بدَّ أنَّهم لاجئو حرب، أولئك الذين استقرَّ بهم المقام على ضفَّة نهر ليدايا.

يبادرنا القرويُّون بالتحيَّة، تاركين لنا أولويَّة المرور عَبْر الطرق الضيِّقة. يبدو على البعض أنَّهم يذكروني. ألقاهم مُحيِّيًا في مودَّة:

ـ أوموني؟

فيجيبونني ببهجة مأخوذين، لأنِّي أحيِّيهم باللُّغة المحليَّة:

ـ نيموني.

يبتسمون. فلا تلبث البسمة أن تغرق في نظرة مفعمة بالتوجُّس. كان الشيء الذي يدفع أولئك الرجال إلى التآخي هو موطن الضعف نفسه، لأنَّهم يعيشون محكومين، في انتظار الضربة القاصمة. لطالما كان وجودهم على هامش العالَم، طوال قرون. ولذا، فهم يرتابون في الاهتمام المباغت بمعاناتهم. الارتياب الذي يفسِّر ردَّ فعل أحد القرويِّين لمَّا أعرب له غوستافو عن نيَّته في إجراء مقابلة معه:

ـ تريدون أن تعرفوا كيف نموت؟ مع أنَّ أحدًا لم يأتِ ليعرف كيف نعيش!

كلاب ضامرة تقطع الطرقات كالظلال الشاردة. وفي تلك الأثناء، كانت الكلاب، المراوغة في أوَّل الأمر، تستسلم لأدنى بادرة ملاطفة، وتستكين بين أيدينا وكأنَّها تهفو لأن تصير بشرًا. يناديها الكاتب، يودُّ مداعبتها. يحدِّجه الناس بنظرات استغراب، إذ لا يتوقَّعون منه ملاطفة الكلاب، ناهيك عن الحديث إليها. فتلك الحيوانات المنزليَّة لا تتلقَّى كلمة واحدة، ولا كسرة من بقايا الطعام. بل إنَّها لا تأكل سوى ما تصيد، لئلَّا تكتسب ألفةً وجوديَّة.

* * *

في طرفة عين، اجتمع تحت شجرة المانجو العشرات من المُتفرِّجين. عجيب كيف يزدحم مكانٌ مهجور فجأةً بالناس الذين يبدون كأنَّهم ينبثقون من الرمال! أنظرُ مُتهكِّمًا إلى عملية تبادل المصالح. فالكاتب طائر جارح، يطلب حكايات عن الحرب. أمَّا القرويُّون فيترقَّبون منه مكسبًا، أو تبرُّعًا بلغة أهل المكان. كيف لواحد من الكُتَّاب أن ينتقدني بسبب مهنتي؟ فأنا أزاول الصَّيْد، أمَّا الكاتب فكائن مُترمِّم، خرج في هذه الرِّحلة لينهش المصائب، وسط ناجين حِدادهم صَمْتٌ. الكاتب ينكأ جروح الماضي. وذلك ما يفعله غوستافو حين ينبش في ذكريات الحرب الأهليَّة.

ـ وماذا تذكر أيضًا من زمن الحرب؟

فيقول أحد القرويِّين:

ـ ليس هنالك ما يُذكَر يا سيِّدي.

ـ وكيف ذاك؟

ـ لقد عاد الجميع من الحرب أمواتًا.

أُشيح بوجهي. فلا أريد منه أن يرى الانتقام مرتسمًا على بسمتي. لا حربٌ تُحكَى. حيثما جَرَت الدماء، سكت الكلام. بينما الكاتب يسأل الموتى أن يُظهروا جروحهم.

في اللَّحظة نفسها، يتبادر إلى ذهني أنَّ ذلك ما يروقني في الصَّيْد: العودة إلى ما وراء الحياة، وقد أُعْفِيتُ من كوني بشرًا.

***

الأعمى الذي لاحقنا ليلةَ وصولنا يشارك في حلقة اللِّقاء مع الكاتب. في لحظة بعينها، يتَّكئ على كتفَي الواقف أمامه ويبادرنا بتحيَّة عسكريَّة مُفخَّمة. ما زال حافيًا، يرتدي السترة العسكريَّة المُموَّهة نفسها. يسأله الكاتب:

ـ في أيّ جيش خدمت؟

فيجيب الأعمى فورًا:

ـ في جميعها.

ثمَّ يردف مشيرًا صوبي:

ـ وأذكر جيِّدًا صوت ذلك السيِّد.

ـ غير معقول، صوتي أنا؟

ـ معذرة، لا أقصد الإساءة، ولكنِّي أودُّ سؤالكم، لمَ استدعيتم صيَّادًا؟ كان عليكم استدعائي أنا، فأنا جنديٌّ.

فيحتجُّ الكاتب:

ـ لا أفهم. ما علاقة ذلك بالجنود؟

ـ ألا ترى يا سيِّدي؟ ما هذا بصَيْد، إنَّما هي حرب.

كانت الحرب هي التفسير الملائم لمأساة كولوماني. فتلك الأسُود لم تنبثق من الدَّغل، وإنَّما هي وليدة النزاع المُسلَّح. والآن تتكرَّر الفوضى التي تخلِّفها الحروب جميعًا، فصار البشر حيوانات والحيوانات بشرًا. خلال المعارك، تُرِكَت الجثث في الميدان والطرقات، فالتهمتها الأسُود. وفي تلك اللَّحظة بعينها، وقعت الحيوانات في المحظور، وبدأت تنظر إلى البشر كما تنظر إلى الفريسة. ختم الأعمى خطابه الطويل أخيرًا:

ـ لم نعُد سادة، نحن البشر. فالآن، أحكمت الأسُود سيطرتها على خوفنا.

ثمَّ أردف بطلاقة من دون أن يقطع حديثه:

ـ سبق أن وقع الأمر نفسه في الحقبة الاستعماريَّة. فالأسُود تذكِّرني بجنود الجيش البرتغاليّ. أولئك البرتغاليُّون الذين تمادينا في رسمهم في مُخيِّلتنا حتى جعلناهم من المغاوير. كانوا يفتقرون إلى القوَّة اللَّازمة للانتصار علينا. ولذا حملوا ضحاياهم على قتل بعضهم بعضًا. فتعلَّمنا كيف نمقت أنفسنا، نحن السُّود.

مضى الشَّيخ يتكلَّم وكأنَّه يخطب، مفعمًا باليقين. وإذا هو في تلك اللَّحظة جنديٌّ، روحُه في سترة عسكريَّة من نسج الخيال.

***

يعرف الكاتب أنَّ اللِّقاء الحقيقيّ سيكون خلال حفل الاستقبال المزمعة إقامته ساعةَ الغداء في الشيتالا، أي السقيفة القائمة في مركز

القرية. في الظلّ، حيث يجتمع الرجال عادةً. أمّا النساء فمُبعَدات من هناك. لا يجرؤْن حتى على المرور قرب ذلك المكان المسقوف. كان فلوريندو ماكوالا يؤثِر إقامة الحفل في موضع آخر، أكثر عصريَّة، حيث تكون التقاليد أقلّ حضورًا. ولكنَّ الكاتب أصرّ، فهناك يواجه التَّفسيرات الأكثر تنوُّعًا لهجمات الأسُود في جلسة واحدة.

بلغنا السقيفة أخيرًا، فلم يكُن المحافظ قد وصل بعد، مراعاةً لمراسم السلطة: لأنَّه هو المُنتظَر. ينهض الشيوخ الأكبر عمرًا مُرحِّبين. وفي أثناء التَّحية، يشدُّون باليد اليسرى على مرفقي الأيمن، علامةً على الإكبار والاحترام. ولسان حالهم يقول إنَّ ذراعي «ثقيلة».

أخيرًا، يظهر فلوريندو ماكوالا، برفقة حارسه الخاصّ وسكرتيره الذي يحمل ملفًّا. ينهض شيخٌ قرويٌّ بالاحترام اللَّائق، فيستقبل المحافظ بالكلمات التالية:

ـ لم نرك يومًا في هذه الشيتالا. أهلًا بك في سُرَّة القرية. تفضَّل بالجلوس، وليكُن في علمك أنَّ الكلمة الأولى في هذا المكان لنا...

فيبدي المحافظ قبوله:

ـ حسنًا جدًّا. في النهاية أختم أنا الجلسة...

ينتظر الشَّيخ حتى يستقرَّ فلوريندو في مكانه، ومن فوره يواجهني أنا وغوستافو، ويداه على خصره:

ـ فيمَ زيارتكما لنا؟

يتعجَّب الكاتب:

ـ ألم يبلغوكم؟

ـ نريد أن نعرف لما اخترتمانا نحن.

ـ وما المشكلة؟

ـ سوف يشتكي الآخرون، أولئك الذين لم تزوراهم في باقي القرى. فنقع ضحايا الحسد، ويغدو موتنا أشدّ وطأة من تحت رأسَيْكما، ونحن المحتضرون بالفعل.

أحتجُّ وأضمُّ جهودي إلى جهود غوستافو ريغالو:

ـ لا نقدر على زيارة الجميع. ثمَّ أيّ حديث هذا؟ هناك من يلقون مصرعهم، هناك ضحيَّة جديدة كلّ أسبوع.

ـ ليس الزَّمنُ سبَّاقًا. فأقدام الزمن فينا نحن. علاوةً على ذلك، فالآن يموت المزيد من البشر،لأنَّكما بزيارتكما إلى كولوماني تجتذبان الأسُود القاتلة.

أجزم فيما أنهض عن المقعد:

ـ ما دمتم لا تريدونني، فأنا ذاهب. اليوم أعود إلى العاصمة.

يرفع المحافظ ذراعَيْه مضطربًا، ويأمر بأن يجلس الجميع. ثمَّ يتوجَّه إلى المحفل بلغة الماكوندي. يُفهَم أنَّه يودُّ تسوية خلافات مُحتمَلة أسفر عنها سوء التفاهم. يخيِّم الصمت. أمَّا الشَّيْخ القلِق فيبتسم أخيرًا، ويتوجَّه إلينا بالبرتغاليَّة قائلًا:

ـ حسنًا.. دعونا نتناول الطعام أوَّلًا، ثمَّ نتحدَّث. فإذا امتلأت المعدة، صفا الحديث.

يقدِّمون لنا صحنًا من طحين الذرة المطهوّ الذي يُسمَّى الشيما هنا. وفي الوسط، استقرَّت قِدْر ضخمة عامرة بقطع من لحم الجدْي،

وبأجزاء من جسد الحيوان: الرأس، والأرجل، واللَّحم، والقرون. أكتفي بالطحين المُشرَّب بمرق أفضِّل الجهل بطبيعته. يشجِّعني ماكوالا:

ـ دعْ عنك الرسميَّات، فأنتما اللذان قدَّمتما هذا الجدْي إلى أهل القرية.

يُقدَّم لنا الشرابان المُعتَّقان المعروفان باسم أوغوالوا وليبا، فلا أرتكب فظاظة الرفض، وإن اكتفيت ببلِّ شفتَيّ فحسب. وقبل البدء في تناول الطعام، مرُّوا على الجلوس بسطلٍ من المياه الفاترة لغسل الأيدي. نظرًا لعدم توافر منشفة، أترك المياه تنساب على ذراعَيَّ المرتخيتَيْن. نأكل في صمت. يُسمَع مضغ اللَّحم المحموم. فلا يخاطبنا أحدهم بكلمة إلى أن تعود العظام إلى القِدْر، نظيفةً من اللَّحم. كان الشَّيخ مُحقًّا، فقد خفَّ التوتُّر في الأجواء، وتعالت الضحكات وأُطلِقَت الدعابات. يسألونني وغوستافو عمَّا إذا كانت لكلٍّ منَّا زوجة. وأمام الإجابة بالنَّفي يتبادلون النَّظرات فيما بينهم جميعًا.

ـ كلاكما أعزب؟!

وفجأةً، يخيِّم الارتياب من جديد. رجلان ناضجان وعازبان؟ لا يمكن أن نكون إلَّا من السَّحَرة، فوحدهم السَّحَرة يظلّون عُزَّابًا مدى الحياة.

ـ أرجو أن تعذرا ارتيابي، ولكنْ هل تعيشان على أيديولوجيَّة الرَّب؟

يعاود الشيخُ الهجوم، ويعقِّب على رفضنا تناول الطعام من القِدْر الكبيرة. فمَنْ يرفض مثل هذه الدعوة في العالَم بأسره؟

ـ أخطأتم يا إخوتي. فأولئك البِيض يأكلون اللَّحم كلَّ يوم، بل إنَّه ذلك الشَّرَه الذي سيؤدِّي إلى نهاية العالَم.

فيقول قرويٌّ آخر مُصوِّبًا قولَ سابقه:

ـ ليست المشكلة ما يأكلان، وإنَّما كيف يأكلان.

يسأل غوستافو:

ـ ماذا تعني؟

ـ تأكلان وحدكما. السَّحَرة هم من يأكلون وحدهم.

يهرس الرجل بيده حفنة من طحين الشيما، ثمَّ يغمسها ببطء في يخنة الكرنب، ويترك القطرات تتساقط قبل أن يرفعها إلى فمه.

ـ أولئك الذين يأكلون وحدهم يخفون شيئًا عن الأنظار. سيِّدي الصيَّاد، تأكَّد من أنَّنا لم نسئ استقبالكما، بل أنتما اللذان أسأتما الوصول إلينا.

يهتف الكاتب في دعوةٍ إلى التصالح:

ـ دعونا ننسَ الأمر برمَّته. إنَّما أرغب في سؤالكم عن تلك الأسُود التي ظهرت، أهي حقيقيَّة؟

فيسأل الحضور في صوت واحد:

ـ حقيقيَّة كيف؟

يفسِّرون له سبب دهشته، فالأسُود ثلاثة: أسد الدَّغل الذي يُدعَى هنا باسم نتومي ڤا كوڤاپيلا، والأسد الصناعيّ الذي يُدعَى باسم نتومي كو لامبيديانغا، والأسد البشريّ الذي يُدعَى باسم ڤانتومي ڤا ڤانو. وأخيرًا، يجمعون على النتيجة التالية:

ـ كلُّها أسود حقيقيَّة.

وعلى غير المُتوقَّع، يُسمَع صوت أنثويّ، هرطوقيّ، مباغت:

ـ ينبغي أن يكون الصَّيْد مختلفًا. فأعداء كولوماني حضور هنا، في هذا المحفل!

فيدبّ الذعر في نفوس الحضور جميعًا على أثر ذلك التدخُّل. يحملق الرجال في الدخيلة وقد تملكَّت منهم المفاجأة. إنَّها نافتاليندا، زوجة المحافظ، تتحدَّى المُحرَّمات الأشدّ إيغالًا في القِدم: فالنِّساء لا يدخلن إلى الشيتالا. ناهيك عن السَّماح لهنَّ بالإدلاء بآرائهنّ حول مسائل على هذا القَدْر من الجسامة. يبادر المحافظ إلى استدراك الواقعة:

ـ أيَّتها الرفيقة السيِّدة الأولى، من فضلكِ، هذا لقاء خاصّ...

ـ خاصّ؟ لا أرى شيئًا خاصًّا هنا. ولا تنظروا إليَّ هكذا. لستُ خائفة. فأنا كالأسُود التي تهاجمنا، ما عدتُ أخاف بشرًا.

يرجوها ماكوالا:

ـ نافتاليندا، من فضلكِ، لقد اجتمعنا هنا بما يوافق التقاليد القديمة.

ـ في هذه القرى، تعرَّضت امرأة للاغتصاب وكادت تلقى مصرعها. ولم تكُن الأسُود هي التي فعلتها. لم يعُد ثمَّة مكان محظورًا عليَّ.

تمضي قُدمًا وسط الشيوخ في غطرسة، ثمَّ تبتسم للمحافظ في ازدراء، وأخيرًا تتوقَّف أمامي:

ـ أركانچو باليرو، هل عُدتَ إلى كولوماني؟ عليك إذًا بصيْد مغتصبيّ النساء.

فيحذِّرها فلوريندو ماكوالا:

ـ عزيزتي، ينبغي طلب الإذن في الكلام أوَّلًا.

ـ الكلمة الآن لي أنا، ولستُ في حاجة للاستئذان من أحد. أتحدَّث إليك أنت، أركانچو باليرو. صوِّبْ سلاحك إلى أهدافٍ أخرى.

ـ أيّ حديث هذا يا زوجتي؟

ـ يتظاهرون بالقلق من الأسُود التي تسلبنا الحياة. أمَّا أنا، فبوصفي امرأة أسأل: أيّ حياة تبقَّت لنا حتى نُسلَبها؟

ـ عزيزتي نافتاليندا، كرمى للرَّب. لدينا أجندة لمناقشتها في هذا اللِّقاء.

ـ أتدرين لما لا يسمحون للنساء بالحديث؟ لأنهنَّ قد متن بالفعل. أمَّا أولئك، أصحاب النفوذ في الحكومة، وأثرياء الساعة، فيستغلّونهنّ للعمل في حقولهم.

ـ ماليكيتو، من فضلك، خُذ السيِّدة الأولى من هنا، فهي تعطِّل حلقة العمل.

ـ قلائل هم الذين يُثْرُون. ومِنْ الموتى مَنْ يعملون ليلًا كي يثري القلائل.

تدبُّ مشادَّة في المكان. وفجأةً، لا يعود أحد يتكلَّم البرتغاليَّة. يندلع ذلك الشجار في عالَم غير العالَم. في عالَم حيث يتفاهم الموتى والأحياء في غير حاجة إلى الترجمة.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

ما روَتْه ماريامار
(4)
الطريق العمياء

«أَيُّمَا كلمة عجزت عن الخروج من الفم، تحوَّلت في النهاية ريقًا سامًّا».

(قول مأثور من إفريقيا)

اليوم، أخبرتني أمّي بأنَّها تخدم في بيت المحافظ، حيث نزل أركانچو باليرو. هناك تلتقي بصيَّادي كلَّ يوم. ربَّما فعلت عن عمد، بقصد إذلالي. من دون أن أوجِّه لها سؤالًا، تبادرني أمّي قائلةً:

ـ لقد جاء ذلك المدعوُّ أركانچو باليرو مريضًا، جاء وقد تسلَّل إلى جسده داء الصيَّادين.

ولأنَّها تقصد إيلامي بحديثها، فلقد أجبتُها متظاهرةً بعدم الاكتراث. لا أريد أن أعرف. لم يعُد وطني مقتصرًا على القرية فحسب، ولا حتى على بيتي، بل إنَّ وطني لا يعدو أن يكون هذا الركن المنعزل، الباحة التي نزلتُ فيها سجينة. أتأمَّل ساقَيّ وأفكِّر كيف أصبحتا الآن بلا ضرورة. أكاد أشعر بالحنين إلى الفترة التي أُصِبْتُ خلالها بالشَّلل منذ زمن، وكأنَّ طرفَيَّ السُفليَّيْن ما عادا يتحدَّثان اللُّغة نفسها كباقي الجسد. ذلك ما تهفو إليه نفسي اليوم: لغة لا يفهمها الجسد، لغة أتكلَّمها في الأحلام وحسب.

* * *

تُولَد الساقان من الرأس، بل إنَّ الجسد كاملًا يبدأ من الرأس، كما تتساقط الصواعق من السماء. هكذا، كان يقول أدچيرو كاپيتامورو،

جدِّي العزيز الغالي، وما زلتُ أعتقد أنَّه مُحِقٌّ حتى يومنا هذا. غفت ساقاي يومَ أفاق رأسي. ذات يوم، وأنا في الثانية عشرة من العمر، سقطتُ على الأرض كالجوَّال الخاوي قبالة الفراش. اجتمع الأقرباء، وجذب أدچيرو أبي من معطفه:

ـ چِنتيو، أنت الذي فعلتها؟

سارعتُ بالردّ، دفاعًا عن أبي. لم يكُن ذنب أحد، ولا كان الأمر يفتقر إلى تفسير. فكلُّ ما هنالك أنَّ الكوابيس قد داهمتني ليلتها، مصحوبةً برؤى لم أجرؤ على استحضارها. أرغموني على النهوض، فسقطتُ ثانية، وقد خارت قواي الداخلية. تحسَّر أبي قائلًا:

ـ الآن، دونًا عن باقي الأوقات، والحرب على أشدّها، سيكون العبء أشدّ وطأة.

فاستفسر أدچيرو:

ـ منذ متى والابنة صارت عبئًا؟

للجسد وظيفة واحدة في عمر الطفولة: اللّعب. ولكنْ ليس في كولوماني. ففي مواجهة النيران، كان أطفال قريتنا يطلبون من سيقانهم أن تحملهم هربًا، أسرعَ من الرصاص. كان زمنًا تكتسح فيه الأسلحة قرانا. وفي نهاية المساء، كانت المراسم واحدة لا تتغيَّر، إذ كنَّا نحزم أغراضنا ونختبئ في الدَّغل. كان الأمر عندي لعبًا، لهوًا يشاركني فيه باقي الأطفال. في عالَم من البارود والدِّماء، كنَّا نبتكر ألعابًا صامتة. وفي ذلك المخبأ اللَّيليّ، تعلَّمتُ الضحك إلى الداخل، والصياح بلا صوت، والحلم بلا نعاس. حتى كان يومٌ لم يعُد فيه نصفي السفليّ لي أنا. وسقطتُ أمام الفراش.

* * *

بعد إصابتي بالشلل، كان جَدِّي أدچيرو هو الذي يحضر إليَّ في نهاية المساء، ويحملني على ذراعَيْه إلى مخبأ الدَّغل. كان الآخرون يأوون إلى مخبأهم جميعًا، فأبقى وحدي والأغراض عديمة القيمة المتناثرة على أرض البيت. وفيما أترقَّب ذراعَيْ جَدِّي المنقذتَيْن، وأنا في عزلة الحجرة، يترسَّخ في دخيلة نفسي يقين بأنِّي مُجرَّد شيء سيطمره غبار كولوماني كما تُطمَر الأشياء.

فكنت أنا، ماريامار إمپيپيه، محكومةً بمكان واحد، وحياة واحدة. فالمرأة العاقر في كولوماني أبخس من مُجرَّد شيء، ولا تعدو أن تكون مُجرَّد عَدَم. قيل إنَّ الذنب فيما آلت إليه حالي يقع على أمِّي. فلقد أُصيبَت آنيفا أسّولوا باللَّعنة لمَّا رفضت أسرتها إخضاعها لشعائر البلوغ بضغط من الكهنة الكاثوليك. فصارت ناماكو، أي صبيَّة لم تنضج وتصبح امرأة. عُمِّدَت أمِّي في الكنيسة، ولكنَّها لم تخضع لمراسم الإنغوما، أي تلك الشعائر التي تسمح لنا بالبلوغ. فقُضِي على آنيفا بالطفولة الأبديَّة.

***

كان أبي على حقّ، فلقد صرتُ عائقًا حين أُصيبَت أطرافي بالخَدَر. ولكنَّه لم يعرف أنِّي أتعرَّض لأمر أشدّ خطورة من الشلل. صحيح أنَّ نوبات الجوع قد خفَّت، ولكنِّي بدأتُ أعاني من نوبات غير مألوفة بحلول نهاية المساء، وقبل أن يأخذونا إلى مخابئ الغابات. وحدها سيلينسيا كانت تعرف بما يجري في حجرتنا. طبقًا لشهادة أختي، كنتُ في تلك النوبات أبتعد عن كلّ ما هو معروف. فأزحف بمهارة خليقة بذوات الأربع، وأخدش الجدران بأظفاري، وتدور عيناي في محجرَيْهما بلا توقُّف، وأزمجر وأُزبِد تحت وطأة الجوع والعطش. وللتخفيف من نوبات

غضبي، كانت سيلينسيا تضع الصُّحون والطَّاسات بما حوت من طعام ومياه على الأرض. كانت أختي تنطوي على نفسها في أحد الأركان، وهي تنتحب مذعورة، وتبتهل كي لا تعاود رؤيتي ألعق المياه وأعضُّ الصُّحون. كانت تتنهَّد قائلةً:

ـ إنَّه عمل من أعمال السِّحر، لا يمكن أن يكون سوى عمل من أعمال السِّحر!

ولمَّا يئستُ من حالي، أعادت سيلينسيا تمثيل الأسطورة التي نُسِجَت حول تأسيس قبيلتنا عند باب البيت: إذ دَفَنَت في باحتنا دمية صغيرة نحتها جَدِّي خلسة. وطبقًا لما جاء في الأسطورة، فقد دفن الرجل الأوَّل دمية من الخشب في رمال السافانا، فتحوَّلت إلى المرأة الأولى. تلك هي المعجزة التي جرت مع بدء العالَم. ولكنْ سيلينسيا ابتهلت ليلة تلو ليلة كيما تهبَّ نسمة الحياة على الدمية الخشب المدفونة في باحتنا.

لم تدبّ الروح في الدمية قطُّ، ولكنْ سيلينسيا كانت تهرع لتأتي إليَّ بالحارس الخشب الصَّغير كلَّما أحسَّت بقرب الهجوم. وفي ذلك الحين، كنتُ أهدهد الدمية وكأنَّها ابنتي، ومع تلك الهدهدة كانت سكينة الأم تتولَّد في داخلي. كنتُ أحملها بين أسناني زحفًا على أربع، على طريقة القطط، وهي الدمية التي كنتُ أتخيَّلها ابنتي الشرعيَّة.

***

ربَّما كانت ساقاي بلا حياة، ولكنِّي لم أبقَ سجينة نفسي قطُّ. كانت أصوات الأطفال تتسلَّل إلى باحتنا كلّ نهار.

ـ اطلعي، ماريامار، اطلعي على أكتافنا!

فكان الفتيان يتناوبون على حمْلي على الأكتاف، ويأخذونني بعيدًا عن البيت راكضين في بهجة. لم أترك لعبة إلَّا وجرَّبتُها، وأنا محمولة على الأكتاف كالطفلة الصغيرة. اليوم، يسعني القول بأنِّي عشتُ طفولتي من خلال الأطفال الآخرين. كنت أتعلَّق بعنق أحدهم، أو أصعد على كتف مجهولة، فلا أُدرك حتى مدى التصاق صدري بالفتيان الذين يتصبَّب عرقهم. فكانت أختي سيلينسيا تحذِّرني:

ـ هكذا، لن يبرز نهداكِ أبدًا.

يُعَدُّ الصَّدْر بمثابة علامة في كولوماني، فبالنظر إلى حجمه تعرف الأمَّهات متى يجب عليهنَّ إخضاع بناتهنَّ لشعائر البلوغ. ولذا، فالأمر الذي كان عندي مُجرَّد لعبة بريئة، كان في نظر القرية وصمة عار. كانت النساء يريني على أكتاف الفتيان، فيشحن بوجوههنَّ في ضيق. هكذا، كانت العرَّابات المُلقَّبات باسم إمبواناس يحملن الصبايا على الأكتاف بمناسبة شعائر البلوغ، الصبايا اللائي على وشك أن يصبحن من النساء. الأمر الذي لم تغفره لي النساء، لأنِّي استبقتُ لحظةً تُعَدُّ مهيبة مُقدَّسة، وأفسدتُها. لم يتَّسع لي عالَمٌ تحكمه الوصايا العتيقة، وأنا ابنة المُتشبِّهين وحفيدتهم. بل كان إثمي أشدّ وطأة بسبب الزمن المشحون بالأزمات الذي عشناه آنذاك. فكلَّما تمادت الحرب في سرقة اليقين منَّا، اشتدَّت حاجتنا إلى أمانِ الماضي القائم على النظام والإذعان.

***

ذات يوم، توجَّه جمع من الفتيان إلى ڤيلا دي پالما وسرقوا نعشًا بلا استخدام. ثمَّ جاؤوا به إليَّ في اللَّيل قائلين:

ـ هذه مِحَفَّتكِ.

ومن ذلك الحين، شرعوا يحملونني إلى كلّ مكان وأنا داخل النعش، جالسة على تلك المحفَّة، من حيث أرى الناس يتسمَّرون في مكانهم ليقدِّموا إليَّ آيات احترام لم يُبدِها لي أحدٌ قطُّ. وعلى هدهدة ذلك التكريم الجماعيّ، صرَّحتُ لأمِّي قائلةً:

ـ أمِّي، أودُّ العيش في نعش إلى الأبد.

ولكنَّ التكريم الذي لقيتُه منعني من فهم الآتي: فالأمر برمَّته كان مُجرَّد عبث حزين. إذ كان عليَّ أن أصبح عَدَمًا حتى يدركوا وجودي. كان حريًّا بي الحنين إلى تلك السقيفة الحيَّة الأخرى التي كنتُ ألعب جالسةً فوقها، وبذلك أعني أكتاف باقي الأطفال. ولكنْ كلَّا. لأنَّ صدري كان يجيش بِخُيَلاء الملكات وأنا أتأرجح مُتربِّعةً فوق عرشي المُرتجَل:

ـ الآن يبرز نهداي!

فحذَّرتني سيلينسيا:

ـ دعي عنكِ الرَّغبة في النضج يا أختي، دعي عنكِ الرَّغبة في أن تصبحي امرأة.

***

ذات فجر، ألفيتُ النعشَ مُهشَّمًا تمامًا. كان جَدِّي أدچيرو كاپيتامورو هو الذي حطَّمه. على غير المُتوقَّع، توجَّه كبيرنا إلى الباحة وحطَّم النعش الخشب. بل إنَّني سمعتُه يصيح في أبوَيَّ:

ـ كيف تسمحان بلعبة مثل هذه؟ كرمى للرَّب، إنَّها طفلة...

أذكر أنّي بكيتُ أمام ألواح الخشب المُهشَّمة. ولمَّا رأتني سيلينسيا أحفر الرمال محمومةً، خالتني أنقِّب عن الدمية الصَّغيرة التي دفنَتها في الباحة. ولكنَّ الغاية من الحفر كانت لأمر آخر:

ـ إنَّني أدفن نعشي.

***

المشهد برمَّته جرى قبل النهار الذي لا يُنسَى، عندما حملني جَدِّي خارجًا، وقد ألبسوني حذائي وصفَّفوا شعري. لم يفسِّر لي الكثير. إن هي إلَّا كلمات مبهمة:

ـ سوف تتلقّين مياه الرَّب.

كانت مبالغات جَدِّي مألوفةً لديّ. كما أنَّه هو الذي أطلق عليَّ اسمي النهائيّ الذي به دُعيتُ: ماريامار.

قال لي:

ـ ليس ما وهبتُكِ مُجرَّد اسم، ولكنْ مَرْكَبًا ما بين البحر والحبّ[1].

كانت تلك هي الكلمات التي أدلى بها في معموديَّتي الثانية. وزاد عليها أنَّني لستُ في حاجة لضربٍ من الشعائر لأكون امرأة. فالمرأة التي سأكونها في داخلي بالفعل.

***

كان ذلك مطلع اليوم الذي أوشك العالَمُ فيه أن يكون، صبيحةَ جاء أدچيرو ليأخذني. أُسْتُوفِيَت تجهيزات الخروج في لحظات، فحُرِث

(1) جدير بالذكر أنَّ ماريامار باللُّغة البرتغاليَّة يعني «بحر وحُبّ». فنجده مُكوَّنًا من شقَّيْن: «مار» Mar، أي بحر، و«أمار» Amar، أي حُبّ.

شعري الأشعث بمشط من الخشب، ودُسَّت قدماي في حذاء مُرتجل. سألني جَدِّي:

ـ هل انتعلتِ الحذاء؟

أنتعل الحذاء؟ ولمَ؟ مضى زمن طويل والحذاء عندي مُجرَّد زينة.

ـ أيعرف أبوايَ إلى أين نحن ذاهبان؟

ـ لا تخافي، فأنا جَدُّكِ الأكبر.

ثمَّ طفق يحدِّثني وهو يسوِّي شعري.

ـ اتركي نفسكِ للبَرَكة يا حفيدتي. فأنتِ على وشك أن تنالي معجزة.

ـ أيَّ معجزة يا جَدِّي؟

ـ ستمشين من جديد.

عِلَّةً كانت أو لعنة، فهو لم يتحمَّل رؤيتي أنحدر إلى منزلة الحيوانات باستسلام. تنفَّس عميقًا قبل أن يقول:

ـ لدينا مثل يقول: «ما دُمتَ قادرًا على الحديث، فأنت قادر على الغناء. وما دُمتَ قادرًا على السير، فأنت قادر على الرَّقص». وأنتِ يا حفيدتي سوف تغنِّين، وترقصين.

نظرتُ إلى ذراعه وكأنَّها امتداد لي أنا. وقد كانت. كيف لي بقطع حبلي السُّرِّي الثاني يومًا؟ أمَّا أدچيرو كاپيتامورو، البعيد عن خواطري، فقد طوى القرية بكبرياء تليق بمن يفتتح ميدانًا، وهو يحملني في عربة يد.

أخذ يترقَّب وصول الأب الكاهن مانويل أموروزو واقفًا على باب الكنيسة. كان المُبشِّر البرتغاليّ هو الشخص الأبيض الوحيد الذي

نعرفه. لم يكُن يتميَّز عن الآخرين بلون البشرة، ولا باللُّغة التي يتكلَّمها، ولا بالأردية التي يرتديها، وإنَّما تميَّز عنهم بأنَّه لم تكُن له زوجة تُرَى، ولا أبناء يسيرون على خطاه.

ـ أدچيرو كاپيتامورو!

أعلن الأب الكاهن، مُفخِّمًا كلّ مقطع وكأنَّه يترنَّم بأنشودة مبهجة.

ـ هأنذا يا أبتِ.

كانت المرَّة الأولى التي يبدو لي فيها صوت جَدِّي هشًّا، باحثًا عن ملاذ. نظرتُ إليه مقابل الضوء وكأنِّي أتحقَّق من قامته. ثمَّ التقطتُ أنفاسي من جديد، وخلف صورة جَدِّي، ارتفع برج الكنيسة شامخًا، هناك حيث تبدأ الطريق الرأسيَّة المفضية إلى قبَّة السماء. عند ذاك، بدا لي أنَّ التقرُّب إلى الرَّب يتطلَّب جهدًا كتسلُّق الجبال. فالدَّعوة إلى الكنيسة ليست دعوة إلى الدُّخول، وإنَّما إلى الصعود.

استغرقتُ ردحًا من الوقت حتى ألِفتُ إضاءة المكان. ثمَّ استسلمتُ شيئًا فشيئًا. لم تسبق لي رؤية بيت جدرانه عالية كجدران الكنيسة. أمَّا الصليب المُعلَّق على صدر أموروزو، فقد رأيتُ منه نسخةً أخرى في مركز البناء، مُضخَّمًا، فارضًا ملكه. وعلى خشبة الصليب، استقرّ ثاني الرجال البيض في هذا العالَم: رجل مُلتحٍ، شبه عارٍ، جسده يكتسي بالجروح.

أمرني أموروزو بقوله:

ـ اجثي بين يدي المسيح.

ـ يا أبتِ، إنَّها لا تستطيع. أنسيتَ سبب حضورها إلى هنا، إلى الإرساليَّة؟

ـ دعنا نساعدها. عليها أن تفعل.

ساندني الرجلان وقد أمسكا بذراعَيَّ ليتركاني بعدها. فتهاويتُ كما تتهاوى المنشفة المُندَّاة. وبقيتُ مُمدَّدة على الأرض الحجر، حيث رحتُ أتأمَّل من تلك الزاوية أموروزو والمسيح. كان الرجلان الأبيضان يشبه أحدهما الآخر، فكلاهما حزين ذاوٍ وكأنَّ الحياة تجري في مكان آخر دومًا، مكان عصيّ على البلوغ. فبينما يبدي المسيح جروحه، يرسل أموروزو نظرته المُترمِّلة، وكلاهما يدعواننا إلى أسرة المُعذَّبين الكبيرة، إلى تلك الأسرة التي لا يجد أفرادها القُرْبَ من الرَّب إلَّا في العذاب.

***

سأل الأبُ الكاهنُ:

ـ إذًا، هل اتَّخذتَ قرارك بشأن طفلتي؟

أثار ضمير المُلكيَّة سخط جَدِّي. «طفلتي»؟ فجاءت كلماته الغاضبة وهو خارج من الكنيسة كما يلي:

ـ ستظلُّ حفيدتي لي أنا دومًا، أتْرُكُها لبعض الوقت هنا، إلى أن تستردّ القدرة على السَّير وحسب.

ثمَّ تعهَّد جَدِّي مُشدِّدًا على كلماته:

ـ وسآتي بنفسي لآخذها، فنرجع معًا إلى بيتنا سيرًا على الأقدام.

بدا الكاهن البرتغاليّ وكأنَّه لم يسمع، إذ طفق يتأمَّل سقف الكنيسة مستغرقًا، وكأنَّه ينظر إلى ما ورائه. ظلَّ على تلك الحال، جامدًا بلا حراك، فلم يدرك أنَّ أدچيرو قد انصرف. كان يشعر بالرضى، ففي

منطقة أكثر سَكَّانها من المسلمين، قد تعود عليه معجزة كتلك بالمؤمنين والأرباح. ثمَّ إنَّه قال لي باسمًا:

ـ ما إن يموت جَدُّكِ العزيز حتى يذهب إلى السَّماء مباشرة.

ـ جَدِّي لن يموت أبدًا!

في نظري، كان أدچيرو كاپيتامورو يعيش حياة الأشجار، فهو يرتفع عاليًا في السماء، وإن ظلَّ ضاربًا في الأرض بجذوره.

***

على مدى العامَيْن اللذَيْن قضيتُهما في الإرساليَّة، كانت زيارات جَدِّي لي بمثابة شمس. في بعض الأحيان، كان يبقى مُطرِقًا، شاخصًا إلى الأفق؛ وفي أحيان أخرى، يحاول أن يعرف ما إذا كان الرَّب يعيرني انتباهًا. كان يسألني:

ـ كيف حال الأحرف؟

ـ أكتب طوال الوقت يا جَدِّي. أتودّ قراءة ما أكتب؟

ـ كلَّا يا بنيَّتي. تدرين ماذا يحدث لو أنِّي قرأت؟ لو قرأت لما عدتُ أرى العالَم. اقرئي لي قصَّة ملكة مصر.

كان ذلك هو نصّه الأثير الذي حفظتُه عن ظهر قلب. كان جَدِّي يغمض عينَيْه فيما أتلو عليه القصَّة، بالنَّبرة نفسها دومًا:

«يُحكَى أنَّ رَعْ، إله الشمس في مصر القديمة، لمَّا ضاق بآثام البشر، خلق الإلهة سخمت[1] من أجل عقاب أولئك الواجب عقابهم.

(1) سخمت: في مصر القديمة، كانت سخمت إلهة محاربة لها جسد امرأة ورأس لبؤة.

وهكذا فعلت الإلهة، بل ويُقال إنَّها أدَّت واجبها بهمَّة مفرطة، حتى كان أن طال انتقام سخمت الأبرياءَ أيضًا. فابتهل أتباع رَعْ إليه يائسين، طالبين عون الإله الذي لم يقدر على مدِّ يد العون. عند ذاك، خطر للمصريِّين أن يصنعوا شرابًا بلون الدمّ ويسقوا منه الإلهة حتى الثمالة. وهكذا، غفت سخمت فاستحضرها رعْ إليه مرَّة أخرى».

وبانتهاء السَّرد، كان جَدِّي يمكث مغمض العينَيْن، ثمَّ يقبِّل يدَيَّ قائلًا:

ـ إنَّكِ أنتِ إلهتي، وحفيدتي.

***

كان حضور أدچيرو الدائم في الإرساليَّة الكاثوليكيَّة يبثُّ الطمأنينة في نفسي، ولكنَّه يضاعف من غيابات أخرى. ذات مرَّة، تغلَّبتُ على خوفي:

ـ خبِّرني يا جَدِّي، هل غضب أبواي منِّي؟

ـ الأمر وما فيه أنَّ الحرب الآن مشتعلة بصفة مُستمرَّة. ولذا، فهما لا يزورانكِ. كلُّهم رحلوا، فلم يبقَ غيري وقلائل ممَّن هم على شاكلتي، من أولئك الذين لا يُحسَبون.

ـ ألا تخشى القتل؟

ـ بلغتُ من النُّحول درجةً لا تسمح بأن تدركني رصاصة واحدة.

في الواقع، كان دويُّ الرَّصاص والانفجارات يتعالى في الخارج. وكان يُطلَب إلى الكاهن أموروز إقامة الجنائز على وتيرة أسرع فأسرع، وفي أمكنة أبعد فأبعد. أمَّا أهل كولوماني، بمن فيهم أبواي، فقد انتقلوا

إلى پالما منذ شهور مضت. فلم يبقَ سوى أدچيرو وأخوته الخمسة، وهم على قناعة بأنَّ حياتهم في مأمن لأنَّهم شيوخ. ومع ذلك، لم يكُن عمرهم هو الذي أنقذهم. بل إنَّهم دفعوا ثمن الأمان. فكانوا يعطون الفرائس التي يصيدونها لجنود الجيشَيْن المتقاتلَيْن. كان أدچيرو يذكِّرني بقوله:

ـ هكذا هي الحال، ماريامار، إذا نشبت الحرب قُتِل الفقراء؛ وإذا عمَّ السلام قَضَى الفقراء.

***

ذات مرَّة، جاءت عشيرةُ كاپيتامورو إلى الكنيسة بأكبر الأخوة عمرًا. كان اسمه ڤيسينتي، وقد أتى جريحًا، نازفًا، يجرجر قدمَيْه الخائرتَيْن على الأرض. جاء ڤيسينتي محمولًا على الأذرع، ودخل إلى المكان المُقدَّس حيث لم يميِّز شبرًا واحدًا وسط الغَبَش السائد. كان أعمى، وعلى الرَّغم من ذلك فهو الذي أرشد إخوته إلى الطريق. كان يعرف الكنيسة كراحة يده، لأنَّه هو من شيَّد تلك الجدران التي آوته.

أجلسوه على دكَّة بالية من الخشب، وساندوه كتفًا إلى كتف. في حين دنا أدچيرو من الكاهن قائلًا بين وعيد ورجاء:

ـ هنا بيت الرَّب، حيث لا يمكن أن يموت أحد. هل سمعتَني جيِّدًا يا أبتِ أموروزو؟

ـ دعنا نصلِّ يا بنيْ، دعنا نصلِّ.

فشرع آل كاپيتامورو يبتهلون صارخين، كما لم يبتهل أحد قطُّ على نحو غير لائق كهذا، ماثلًا أمام المذبح. كان صياح الأخوة الذين جُنّ جنونهم يشيع الرّهبة في النفوس: فلتحذر الآلهة ما لم تتحقَّق المعجزة.

في البدء، كان لا يزال ممكنًا سماع غمغمة القريب الجريح؛ بَيْد أنَّه راح يطلب من الخالق نقيضَ ما يطلبه أخوته على وجه التحديد: أن يُسمح له بالرحيل، وهو الذي أدركه التعب من فرط الشقاء. ولكنْ ما جرى بعد ذاك دليل على أنَّ الرَّب لا ينصت لأولئك الأعلى صياحًا. إذ قضى ڤيسينتي كاپيتامورو نحبَه من دون أن ينتبه أحد، وقد تشابكت أصابعه التقيّة، واستند رأسه على ركبتَيْه.

كانت تلك الواقعة بمثابة صدمة تعرَّض لها إيمان أدچيرو، فأمسك عن حضور القدَّاس الإلهي من ذلك الحين؛ وصار يمكث على باب الكنيسة طالبًا إلى إخوته الدخول والصلاة نيابة عنه. أن يتظاهروا بأنَّهم هو نفسه، أن يستعيروا اسمه وروحه، ذلك ما كان يطلب إليهم.

ـ لن يدرك الرَّب.. فوجه الشَّبه بيننا قريب.

أمَّا الكاهن أموروزو، فقد تعامى عمَّا بدر منه، على مضض. خاب رجاه في مسلك أدچيرو كاپيتامورو. وعلى الرَّغم من ذلك، لم يستطِع الوقوف في وجه شخصيَّة على هذا القدر من الأهمِّيَّة في القرية. ما كان منه إلَّا أن ترك الزمن يجلب إليه الإلهام. فجلب الزمنُ السلام. وشيئًا فشيئًا، استردَّت كولوماني الحيويَّة التي بدا أنَّها فقدتها إلى الأبد. فالتأمت جروح التاريخ، وعاد التناغم المفقود. وجد مُبشِّرُ الإرسالية في موجة التصالح فرصةً مواتية، فاغتنمها طالبًا من أدچيرو لقاءه في باحة الكنيسة، ليُذكِّره بفروضه المُقدَّسة.

ـ غدًا، أرفع القدَّاس الإلهي على روح أخيك ڤيسينتي.

ـ سيِّدي العزيز، لن أحضر. مع كامل احترامي.

ـ ولمَ لن تحضر؟

ـ سأحضر الماتانغا، شعائر الجنازة التي نقيمها نحن من أجل الموتى.

ـ وكيف تبرِّر فعلتك أمام الرَّب؟

ـ سأبرِّر فعلتي أمام نونغو، ربَّنا نحن. مع كامل احترامي.

تعرَّض أدچيرو للانتقاد على مدى أعوام، لأنَّه تقرَّب من الإرساليَّة وتحوَّل إلى الكاثوليكيَّة، ليغدو بذلك من القاميسَّاو[1]، على حدّ قول أهل كولوماني. فاحتجَّ بقوله: إنَّ «الآخرين لهم طبولهم، وأنا لي كتابي المُقدَّس». في البدء، كان له غرض من ذلك التحوُّل الظاهريّ الذي أقدم عليه رغبةً منه في إعادة الطبول بين يدَي الرَّب، وجعل الكتاب المُقدَّس يرقص. ولذا، علَّم ماريامار فنون الرقص. أمَّا الآن، فلم تعُد له غاية واحدة.

أطلق الكاهن أموروزو سلسلةً من الحُجَج مستعينًا بالإلهام الإلهي. فقال إنَّ يد الرَّب كيد المرشد الأعمى الذي يريدنا أن نكون سادة الطرقات. ولكنَّ الطرقات تدوم بقدر ما تدوم الأنْجُم، إذ تقع أبصارنا عليها بعد أن تكون قد تلاشت ولم يعُد لها وجود منذ أمدٍ بعيد.

ـ إنْ هي إلَّا كلمات يا سيِّد أموروزو، وإلَّا فأيّ يد إلهيَّة تشير إلى الحرب؟

ـ لمَ تخاطبني بلقب «سيِّد»؟ لمَ لا تخاطبني بلقب «أبتِ» كما في سابق عهدك؟

ـ سيِّدي، إنَّك تعيش والأبواب مقفلة دونك. انظر إلى ما يجري بالخارج ترَ أنَّ الآلهة تلقى مصرعها في الحروب أحيانًا...

ـ كيف تجرؤ على مثل هذا الحديث وأنت في بيت الرَّب؟

---

(1) قاميسَّاو: تعني بلغة الماكوندي المحلِّيَّة «أصحاب الإرساليَّة» أو «أهل الإرساليَّة».

ـ أنا من شيَّد هذه الكنيسة. أنا وإخوتي. شرعنا في بنائها ونحن بعدُ من العبيد.

سكت هنيهةً، يتأمَّل الكلمات التي أزاحها عن صدره أخيرًا، في غير ألم، وكأنَّه وسط أصدقائه:

ـ كان يجب علينا الإطاحة بالكنيسة وإلقاء حطامها في النهر آنذاك.

ـ معاذ الرَّب!

وقف الكاهن على أطراف أصابعه، بصوت يرتجف من فرط التأثُّر، وكلُّ ما فيه يتنافى وهدوء جَدِّي:

ـ أدچيرو، هل أردتَ أن ترى معجزة؟ انظرْ إلى حفيدتك.

ثمَّ وجَّه إليَّ حديثه آمرًا:

ـ ماريامار، دعيه يرَ، دعيه يرَ...

فقمتُ وسرتُ نحو أدچيرو بساقَيْن مُتزعزتَيْن، ولكنْ بخطى ثابتة. لم تبدُ على جَدِّي المفاجأة.

ـ ها هي ذي ماريامار تسير. أنا في غاية السعادة. ولكنْ سؤالي لك يا سيِّدي وأبتِ كما يلي: هل علَّمتَها كيف تركل؟

ـ تركل؟ وهل ذلك شيء يليق بأن تتعلَّمه صبيَّة؟

ـ لذلك تحديدًا يا أبتِ. لأنَّها صبيَّة على وجه التَّحديد ينبغي لها أن تتعلَّم كيف تلكم، وتعضّ، وتركل...

ـ هذه كلمات لا تليق بمؤمن. هنا نعلِّم محبَّة القريب.

ـ إنَّ الأقربين هم أكثر من نحتاج إلى الدفاع عن أنفسنا في مواجهتهم.

ثمَّ هبّ واقفًا، وأخذ يحوم حولي قارعًا صدره كالطَّبل، وشرع يتمايل بذراعَيْه. كان جَدِّي يعرف أنَّ الكاهن يحظِّر علينا الرقص.

ـ أما زلتِ ترقصين، ماريامار؟ أريني أنَّكِ ما زلتِ قادرة على إثارة غبار الأرض.

ولكنَّ نظرات أموروزو اليقِظة لم تسمح لي بالرقص. خطوتُ خطوات مُتعثِّرة في القاعة، فرفع جَدِّي ذراعه مُعلِّقًا ذلك العرض الجدير بالشفقة، وهو لا يتوقَّع منِّي المزيد. وبنبرة جافة، أمرني بقوله:

ـ اذهبي واحزمي حقيبتكِ، فغدًا أحضر لآخذكِ معي.

في اليوم التالي، عاد بعربة يد. فذكَّرتُه بأنِّي قادرة على السير. فأشار إلى العربة البدائيَّة في حزم سائلًا:

ـ أتدرين ما اليوم يا بُنيَّتي؟

ـ اليوم؟

ـ اليوم تتمِّين سبعة عشر عامًا. ويحقُّ لكِ أن تُحمَلي.

فجبتُ القرية وأنا داخل العربة، تتناهى إلى سمْعي الصيحات المستميتة التي راح يطلقها مُبشِّر الإرساليَّة خلفنا:

ـ ها قد استردَّت ماريامار القدرة على السَّير، إنَّها معجزة إلهيَّة، إنَّها معجزة! أصبحت تسير على أكمل وجه، مع أنَّها في عربة اليد. تعالوا وانظروا، إنَّها معجزة!

وفي دهشة، أخذتُ أتلفَّتُ حولي. لم أكُن قد خرجتُ من مقرِّ الإرساليَّة منذ شهور. ألفيتُ كولوماني غريبة لا يتعرَّفها الناظر. فبانتهاء الحرب، عاد الناس إلى القرية، واستقرَّ المقام بأسرتي في بيتنا القديم مرَّة أخرى. فبدا عدد السكان مضاعفًا، وازدحمت الطريق الواصلة بين پالما وقريتنا بحشدٍ من الباعة.

في البيت، لم يحتفِ بعودتي إلَّا سيلينسيا. في حين رفعت أُمِّي وجهها بلا حماسة، وهي تنخل الأرزّ. فكنتُ أنا أوَّل المُتكلِّمين، بعد صمت طويل:

ـ يقول جَدِّي إنَّ اليوم عيد ميلادي.

ـ جَدُّكِ يخترع تقويمات سنويَّة، لذلك لم يمُت حتى الآن.

ـ أيًّا كان اليوم، فالعودة رائعة. العودة الآن وقد تحقَّق لنا السلام...

ومن دون أن تحوِّل عينَيْها عن المنخل، تذمَّرت آنيفا أسّولوا همسًا. هل أتحدَّث عن السَّلام؟ أيّ سلام؟ وقالت:

ـ ربَّما تحقَّق السَّلام لهم، للرجال. أمَّا النساء، فما زلنا نصحو كلّ نهار لخوض حرب قديمة لا تنتهي.

لم يكُن لدى آنيفا أسّولوا أدنى شكّ فيما يتعلَّق بأوضاع نساء كولوماني، إذ كنَّا نصحو فجرًا كجنود يغالبهم النُّعاس، فنقضي يومنا وكأنَّ الحياة تناصبنا العداء. حتى نرجع ليلًا، فلا نجد شيئًا ولا أحدًا يعزِّينا عن المعارك التي خضناها. أفضتْ أمِّي إليَّ بجملة من الشكاوى في نَفَسٍ واحد، وكأنَّه شيء تودّ البوْح به منذ أمد بعيد.

ـ ولذا، يا بنيَّتي، اتركي حديثكِ عن السَّلام في الإرساليَّة. فبينما كنتِ أنتِ هناك بقينا نحن هنا، نجاهد للنجاة بحياتنا.

راحت توجِّه إليَّ الاتهام، وكأنَّ الذَّنب يقع على عاتقي أنا، لا الذَّنب في عزلتها فحسب، بل وكذلك في تعاسة النساء جميعًا. قطعتُ الرُّواق بخطًى قصيرةٍ تليق بسجينةٍ في طريق العوْدة إلى الزنزانة.

يوميَّات الصيَّاد
(4)

طقوس وشراك

«أينما تسنَّى للبشر أن يكونوا آلهة، تسنَّى للحيوانات أن يكونوا بشرًا».

(من دفاتر الكاتب)

جاءت آنيفا تناديني، في ساعة مُتأخِّرة من ساعات اللَّيل، وقد استحوذ عليها الذُّعر حتى إنِّي انطلقت في إثرها وأنا لم أبدِّل ثيابي. كنت أضع قميصًا طويلًا يخفي الركبتَيْن، فبدوتُ كالشبح العاجز.

ـ ها قد وصلَت الأسُودُ إلى بيتي.

كانت الأسُود تحوم حول القرية منذ أرخى اللَّيل سدوله، فسمِعتْها آنيفا عن بُعْد. أعترفُ لها قائلًا:

ـ لم أسمع شيئًا.

لا يساورها الشكّ فيما سمعت. هنالك نحو ثلاثة أسُود قادمة صوب القرية. لن نسمع لها صوتًا مرَّة أخرى. فهي كلَّما اقتربت أمعنت في توخِّي الحَذَر. أحمل السلاح وأخرج إلى الباحة، أتحقَّق من العتمة والصمت. تأتي آنيفا في إثري. أمَّا الكاتب الذي انكمش على نفسه خوفًا، فيسير في نهاية الموكب. في لحظةٍ، نصل إلى باحة الزوجَيْن إمبيبيه. تهمس المرأة في مسمعي:

ـ سيِّدي الكاتب، لا تضئ الكشَّاف.

فيسأل غوستافو:

ـ وكيف أرى موطئ قدمي؟

فأمرهما قائلًا:

ـ اصمتا، كلاكما.. وأنتِ، أنيفا، نادي چِنتيو فورًا!

ـ إنَّه نائم.

وبغتة، تشير أنيفا إلى بضع شجيرات تهتزّ، وتحثّني على إطلاق النار:

ـ أطلقِ النار، إنَّها الأسُود! أطلقِ النار!

تتجمَّد سبَّابتي على الزِّناد. في هذه القوس المؤلَّفة من العظام والأعصاب يكمن قرار الآلهة: إطفاء الحياة في ومضة خاطفة. ولكنْ إصبعي تتردَّد مرتجفةً. فجاء ذلك التأخير بتدبير من العناية الإلهيَّة، إذ انبثق خيال من الغَبَش رافعًا يدَيْه وكأنَّه فزَّاعة مخمورة.

ـ لا تطلق النار، أنا چِنتيو!

كان مُقتصُّ الأثر قد ذهب لشراء العَرَق من القرية المجاورة. والآن، يرفع القنّينة دليلًا على صحَّة كلامه.

ـ أنيفا، إلى الداخل، الآن. تدرين أنّي لا أريد منكِ الخروج إلى هنا ليلًا!

يقول الكاتب مُبرِّرًا:

ـ حذَّرتنا زوجتك، ظنًّا منها بأنَّ الأسُود تجوب المكان.

ينظر مُقتصُّ الأثر إلى الدَّغل الذي خرج منه لتوّه. يهزُّ رأسه، ثمَّ يرفع القنّينة إلى فمه ويعبُّ منها جرعة سخيَّة. يتأكَّد من عودة المرأة

إلى البيت. يجلس على الأرض ويدعونا للشرب معه، فلا يقبل أيٌّ منَّا. نمكث مكاننا، ونراقب النجوم حتى يقطع جِنتيو الصمت:

ـ كانت آنيفا تعرف أنّي أنا. كانت تعرف أنّي أنا القادم.

فيقول غوستافو:

ـ لم أفهم.

ـ تدري ماذا جرى هنا؟ نُصِب لي شَرَك. آنيفا تريد قتلي.

ـ حسبك! أيُّ شططٍ هذا...

ـ تخالني قد اقترفت أمورًا مُروِّعة.

ـ أيَّ أمور؟

ـ أمور تخصّنا نحن. كما تعرفان، فهنا لا شرطة ولا حكومة، حتى الرَّب ذاته لا وجود له إلَّا في بعض الأحيان.

***

في البيت، أنزع الرصاص من خزانة البندقيَّة، وأضغط الزِّناد بإصبعي، مرارًا وتكرارًا. ما زلتُ أرجف رجفة مُتقطِّعة، وإن كانت استجابة جسدي سريعة بوجه عامّ. أستغرق طويلًا حتى أنام، كعهدي دومًا. أسترجع آخر مشهد رأيتُه في المصحَّة النفسيَّة، شاخصًا بعينَيَّ إلى سماء الحُجرة. لا يغيب عن ذاكرتي وداع رونالدو، ويداه الطويلتان تحومان في أرجاء الحُجرة في تحليق أعمى وقد نما لهما جناحان. أستغرق ردحًا من الوقت وأنا على تلك الحال. فاللَّيل لا ينتهي حتى يسكت البوم ـ كما يُقال في كولوماني. ففي غياب تلك الطيور، يصير اللَّيل بلا سقف. هناك من يطردون تلك الطيور المُتنبِّئة وهم لا يعلمون. ولذا، فنحن مدينون لطارديِّ البوم بمطلع الأيَّام الجديدة.

تُشكِّل يدا رونالدو أَرَقي كلّ ليلة، من وراء البُعْد.

***

في الصباح الباكر، يدلف المحافظ إلى بيتنا خلسة، على عجل، وكأنَّ الأسُود تلاحقه. ينظر إلى الشارع قبل أن يوصد الباب، ويمسح رأسه بمنشفة، ثمَّ يخرّ على أريكة من الجلد الصناعيّ الأسْود.

ـ لا يمكن أن تراني زوجتي هنا. كم هي صعبة المراس تلك المرأة!

يفسِّر لنا الرجل سبب الاستعجال. كان يخشى أن يتولَّد لدينا انطباع خاطئ عمَّا جرى في الشيتالا خلال اللِّقاء. ولكنَّ الشيء الذي تجلَّى هناك هو الحسد. سرطان مجتمعنا، على حدّ قوله. السرطان الذي أدَّى إلى عزل واحد من معاونيه في المحافظة مُؤخَّرًا. باختصار، فقد انتهت مسيرة خبير قديم من كوادر الحزب يُدعَى سيماو موپاتا.

ـ ألا ترغبان في تشغيل المروحة؟ أصدرتُ تعليماتي بتشغيل المُولِّد الكهربائيّ، فقد أرسلتِ الشركة المزيد من الوقود...

يصوِّب نحونا مروحة صاخبة. أخذتُ والكاتب نتبادل النظرات الجانبيَّة لبعض الوقت، صامتَيْن، نترقَّب أن يلتقط المحافظ أنفاسه. يعاود الحديث مُجدَّدًا، فيشرح لنا أنَّ أهالي القرية قد ادَّعوا معرفة المُتسبِّب في تلك الوقائع المؤسفة قبل وصولنا.

ـ ألقوا باللَّائمة على سيماو موپاتا في اللَّعنة التي أحاقت بهم.

سَرَت في القرية شائعة تزعم أنَّ أسرة موپاتا تملك قدرات خفيَّة، وقيل إنَّ الأسُود تُصنَع في بيت سيماو. فلم يُجدِ الإيضاح نفعًا، وعبثًا أوفدت السلطات الإقليميَّة لجنة تقصِّي الحقائق. فما كان من موپاتا إلّا

أنَّ فتح بيته مُبديًا كلّ ما فيه من خصوصيَّة للعيان حتى يثبت براءته. مشَّطوا مسكنه، وباحته، ومقرّ عمله. فلم يعثروا على أي مينتيلا، ولا شيء من تلك المواد المُستخدَمة في صناعة الأسُود. وعلى الرَّغم من ذلك، فقد صدر الحكم في حقّه بأنَّه هو صانع الأسُود.

أراد الكاتب أن يعرف:

ـ وممَّ تتكوَّن تلك المينتيلا؟

قديمًا، كان إعداد المينتيلا مقتصرًا على الجذور والعظام ولحاء الأشجار. أما الآن، فأعمال السّحر تشتمل على بعض مُخلَّفات الحداثة الحضرية، مثال حمض بطَّاريَّات السيَّارات، وهياكل الهواتف المحمولة القديمة، ومفاتيح الكمبيوتر.

فيصرُّ غوستافو:

ـ لا بدَّ أنَّ لكل هذا الارتياب سببًا.

كان ارتياب أهالي القرية يرتكز على أساس واحد فحسب: الممتلكات التي يكنزها آل موياتا. كانت ممتلكات المُوظَّف المذكور في رأي أيٍّ واحد منَّا هزيلة، وتكاد تكون معدومة. فهي لم تزِد على أعواد قليلة من قصب السكر، وبضع أشجار موز، وإنبيق[1] تستعين بنات المُوظَّف به لتقطير شراب الليبا. أمَّا في نظر أهل القرية، فهي ثروة هائلة ليس لها ما يفسّرها. في مكان لا يُسمَح فيه لأحدٍ بأن يكون أحدًا، لفت سيماو موياتا الأنظار إلى نفسه، ما أثار حفيظة الجوار. والجوار كالدواء، فهو نافع جدًّا، ولكنَّه لا يُستخدَم إلَّا في حالة المرض. تعرَّض سيماو

(1) الإنبيق: آلة لتقطير السوائل.

للضَّرْب، وتلقَّى تهديدًا بالقتل، مُتَّهَمًا بـ«صناعة» الأسُود. فما كان منه إلَّا أن اختفى وأسرته على الطريق في اليوم التالي.

❋ ❋ ❋

بحلول نهاية المساء، تحضر نافتاليندا ماكوالا لمقابلتنا وتحذيرنا من شيء يختمر في القرية. تطلب إلينا توخِّي اليقظة، وتنهانا عن الخروج من البيت أو الظهور على الملأ. فعلينا رصد ما يجري حولنا من دون أن يرانا أحد.

ـ لو خرجتما ستعرِّضان نفسَيْكما لخطر القتل!

يضطرب الكاتب، ويزيح السِّتار عن النافذة سائلًا:

ـ ماذا يجري؟

ـ أيُّها الكاتب غوستافو! تنحَّ جانبًا! لا يمكنك أن تشاهد ما يجري.

تناديني السيِّدة الأولى إلى أحد الأركان وتقف أمامي، ملصقةً عجيزتها الضخمة بجسدي. من تلك النافذة، سوف نراقب الساحة الواقعة أمامنا. قالت لي:

ـ إنَّ الرجال على وشك الوصول. ابقَ هنا، على مقربة منِّي.

الكويولا ليو على وشك البدء، أي الطقوس التي تسبق الصَّيْد الجماعيّ. ولذا تُهيَّأ الساحة لاستقبال عشرين ونيف من الرجال من المزمع أن ينطلقوا في إثر الأسُود فجرًا. كم كنتُ أودُّ الحضور، من لي بالمشاركة في تلك الطقوس! نافتاليندا تتفهَّم شعوري بالإحباط:

ـ إنَّك تشبهني، أنا المرأة، فكلانا مُستبعَد. دعنا نبقَ في رفقة أحدنا الآخر. ألسنا بخير هنا، في الظلّ؟

ظلّ؟ الظلام يسود البيت. وفي الخارج تخبو بقايا النهار الأخيرة. أُقيمَت الطقوس بصفة طارئة، إذ يودّ شيوخ العائلات أن يطردوا التهديد الذي خيَّم على القرية بأنفسهم، لأنَّهم هم أصحاب الأرض. يرفضون تتويجي بإكليل النصر في هذه المعركة ضدّ القوى العاتية الخفيَّة، وأنا الغريب عنهم.

اجتمع رجال كولوماني وآخرون من قرى مجاورة. فجاء كلٌّ منهم بقوس، أو بندقيَّة، أو سيف، أو شبكة؛ وتزوَّدوا بالمياه والأطعمة التي حملوها في الزمزميَّات والحقائب.

يتحلَّقون حول الشيتالا، حيث لم تظهر راية واحدة بهذه المناسبة، ولا ظهر التدرُّج في المكانة فيما بينهم. يزجرون الكلاب التي بدأت تثيرها الحركة. ثمَّة شاب يودّ الانضمام إلى الجمع، إلَّا أنَّه يُستبعَد في الحال. فهو لم يخضع لشعائر البلوغ بعد. رويدًا رويدًا، يبدأون في الترنُّم بالأناشيد والرقص بخطوات خجلى، كما لو كان مايسترو خفيٌّ يوجِّه الطقوس. لا يقدر جسد نافتاليندا على المقاومة، فتبدأ في هزِّ عجيزتها، وتلتصق بي أكثر فأكثر. وإذا بدوار يفقدني توازني. ماذا لو وجدني المحافظ وأنا أراقص زوجته هذه الرقصة الفاترة؟ وبغتة، يصيح أحد الراقصين:

ـ توكي كولومبا!

إنَّها الصيحة الحماسيَّة. وعند ذاك، يشرع الرجال في ضرب الأرض بأقدامهم ضربًا موزونًا، وكأنَّهم مدفوعون بموجة خفيَّة، فتلفّ أجسادهم سحابةٌ من الغبار. تهمس لي السيِّدة الأولى، ووجهها لصق وجهي:

ـ ها قد ثار الغبار!

وتردف قائلةً:

ـ والآن لا يخامرني شعور سوى الغضب، لا أستطيع الاستمرار في مشاهدة هذا العرض.

تنصرف إلى القسم الخلفيّ من البيت حيث تنضمّ إلى آنيفا التي تعدّ الطعام.

***

المحافظ ماكوالا يجتاز الساحة فجأة. يأتي برفقة الشرطيّ. يمضي صارخًا وهو ينفض الغبار:

ـ ماذا يجري هنا؟ أهي مظاهرة؟ هل أُسْتُخْرِجَت التصريحات اللّازمة لتنظيمها؟

أغتنمُ فرصة غياب السيدة الأولى، فأولّي هاربًا من البيت خلسة، لأعصى التعليمات الصارمة المُوجَّهة إلينا بالتخفّي وتوخّي الحذر. يمضي الكاتب في إثري، والكاميرا في حزامه. ننضمُّ إلى فلوريندو ماكوالا في منتصف الساحة. يعلّق القرويّون طقوسهم، وفي صمت يراقبوننا بعداوة. يتجلّى في نظراتهم أنّنا دخلاء، نفسد عليهم اللّحظة. يدرك الكاتب من فوره أنَّ التقاط الصور ضرب من المحال. وتكفي كلمة واحدة بلغة الماكوندي للتّقليل من شأن المحافظ، وهو العاجز عن طرح المزيد من الأسئلة.

يفترق أحد الصيّادين عن الجمع، ويدنو منّي ليلتقط رصاصة من عبوة الخرطوش المُثبَّتة في حزامي. يتفحَّص المقذوف وهو يقلّبه بين أصابعه، ثمَّ يسألني:

ـ أتعرف من صنعها؟

ـ من صنع الرصاصة؟

ـ أجل.

ـ ذلك شيء تتعذَّر معرفته...

يبتسم الرجل في تعالٍ. ثم يشهر رمحًا إلى مستوى الوجه شاخصًا إلى عينيّ، ثمَّ يقول معلنًا:

ـ أمَّا أنا، فأعرف من صَنَع سلاحي.

وبعد ذلك، يدور حول نفسه بحركات أكروباتيَّة، ليمسَّ الأرض بأطراف أصابعه مع كلّ دورة. ثمَّ يلتقط حجرًا بحجم قبضة اليد، ويشهره مُتحدِّيًا المحافظ ماكوالا هذه المرَّة. يحدِّثه بلغة الماكوندي. فيترجم لي الشرطيُّ حديثه:

ـ لكم أن تبيعوا كلّ هذا، السماء، والأرض، والمياه. لكم أن تبيعونا نحن. أمَّا الأرواح فلا تعرف لغة المال.

يتبع قوله بمزيد من القفزات، ثمَّ يعود إلى الخطابة:

ـ بين جميع أحجار العالَم، حجرٌ غير أرضيّ، ألا وهو الحجر الطائر.

وإذا هو يرمي الحجر في الهواء بكلّ ما أوتي من قوَّة، حتى إنَّ الحجر يغيب فيما وراء قمم الأشجار. كما يعرف الجميع، فالحجر لن يسقط على الأرض مرَّة أخرى. وإنَّما سيتحوَّل إلى طائر ويرشد القرويِّين في بحثهم عن الطريدة. بعد هنيهة، يبدأ الرقصُ مرَّة أخرى. فيقول الشرطيّ مُحذِّرًا:

ـ لستُ أدري ما إذا كان الأمر يستحقّ أن نبقى هنا...

يبدأ الرجال في التجرُّد من ثيابهم. ويُراق على أجسادهم العارية منقوع من لحاء الأشجار، من شأنه أن يُكْسِبَهم مناعة ضدّ الحوادث بصنوفها.

أختلس النظر إلى القسم الخلفيّ من البيت، فأجد آنيفا وقد أولتني ظهرها وعكفت على إطفاء نار المطبخ. لا يجوز أن تبقى النار مضرمة في أثناء طقوس الاغتسال. فلا تعاود آنيفا وباقي نساء القرية إضرام النار إلّا بعد التطهُّر.

يرقص الرجال لبعض الوقت، وخلال الوثب والدوران يفقدون رشدهم، وسرعان ما ينطلقون في الزمجرة والدمدمة حتى يسيل الرّيق والزَّبَد على ذقونهم. وحينها، أُدرك أنَّ أولئك الصيَّادين ما عادوا بشرًا، وإنَّما هم أسُود. فأولئك البشر هم أنفسهم الحيوانات التي يسعون إلى صيدها. وما تلك الساحة إلّا دليل على أنَّ الصَّيْد سِحْر، آخر صنوف السِّحر المُصرَّح بها.

أخيرًا، يرحل الرجال في صمت، مطرقين وكأنَّهم عناصر في تشكيل عسكريّ. إنَّهم بصدد تمشيط الدَّغل بدقَّة متناهية وهم على تلك الحال، على مدى أيَّام لن يطلبوا خلالها طعامًا ولا شرابًا ولا ملاذًا. الآن، تسود كولوماني سكينة عجيبة، وتُضرَم النيران مرَّة أخرى داخل الأكواخ، واحدًا تلو الآخر.

* * *

يقول الكاتب مُعقِّبًا في نشوة:

ـ استعراض لا يُنسَى! عرض أرضيّ، كم يؤسفني ألّا أتمكَّن من التقاط صور!

فتسأله نافتاليندا بابتسامة مبهمة، تكاد تكون كسيرة:

ـ هل راق لك؟

ثمَّ تعاود سؤاله:

ـ كم من الرجال شاركوا في الطقوس؟

ـ نحو عشرين.

ـ كان الآخرون اثني عشر.

ـ الآخرون؟ أيَّ آخرون؟

ـ أولئك الذين قتلوا تاندي، خادمتي. كانوا اثني عشر. بعضهم كان هنا يرقص أمام أعينكم.

ـ قتلوها؟

ـ قتلوا روحها، فلم يبقَ منها إلَّا جسد. جسد جريح، بقايا بشر.

روت ما جرى للخادمة. كانت قد مرَّت سهوًا عَبْر الإمقيرا، أي المُخيَّم الذي فيه تُقام شعائر البلوغ للفتيان. المكان مُقدَّس ومحظور صراحةً على النساء. ولمَّا عصت تاندي القاعدة، فقد وقع عليها العقاب: اعتدى عليها الرجال جميعًا، واستغلّوها جميعًا. حُمِلت الفتاة إلى الوحدة الصحِّيَّة المحلِّيَّة، فلم يقبل المُمرِّض علاجها خشية الانتقام. وتلقَّت سلطات المقاطعة شكوى، فلم تحرِّك ساكنًا. من في قرية كولوماني يجرؤ على الوقوف في وجه التقاليد؟!

ـ لزم زوجي الصمت. لم يحرِّك ساكنًا ولا حتى لمَّا توعَّدتُه...

لستُ أدري بما أجيب. تنهض دونا نافتاليندا وتتطلَّع إلى الطريق التي سلكها الصيَّادون، ثمَّ تهمس وهي لا تكفُّ عن إذكاء النيران:

ـ لستُ أدري عمَّا يفتِّشون في الدَّغل. فالأسد هنا داخل القرية.

***

يعرِّج المحافظ على بيتنا ليلًا. يبدو مضطربًا. شيء ما أفزعه في الطقوس التي أقامها الصيَّادون. ويريد تنظيم بعثة صيد فورًا. يحثّنا على استباق المُخطَّط ليكون قتل الأسُود من نصيبنا.

ـ لا يمكن أن يتفوَّق علينا أولئك القوم، أولئك التقليديُّون.

يترقَّب فلوريندو ماكوالا تصريحًا من جانبي، عهدًا أقطعه له على وجه السرعة. ولكنِّي لا أتَّخذ قراري حتى يغادر. على ضوء مصباح الزيت المرتجف، أتفحَّص مُعدَّاتي؛ بينما يتولَّى الكاتب أمر السيَّارة والوقود والمصابيح بطلب منِّي. ألقي تعليماتي إلى غوستافو باقتضاب، في نبرة شبه عسكريَّة. وعندما يستلقي كلٌّ منَّا على فراشه، أفسِّر له ما يجري في محاولة منِّي لتصحيح أوامري الاستبداديَّة:

ـ ينبغي لنا التوصُّل إلى حلٍّ سريع لما يجري. لا تروقني الأجواء المُخيِّمة.

***

في الصباح الباكر، وضوء الفجر ما زال ينبلج، أقود السيَّارة مُتتبِّعًا رسم الدروب. يسأل الكاتب خائفًا:

ـ لماذا لا نأخذ مُقتصَّ الأثر معنا؟

ـ لقد شرب چِنتيو. فضلًا عن ذلك، فأنا أريد منكما تكوين فكرة عن طبيعة المكان. فهذه بعثة استكشافيَّة.

يعاود غوستافو السؤال:

ـ هل سنتمكَّن من العودة؟

استقرّ المحافظ في المقعد الخلفيّ، لا يساوره أدنى شكّ في الأمر. سنعود بلا عناء. فهو يعرف المناطق المحيطة بالقرية، على الرَّغم من أنَّه ليس من كولوماني. كانت زوجته نافتاليندا تتّهمه بأنَّه يحكم من خلف أبواب المحافظة المقفلة دونه. ولكنَّه اتّهام عارٍ من الحقيقة.

أكاد لا أنصت إلى ما يُقال، وقد انصرفتُ إلى تقصِّي الآثار.

ـ كانت آنيفا على حقّ، فالأسُود قد مرَّت من هنا.

بعد كيلومترات قلائل، نبلغ واحدة من تلك الأراضي الجرداء المفتوحة لمراقبة الحقول. وفي منتصف الأرض تقوم شجرة وارفة، حيث نجد شابَّيْن يكادان يكونان عاريَيْن، وقد شُدّ وثاقهما إلى الجذع الضخم، وبدت عليهما آثار الاعتداء. نوقف السيَّارة ونترجَّل منها للتحقُّق ممَّا يجري هناك. يسأل فلوريندو ماكوالا بالبرتغاليَّة:

ـ ماذا يجري؟

ينظر إلينا الشابَّان وكأنَّ الحديث محظور عليهما. يحاول المحافظ مرَّة أخرى، بلغة الماكوندي هذه المرَّة. ولكن عبثًا. إذ يلزم الشابَّان الصمت. فيصرّ فلوريندو بأناة. يجيبه الشابَّان بإيماءات من رأسَيْهما، وإن لم ينبسا بكلمة واحدة. فيوجِّه ماكوالا حديثه إلينا، وقد خلص إلى ما يلي:

ـ اتُّهِم هذان التعيسان بأنَّهما من صانعي الأسُود. فشدّ الصيَّادون وثاقهما حين مرُّوا من هنا ليلة أمس، على أن يقيموا العدل في وقت لاحق، لدى عودتهم.

نحلُّ معصمَيْهما، فيظلّ الفتيان جامدَيْن، وقد التصقا بجذع الشجرة. نحثّهما على الذَّهاب قائلين:

ـ لكما أن تذهبا.

فيسأل أحدهما أخيرًا:

ـ إلى أين؟

ـ إلى أيّ مكان ترغبان في الذَّهاب إليه، فأنتما حُرَّان.

بَيْد أنَّهما لا يحرِّكان ساكنًا. يبدو لي وكأنَّهما قد اتَّحدا بمادَّة الشجرة. نغادر والمُتَّهمان جامدان في ظلِّ الخوف. هناك يبقيان في انتظار عودة الجلَّادين.

***

أستأنف القيادة عَبْر دروب يكسوها العشب. يتراءى لي أنِّي أسافر على متن قارب، وسط أمواج خضر تتلاطم حتى حدود الأفق. تمضي السيَّارة الچيپ بمنتهى البطء حتى إنَّنا كنَّا سنتحرَّك بسرعة أكبر لو سرنا على الأقدام.

على قمَّة إحدى التلال، أوقفُ السيَّارة، وأنزعُ القبَّعة عن رأسي متظاهرًا بالتأمُّل في السماء. فيسألني غوستافو خائفًا:

ـ هل تهنا؟

ـ لا يأس من التيه. فالتيه يعني أنَّ الطرقات لم تزل هناك. أمَّا الشيء الخطير ألَّا يعود للطرقات وجود.

ـ أما زال في وسعك العثور على الطرقات؟

ـ إنَّ الطرقات هي التي تعثر علينا هنا، في الدَّغل.

أسمع ضحكة فلورِيندو ماكوالا الرنَّانة آتية من الخلف. وعلى سحنة الكاتب ينطبع الشعور بالإهانة. فكلُّ كلمة، كلُّ صمت، بمثابة اتِّهام مُوجَّه إليه، وهو ابن الحَضَر الذي لا يعرف حتى كيف يتعامل مع الأرض التي يخطو فوقها. الحقيقة واحدة ليس إلَّا: ففي ذلك الكون يحتاج إليَّ غوستافو بصفتي مُعلِّمًا، وإن يكُن لمُجرَّد السير.

***

عدنا إلى السيَّارة والشمس في أوجها، والقيظ يلقي السَّراب على الأرض المعشوشبة. يمزح فلوريندو قائلًا:

ـ تنقصنا كأس من الويسكي المُثلَّج.

يتبادلان دعابات تفتقر إلى الذائقة. وفجأة، آمرهما بالصمت. أتظاهر بالإنصات إلى شيء لم ينتبها إليه. النبرة الخطيرة تبثُّ الذُّعر في نفسَيْهما:

ـ إلزما مكانكما، ولا تترجَّلا من السيَّارة تحت أيَّة ظروف. هل سمعتما؟

أربض على الأرض، وسلاحي مُعدٌّ للإطلاق، متظاهرًا بأنِّي أختار الرُّقعة الأكثر هدوءًا. ورويدًا رويدًا، أغيب وسط الشجيرات. ثمَّ لا يُسمَع شيء سوى الصمت، وإذا بعزلة رهيبة تغشى هذَيْن اللذَيْن يترقَّبان عودتي في السيَّارة، وقد شلَّ الخوف أطرافهما. أنصتُ إليهما وهما يتحدَّثان بصوت خفيض. يسأل فلوريندو:

ـ تراه يستغرق وقتًا أطول؟

وفجأة، ينقطع ذلك الحديث الذي لا نفع يُرجَى منه إلَّا صرف الذِّهن عن التوجُّس حين أتَّخذ قراري بإطلاق النار في الهواء. ولإشاعة المزيد من الخوف في نفسيْهما، أقتحم المشهد وثبًا وعدْوًا وسط الشجيرات، صارخًا فيهما لنهرب من هنا. يقفز الكاتب إلى مقود السيَّارة، وفي الحال، ينطلق الجيپ بسرعة مذهلة. يسألني الكاتب مرتعدًا:

ـ ماذا جرى، أركانچو؟

ـ لا يمكنني أن أحكي.

يلزم المحافظُ الصمت. ما دمتُ لا أستطيع الإفصاح عن سبب الخوف الذي تملَّك منِّي، فما جرى لتوِّه شيءٌ يعجز العقل البشريّ عن إدراكه. نصل إلى القرية، فأنصرف من دون كلمة واحدة. ومن الحجرة، أسمع حديث فلوريندو وغوستاڤو:

ـ سحقًا، ماذا جرى؟

ـ وكيف لي أن أعرف؟

ـ ها قد بدأتُ أعاني من معقّدات أولئك المساكين. لعلَّه رأى شيئًا من هذا القبيل...

ـ من هذا القبيل؟...

ـ أجل، كالأفعى العرجاء على سبيل المثل.

كان المحافظ أكثر وضوحًا: في القرية أفعى تجوب صمتَ السُّقوف وبُعْدَ الطرقات، كائن سامّ يسعى مُفتِّشًا عن السُّعداء كي يلدغهم وينفث فيهم سُمَّه من دون أن يدركوا شيئًا على الإطلاق. ولهذا السَّبب، يعاني الكلُّ من التعاسة نفسها في كولوماني. الكلُّ يشعر بالخوف، الخوف من الحياة، الخوف من الحبّ، بل وحتى الخوف من الأصدقاء. أمَّا ذلك المسخ، فالبعض يسمِّيه «الشيطان»، والبعض الآخر يسمِّيه «الشيتاني»[1]. بَيْد أنَّ الغالبية العظمى تسمِّيه «الأفعى العرجاء». يقاطع الكاتب ذلك السرد الطويل:

ـ معذرة، سيِّدي المحافظ، فما تلك الأفعى سوانا نحن، وفق ما أرى.

---

(1) طبقًا لمعتقدات جماعة الماكوندي، فإنَّ «الشيتاني» روح شرّير يتجسَّد في مختلف الصور.

ما روَتْه ماريامار
(5)

عينان من عسل

«أقوى من زئير الأسد، همسة فتاة جميلة».

(مثل عربيّ)

لي عينان من عسل. وهما اللّتان أوقعتا أركانچو باليرو في الأسر لمَّا زارنا لأوَّل مرَّة منذ ستة عشر عامًا. وجدني الصيَّاد على حافَّة الطريق فخلَّصني ـ وهو لا يدري ـ من بطش ماليكيتو پروپريو، الشرطيّ. سبق أن تطرَّقتُ إلى تلك الواقعة، ولكنّي لم أذكر أنَّ أركانچو عاد إليَّ بعد أيَّام بعهود ودعوات. فقال إنَّه سوف يأخذني إلى المدينة، وإنَّنا سوف نبلغ من السعادة حدَّ فقدان الذاكرة ونسيان كلّ ما عشناه من ذي قبل. أصرَّ الصيَّاد بقوله:

ـ تعالي معي، ولسوف نسعد معًا.

فأبيتُ مذعورةً، لأنَّ وعوده لي فاقت ما يسعني الحلم به. تلفتُّ حولي كي أعرف ما إذا كان هناك من ينصت إلينا. كنَّا نتحدَّث في المطبخ، أكثر مكان تنسى فيه المرأة أن تعيش. نظرتُ إلى النار المضرمة على الدوام، إلى الحطب المُكدَّس، والقدور المُتراصَّة رأسًا على عقب. رحتُ أراقب كلّ ذلك وكأنَّه لم يكُن من صنع أحد، وكأنَّ الجمر لا يُلتقَط من مطبخنا لإضرام نار أخرى في بيت جار لنا، وكأنَّها لم تكُن الأيدي الأنثويَّة هي التي تذكي تلك النيران إلى الأبد.

ـ ماريامار، ألا تقولين شيئًا؟

الإنصات في حدّ ذاته حديث. مضى الصيَّاد يحدِّثني عن أمور لا أعرفها: المدينة، السعادة، الحبّ. ما أحسن موقع حديثه من نفسي، وكم آلمتني كلماته! وعلى الرَّغم من كلّ شيء، فلم ألبِّ دعوته، لأنَّ الحبّ والسَّعادة يشبهان أحدهما الآخر. فلا السَّعادة محاولة، ولا الحبّ قرار. إمَّا يكون المرء سعيدًا وإمَّا لا يكون. إمَّا يحبّ وإمَّا لا يحبّ.

ـ لسوف نسعد معًا، ماريامار.

ـ من قال لك إنِّي أريد السعادة؟

فتأمَّلني وكأنِّي أتحدَّث بلغة لا يفهمها.

***

كانت ليلة مفعمة بالرقص والطبول. في البدء، رحتُ أترقَّب جامدةً بلا حراك. أرى الآخرين يتمايلون بأجسادهم في حسِّيّة، والأرض ترجف كما لو كان الطبل يقرع في الأعماق. كبحتُ جماح نفسي حتى أمسكت النيران في قدمَيَّ. فاستسلمتُ لإيقاع الموسيقى شيئًا فشيئًا حتى أخلِّص نفسي من النيران، ورحتُ أدور في الباحة التي غمرها نور القمر. ولمَّا رآني أركانچو أرقص، دنا منِّي وجذبني من خصري في دعوة لأدور معه.

ـ اتركني أيُّها الصيَّاد، فهنا لا يتلامس الراقصون.

ـ لا أريد أن أعرف، فأنا أرقص بالطريقة التي أتقنها.

تذكَّرتُ ما يردِّده رجال كولوماني: لا أحد يصيد برفقة الآخرين. إذًا، فالرَّقص كالصَّيْد، حيث يفرض كلّ راقص حكمه على الكوْن بأسره. رحتُ أدور حول ذاتي، قبل مواجهته:

ـ لستُ أرقص معك. بل أرقص من أجلك. ابقَ جالسًا وانظرْ كيف أصير ملكة.

أذعن إليَّ الصيَّاد، خاضعًا. في حين لم يعُد الواقع يذعن إليَّ. فرأيتُ نفسي أرقص عارية في الباحة، وأتقلَّب على الأرض، وأتخلَّى عن سلوك البشر شيئًا فشيئًا. أمَّا أركانچو، فقد خرَّ على الأرض خاشعًا، من دون أن تصدر عنه كلمة واحدة، أو لفتة واحدة. ولمَّا رأيتُه على تلك الحال، هشَّا، أعزل، شعرتُ بأنوثتي أكثر من ذي قبل. وهمستُ بعذب الكلام في سمعه، فذاب في حضني. لم ندرك حتى أنَّ النار قد خبت، إذ اتَّقدت نار أخرى في داخلنا. مكتبة ياسين

وفيما رحتُ أرتدي ثيابي، أخبرتُه بما ترقَّبه طويلًا:

ـ عرِّج عليَّ غدًا في الصباح الباكر. سأهرب معك.

ـ سآتي، أجل. قبل أن يصحو أهل القرية، سأعرِّج عليكِ.

ليلتها، راودني كلُّ ما قد يراود المرء من أحلام. فمكثتُ عند باب حجرتي حتى مطلع الفجر، أعانق الحقيبة بذراعَيَّ. في تلك الحقيبة أودعتُ مستقبلي. في تلك الحقيبة استقرَّت أحلام يقظتي وآمالي جميعًا، وراحت تنتظرني، مطويَّةً ومُرتَّبةً كالثياب.

***

لم أتمكَّن من فضّ الحقيبة قطّ. فالصيَّاد لم يعرِّج عليَّ صبيحةَ اليوم التالي. لعلَّها سهوة، هكذا قلتُ في نفسي لتخفيف الآلام. زلَّة يسيرة يصلحها أركانچو لاحقًا، فيعود إلى كولوماني، حيث تركتُ حقيبة السفر بلا مساس، لتهوِّن عليَّ الانتظار.

وشيئًا فشيئًا، كمن يموت بلا مرض، استسلمتُ أمام وضوح الأمر: أركانچو هجرني. فأخذت أحلامي تتحوَّل إلى كوابيس مكرورة، واحدًا تلو الآخر، وأصوات مبهمة تنبثق من جوف السبات. فتقول:

ـ دومبي! دومبي!

هكذا راحوا يصرخون بعيدًا، فيما وراء الضباب، ظنًّا منهم بأنَّنا كائنات من ذوي البشرة البيضاء. السَّبب الذي جعلهم يطلقون علينا دومبي، الذي يعني سمكًا. وهو نفسه الاسم الذي أُطلِق على البرتغاليِّين منذ رست سفنهم هنا قبل قرون، لأنَّهم قد جنحوا على الشطآن، وجاؤوا من الأفق السَّائل، فلا بدَّ أن يكونوا من مواليد المحيط. المحيط الذي منه أتى كلانا، أركانچو وأنا.

بدا الصيَّاد مستسلمًا، وقد ارتمى إلى جواري، غائبًا عن الوعي. كان ذلك هو الكابوس الذي يداهمني، حيث غرقتُ وأركانچو في مياه الشاطئ، ونحن نحاول الهرب على متن قارب، في اتِّجاه النهر، فجرفنا التيَّار إلى ما وراء مصبِّ النهر وتركنا على مَلْطَم الأمواج[1]، وسط حطام متناثرة على الرِّمال.

وإذا بظلال تنبثق من كثبان الرِّمال، وخيالات مُتَّقدة تهرع صوبنا. دار في خَلَدي أنَّها جاءت لإنقاذنا. ولكنَّهم مالوا علينا، فوجدتُهم يسرقون ثيابنا وحوائجنا. تعالى صوت القطيع الحانق على وقع هتافات التشجيع الموزونة:

ـ دومبي! دومبي!

(1) المَلْطَم: موضع تكسُّر أمواج البحر.

بينما رحتُ أتوسَّل إليهم باكية:

ـ لا تقتلونا، أتوسَّل إليكم، لا تقتلونا.

ـ أنتما من الأسماك، وسننزع أحشاءكما.

ـ أنا إنسانة.. سوداء البشرة، أنظروا إليّ!

عند ذاك، تأكَّدت لي عبثية الموقف. كيف لأحد أن يقدِّم دليلًا على عِرْقِه؟ أردتُ الحديث بلغة الماكوندي، فلم تتبادر إلى ذهني كلمة واحدة. ومرَّة أخرى، عادت الهتافات الموزونة، وكأنَّها طقوس الإعدام. وفجأة، انبثقت رؤيا من عمق الضباب. وإذا هو جِنتيو إمپيپيه، قابضًا على الساطور، يقود الجمع الذي راح يعوي:

ـ دومبي! دومبي!

كانت تلك هي النهاية: أبي يتأهَّب لضرب حبيبي بالساطور، وأركانچو إلى جواري خائر القوى، غافل عن الخطر الوشيك. يشقُّ الساطور الهواء، سريعًا كوميض البرق، بَيْد أنَّه لا يدرك الضحيَّة. فعلى غير المُتوقَّع، يذوب جسد الصيَّاد وينساب في سيولة، موجة إثر موجة، حتى يصير بحرًا، لا أكثر من بحر. فينجو أركانچو في اللَّحظة الأخيرة وقد استحال بحرًا. في الحلم، أستسلم أنا الأخرى لذلك الهجران الأخير، فألحق بمصير معشوقي. ما دام لم يأتِ لنجدتي أحدٌ، فلقد آثرتُ الذوبان في مادة أخرى.

أفصح لي ذلك الحلم عن نيَّتي التي أضمرها، إذ كنت أرغب في الموت غرقًا. لم أرغب في شيء بالقَدْر نفسه قطُّ. فالموت غرقًا في المياه عودة؛ وذلك ما شعرتُ به حين رأيتُ البحر لأوَّل مرَّة: حنين إلى الرَّحم الذي إليه أعود في تلك اللَّحظة، حنين إلى الموت العذب، إلى

خفقات القلب المتناغمة، إلى المياه التي منها يتألَّف جسدنا كاملًا على كل حال.

أمَّا أنيفا أسّولوا، أمي، فكانت تنعي حظَّها لأنَّنا دُفِنَّا في كولوماني. ولكنْ كلًّا، فلقد غرقنا في كولوماني. غرقنا جميعًا حتى قبل أن نولد. أمَّا الضياء الذي تلقَّانا ساعةَ الميلادِ، فكان أوَّل شاطئ نجنح إليه.

* * *

اللَّيلة، طرق أبي على باب حجرتي، فواربتُ الباب وقد استأثر الأمر باهتمامي:

ـ أنا ذاهب إلى الدَّغل برفقة الزائرين. غدًا نصيد الأسُود.

لم يسبق لأبي أن ودَّعني قطُّ. كان يخرج فجرًا، فلا ينتبه لرحيله أحد. أمَّا هذه المرَّة، فقد نظر إليَّ بعينَيْن خاويتَيْن، ومسَّ عنقي كعهده وأنا صبيَّة. فجاء ردُّ فعلي عنيفًا:

ـ لا تمسسني!

بَيْد أنَّه همس في خضوع:

ـ ما جئتُ إلَّا كي أقول وداعًا.

فوجئت لكوني أستحقُّ ذلك الوداع، فالآباء لا يكترثون لأمر بناتهنَّ في كولوماني، فلا يتحدَّثون إليهنَّ أو يداعبونهنَّ إلَّا فيما ندر، ولاسيَّما في العلن.

الحنان مهمَّة الأم. فما السَّبب الذي جعل چِنتيو إمپيپيه يوليني ذلك الاهتمام المفاجئ على غير المُتوقَّع؟ عند ذاك، تبادر إلى ذهني أنَّه لم يكُن مُجرَّد وداع، وإنَّما اعتذار. إذ يعرف چِنتيو إمپيپيه أنَّه لن يعود من

بعثة الصَّيْد، فجاء يطلب الصَّفح، جاء يطلب الغفران لأنَّه لم يكُن لي أبًا قطُّ؛ بل أفدح من ذلك، إذ لم يكُن لي أبًا سوى بقصد اعتراض سبيلي حتى لا أصير إنسانة، حرَّة، سعيدة.

غريبٌ كم يستحوذ قلبُ المرء على رأسه! على مدى أعوام، تمنَّيتُ نهايةَ أبي وتخيَّلتُها. تضرَّعتُ بحرارة لتنهشه إحدى الضواري، كما نهشَت سيلينسيا. أمَّا الآن، فلقد تراجعتُ نادمةً إزاء مظاهر التواضع المباغتة التي بدت عليه.

ـ أبي، أرجوك، لا تخرج في بعثة الصَّيْد هذه!

نظر إليَّ من فوق كتفه بدهشةٍ طغى عليها الحزن الأعزل شيئًا فشيئًا:

ـ ماريامار، ما طلبك هذا؟

ـ لقد حلمتُ يا أبي، حلمتُ بالبحر.

كان جِنتيو إمپيپيه خبيرًا في التوجُّس، تلك القدرة على الاستشراف التي جعلت منه مُقتَصَّ أثر بارعًا. كان المستقبل ينساب خلال أحلامه، فلا تباغته مفاجأة واحدة في اليوم التالي. كيف تعامى عن النذير الذي تراءى لي جليًّا تلك المرَّة؟

ـ ماريامار، لم تطلبي منِّي ما طلبتِ سوى لأنَّكِ تخشين أن أقتل صيَّادكِ الصغير. لستُ أنا من تودِّين حمايته.

ـ لا تذهب، أرجوك.

ـ عليَّ أن أذهب. لا يسعني التراجع. فلقد أدُّوا مستحقَّاتي.

أوْلاها ظهره، ومضى يجرِّر قدمَيْه على مضض، ثمَّ تمهَّل وراح ينظر إلى جذع شجرة التمر الهنديّ. فكنتُ أنا من كسرتُ حاجز الصمت:

ـ لشدّ ما أحزنني موت هذه الشجرة.

حينئذٍ كشف لي أبي عمَّا يلي: أمّي هي التي أبرأتني لمَّا أُصِبتُ بالشلل في ساقَيّ. لا الإرساليَّة، ولا الكاهن أموروزو، بل كانت أمّي هي التي صنعت معي التاكاتوكا، فأزالت عنّي الألم ونقلته إلى تلك الشجرة التي لم تحتمل وذوت تحت وطأة الألم. وتلك هي التاكاتوكا: نقل الألم من الشخص إلى الشيء. فبدَّلت آنيفا أسّولوا حياة التمر الهندي بجراح روحي. وذلك ما كشف لي عنه أبي، عند الوداع.

يوميَّات الصيَّاد
(5)
عظام حيَّة وضبعة نافقة

«إنَّ جيشًا من الخراف بقيادة أسد قادرٌ على إلحاق الهزيمة بجيش من الأسُود بقيادة خروف».

(قول مأثور من إفريقيا)

المحافظ نافد الصبر، لأنَّ «العمليَّة أسد» ـ كما أطلق على بعثة الصَّيْد بنفسه، ما زالت لم تؤتِ ثمارها بعد. وفي تلك الأثناء، تلقَّى إنذارًا نهائيًّا من رؤسائه في الحزب. فالاستثمار الخارجيّ في المنطقة مُعرَّض للخطر ما لم تهدأ الأوضاع في تلك المنطقة المشحونة.

ـ خطر لي اختلاق تقرير أذكر فيه أنَّ كلّ شيء على ما يُرام.

ـ تقرير زائف؟

ـ هذا ما نفعله نحن المرؤوسين. لا نقرّ بمشكلة على الإطلاق. فالاعتراف بمشكلة لا يجلب سوى المشاكل مع الرؤساء. ولكنَّ نافتاليندا قرأت ذلك التقرير، وهدَّدتني بفضح ما ينطوي عليه من زيف علانيَّةً. ولذا، يا عزيزي الصيَّاد، فالحلُّ واحد ليس إلَّا: عجِّلْ بقتل تلك الأسُود من أجلي.

بعد ذهاب فلوريندو بقليل، تقرع بابنا زوجته البدينة نافتاليندا. تتأكَّد أنَّ المحافظ قد مرَّ من هنا، ثمَّ تناديني وتنتحي بي جانبًا حيث تهمس في مسمعي:

ـ فلوريندو في عَجَلة من أمره. يريد تقديم الخدمة. ولقد تقدَّم بطلب سلاح لتوزيعه على الآخرين. حذارِ يا صديقي. فمِن الناس هنا مَنْ يريد قتله!

في المساء نفسه، أغادر وحيدًا. أتَّجه صوب الأدغال التي تحفُّ الطريق المُؤدِّية إلى پالما، وهاجس يحدِّثني بأنَّ تلك الجولة ستكون مثمرة.

***

يتأكَّد لي صدق هاجسي. فبعد مسيرة نصف ساعة، تتمثَّل اللبؤة مقابل الضوء على ضفَّة غدير جاف. لم يبدُ عليها الجفول، وكأنَّها تترقَّب ذلك اللِّقاء؛ وإذا هي تنقضُّ من دون سابق إنذار، لتقطع المسافة الفاصلة بيننا في غمضة عين. أمَّا الصرخة التي ندَّت عنِّي، فقد جاءت أكثر مباغتةً من هجمة اللَّبؤة:

ـ رباه، ساعدني!

زناد البندقيَّة مُعلَّق، في انتظار ضغطة من إصبعي، أمَّا أنا فلم يبقَ لي سوى ذلك الابتهال اليائس. أيُّ لعنة تثقل عليَّ حتى أستودع روحي بين يدي الرَّب، بدلًا من إطلاق النار؟ وفي دخيلة نفسي تتعارك نبوءة أمِّي وإرث أبي.

ولكنْ ها هي ذي اللَّبؤة تعلِّق الهجوم فجأة. لعلَّها فوجئت إذ لم ترَني أنطلق مذعورًا! من يدري؟ تقف أمامي، وعيناها تتفرَّسان في عينَيّ. تعجب منِّي. لستُ أنا من تتوقَّع حضوره. وإذا هي في اللَّحظة نفسها لم تعُد لبؤة. فذهبت وقد تبدَّل وجودها، ولم تعُد كائنًا من الأساس.

***

أصل إلى المُخيَّم مهزومًا كلّ الهزيمة، خاويًا كلّ الخواء، حتى إنَّني أستلقي في الشرفة على أهبَّة الموت في العراء. كانت اللَّبؤة في

نطاق رصاصة واحدة منّي، فأخفقتُ وكأنّي مبتدئ تملّك منه الجزع. لا أستحقُّ سقفًا يظلّلني. ربَّما كان من الأيسر أن تغفر لي الآلهة وأنا على تلك الحال، مُتَّضعًا، مهجورًا.

لستُ مِمَّن يلوذون بالسماوات إذا ألمَّ بهم مصاب. أمَّا الصلاة، فلستُ أتلوها إلّا نائمًا. وما لي ابتهالات سوى الأحلام. عسى ألّا يستاء الرَّبُّ منّي. فكل ما تبقّى لي روح ضئيل، مُؤقَّت. روح يفيق ليلًا وحسب، في همس مرهف، لئلّا يسمعه أحد. أعتذر عن ذلك الانحدار إلى مرتبة الحيوان. وعلى الرَّغم من كلّ شيء، فالروح عبء أعجز عن النهوض به ما لم أكُن ميّتًا. ولذا أحببتُ كلّ هذا الحبّ، وخضتُ كلّ هذه الغراميَّات الخائبة. لهذا السَّبب أصيد، حتى أبقى خاويًا. وقد أُعفيت من كوني بشرًا.

***

ما زالت الفرصة المواتية التي ضاعت بسببٍ منّي تستحوذ على ذاكرتي في هَوَس. ما زالت اللَّبؤة تواجهني، تقيِّم روحي، ونورٌ إلهيٌّ يشعُّ من عينَيْها. تتبادر إلى ذهني خاطرة هي الأغرب على الإطلاق: في مكانٍ ما، سبق لي أن تأمَّلتُ هاتَيْن العينَيْن القادرتَيْن على تنويم الأعمى.

إجهاد عذب يضفي على جسدي ليونة، في حين يداهمني الألم نفسه الذي يجعل الفراشات تحوم دائخةً حول المصابيح. أغفو. أحلم. وأنا نقيض الصيَّاد التقليديّ. فهو يحلم بالطريدة التي سوف يقتلها عشيَّةَ الصَّيد. في حين أحلم أنا بنفسي وقد دبَّت فيَّ الحياة بعد أن قتلتني الكائنات المفترسة. فلقد صارت تلك الوحوش الآن مسوخي الخاصَّة،

ومخلوقاتي الأثيرة، تلك التي ستكون لي أبدًا، وتجوب لياليَّ أبدًا. فأنا سجينها الداجن في خاتمة المطاف.

* * *

تتمثَّل كنيسة كولوماني العتيقة في حلمي. أفتح البوّابات الصدئة فألتقي بكاهن أبيض، برتغاليّ، يبدو لي وجهه مألوفًا. يصعب التصديق بأنَّه كاهن. شعره الأشعث ورداؤه القذر الممُزَّق يضفيان عليه مظهر شحَّاذ.

يدعوني قائلًا:

ـ هلمَّ بالدُّخول يا بنيْ. مضى زمن طويل وقطيع المؤمنين يترقَّب وصولك بلهفة. أركانچو هو اسمك، والرَّب من أرسلك.

تألف عيناي الغَبَش، أمَّا ذلك الذي دعاه الأب الكاهن «قطيع المؤمنين» فأفراده من الأسُود واللَّبؤات. تربض الحيوانات في خشوع، وتنصت في ورع بشريّ إلى الرسالة التي يلقيها الأب الكاهن على المنبر. يبتهل الكاهن والمؤمنون، طالبين أن تُكلَّل مهمَّتي بنجاح، فأقضي على البشر الهَمَج الذين يصيدون الأسُود البريئة. يرفع الكاهن كأس المناولة قائلًا:

ـ هذا هو دمك[1].

وفيما هي تحاول جاهدة كبح جماح نفسها، يسيل لعاب الأسُود ليغمر مقاعد الكنيسة، بينما يجاهد مُبشِّر الإرساليَّة فاتحًا ذراعَيْه لئلَّا يضيع صوته وسط زئير الوحوش:

---

(1) إشارة إلى طقوس المناولة خلال القدَّاس الإلهيّ طبقًا للعقيدة المسيحيَّة، حيث يرفع الكاهن الكأس ويتلو الآية التالية من الكتاب المُقدَّس: «خذوا اشْرَبُوا مِنْهَا كُلُّكُمْ، لأَنَّ هذَا هُوَ دَمِي الذِي لِلْعَهْدِ الْجَدِيدِ الذِي يُسْفَكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ لِمَغْفِرَةِ الْخَطَايَا». (إنجيل متّى: إصحاح 26، آية 27 ـ 28)

ـ ما جئتَ لصيد الأسُود، بل جئتَ لقتل إنسان!

* * *

أيُّ حلم لعين! هكذا يدور في خَلَدي حين أفيق. أخبرُ الكاتب بالأشباح التي قضَّت مضجعي ليلًا، فيبتسم غوستاڤو مُعقِّبًا:

ـ من الجدير بالفضول أنَّنا دائمًا ما نحلم بالحيوانات نفسها: الأسُود، والنمور، والنسور، والثعابين، لأنَّنا في دخيلة أنفسنا نودُّ لو كُنَّا تلك الكائنات القادرة على التهامنا.

* * *

في الصباح الباكر، أخرج إلى الأراضي الخلاء القاحلة المُمتدَّة شمالي القرية برفقة الكاتب وإمپيپيه مُقتصّ الأثر. فقد مرَّت الأسُود من هناك ليلة أمس. عندي ثقة بأن تكون المطاردة يسيرة، فعلى السهول الرمليَّة ترتسم آثار الأسُود بكلّ وضوح. تُدعَى تلك المنطقة كوڤا ڤيلا. اسم على مُسمَّى، إذ يعني بلغة الماكوندي «خواء». المكان مهجور، ملعون. يُقال إنَّها لم تمطر هناك يومًا، ولا حتى قطرة شاردة.

لم نكُن قد أطلنا المسير لمَّا تبيَّنَّا عن بعد ضبعة وحيدة، تسير على الرِّمال المبهمة كالسَّراب. تشقُّ على الكاتب رؤية الحيوان، ولكنَّه ما إن يلمح الطريدة حتى يتجلَّى على وجهه وميض اللَّحظة، وبريق الحواس. أفسِّر له في وقت لاحق أنَّ تلك هي العادة الرذيلة التي يدمنها الصيَّاد. فليس القتل ما يخلبنا، وإنَّما اللِّقاء بالأعجوبة المراوغة، واللَّحظة الخاطفة التي لا تتكرَّر. وفجأة، يهزُّني الأمر الصارم الذي يمليه عليَّ چِنتيو إمپيپيه:

ـ أطلق النار، اقتله!

ـ هل أقتل ضبعة؟

ـ ألا ترى؟ ثمَّة شيء في خطمها، يبدو جزءًا من ساق.

أخشى أن تعصاني أصابعي مرَّة أخرى. ولكنَّ البندقيَّة تنصاع لطبيعتها المُميتة هذه المرَّة. أُطلقُ رصاصة مُوفَّقة فيسقط الحيوان أرضًا وقد انمحى من على وجه الحياة. يبدو لي الأمر برمَّته غريبًا! ما السَّبب الذي جعلني أملك زمام أصابعي هذه المرَّة؟ تحضرني ذكرى أمِّي، مُضرَّجة بدمائي، وكأنَّها تلدني للمرَّة الثانية. أُنصتُ لنبوءتها من جديد: ليس قَدَري أن أكون صيَّادًا؛ ولكنْ لماذا لم تثبت صحَّة هذا النذير سوى الآن؟

يهتف مُقتصُّ الأثر:

ـ ضربة رائعة، سقط أرضًا!

وعلى الرَّغم من ذلك، فالحقيقة أنَّني أطلقت النار بلا أعصاب، بلا روح، لأوَّل مرَّة. فمزَّقتِ الرَّصاصةُ حاجزَ الصمت وأنا لا أُدرك أنَّني قد ضغطتُ الزِّناد.

أميل على الطريدة لأتأكَّد من العظم الذي في خطمها. ليس من السهل انتزاعه من بين فكّيّ الضبعة القويَّتَيْن. لا شك في كونه عظم فخذ بشريّ. انتشله الحيوان من أراضي القبور. يسأل چِنتيو:

ـ أتدري ما معنى ذلك؟ أنَّ الأسُود قتلت شخصًا آخر.

نصل إلى كولوماني، فنجد جمعًا محتشدًا قبالة مقرّ المحافظة. كان دويُّ الرصاصة قد تناهى إلى مسامعهم، فراحوا يترقَّبون البشرى السارَّة. ولكنَّهم ما لبثوا أن شعروا بخيبة الأمل حين تعرَّفوا على الحمولة

التي أودعناها في خلفيَّة الشاحنة. يسرُّ في سمعي الأعمى ذو السترة العسكريَّة:

ـ هذه الضبعة تخصُّ أحدهم.

وفي الحال، يُجمع الحضور على هذا الرأي، زاعمين بأنَّ ذلك الحيوان لم يكُن مدفوعًا بالغريزة، بل كان يؤدِّي عملًا عُهِد به إليه. أجل. فلا بشر ولا حيوان ينبش أرض كوڤا ڤيلا المحظورة. من المعروف أنَّ شيئًا لا يُطمَر هناك منذ أزمنة غابرة سوى البقايا الخالدة للمحاربين القدامى، أولئك الذين سقطوا في المعارك الملحميَّة التي امتزجت ببعضها بعضًا على مرِّ الزمان: الحروب على الإنغوني[1]، حروب الألمان، الحروب على الجيش البرتغاليّ، الحرب الأهليَّة، ودونها من الحروب المحلِّيَّة التي لم تستحقَّ أن تحمل اسمًا.

***

تَقرَّر حمل العظم المشؤوم إلى ساحرة عجوز تُدعَى آپيا نواپا. فالعظم لا ينبثق من العَدَم. ولو انبثق العظم من العَدَم، كما هي الحال، فالأمر أشدّ جسامة. أرفض استشارة الأرواح. لا وقت عندي لتلك الأمور التي قد تشتِّت الذهن، ولكنَّ الكاتب يصرّ على ضرورة الزيارة، ويقول إنِّي لا أستطيع التنصُّل من مرافقة المشاركين في تلك الطقوس؛ فبهذه الطريقة أنال المزيد من البركات حتى تُكلَّل مهمَّتي بنجاح.

***

ـ سأطلب الإذن من النهر.

---

(1) «الإنغوني»: جماعة عرقيَّة تنتشر في عدد من بلدان جنوب إفريقيا، مثال موزمبيق وتنزانيا وزامبيا.

تخفض الساحرةُ القبَّعةَ على وجهها، وإذا هي في اللَّحظة نفسها تغدو ظلًّا. تبدو آيِيا نواپا مفعمة بالخيلاء، لأنَّ أغرابًا يجلسون في منطقتها (بمن فيهم مُمثِّل عن المحافظ شخصيًّا).

تتَّكئ المرأة إلى جذع شجرة باوباب في تثاقل. تمدُّ ساقَيْها، وتستريح في جلستها، وكأنَّ تلك هي كنيستها الخاصَّة. تطيل النظر إلينا ـ أنا والكاتب ومالِيكيتو پروپريو. ثمَّ تعلن مُجدَّدًا:

ـ يجب عليَّ طلب الإذن مِن النهر أوَّلًا قبل السَّماح لكم بالصَّيْد.

أسألها بصبر نافد:

ـ مِن النهر؟

ـ للنهر أحكامه. زِدْ على ذلك أنَّ نغوينا الأكبر يقيم في نهر ليدايا، وأنت تعرف ذلك التمساح جيِّدًا...

ـ أعرفه؟

ـ إنَّه التمساح الذي قتلتَه أنت منذ أمدٍ بعيد.

لستُ أملك سوى الابتسام. نغوينا، التمساح؟ لقد حصلتُ على إذن بحيازة السلاح، وتصريح بقتل الأسُود القاتلة. أما زال ينقصني الانتظار لحين صدور حكم ذلك التمساح الخياليّ؟ هكذا، أسألها بين خجلٍ واستنكار. تملك آيِيا زمام صوتها، ولكنَّها ما عادت تنتقي الكلمات:

ـ خياليّ؟ هل تشكّك في التمساح؟ أيُّ صنف من الأفارقة أنت؟

ـ دعينا من أمري أنا. جئنا لتتعرَّفي على صاحب العظم الذي وجدناه في خطم الضبعة.

نودعُ العظم قرب قدمَيْها، فلا تحرّك ساكنًا، وإنّما تكتفي بتأمُّل بقايا الهيكل عن بُعد. ثمَّ تغمض عينَيْها وتتنفَّس عميقًا وكأنَّها تتحرَّى عن الرائحة.

ـ ما زال هذا العظم مفعمًا بقدر هائل من الحياة. أمَّا صاحبه فقُتِل بتكليف من أحدهم.

ثمَّ تدلي آپيا نواپا بالحجج الآتية، فتقول: ما لنا خلودٌ إلَّا في العظام. فالجسد يذهب، والذكرى تذوي، وحدها العظام تبقى إلى الأبد. وما ذلك بمُجرَّد عظم فخذ. بل إنَّه دليل حيّ على حياة أحدهم.

ـ أجلْ، ولكن حياة مَنْ؟

ـ لن أدلّكم بلساني على أحد. فأنتم تعرفون.

أسأل في تحدٍّ:

ـ أَلِسماع هذا الحديث جئنا؟

ـ إذًا، دعني أخبرك بشيء مُقدَّمًا. فأنت صيَّاد، وستكشف ما يكمن في كلماتي.

تسكت هنيهةً، ثمَّ تردف مغمضة العينَيْن:

ـ امرأة هوت على الأرض، وغاصت على عمق أبعد من الغبار. وفي الختام، تحبل إحداهنَّ بهيكل عظميّ.

تبدو طلاسم الرِّسالة عصيَّة على الكشف، وإن بدا على ماليكيتو أنَّه يفهم مغزاها بوضوح. وبعيدًا عن بيت الساحرة ينتحي بنا على حافة الطريق، حيث يوضح لنا:

ـ إنَّها عظام تاندي، خادمة المحافظ، تلك التي اغتُصِبَت...

* * *

الصراخ الذي تعالى في أرجاء القرية يؤكِّد على الحِداد: فلقد ذاع خبر الضحيَّة الجديدة، ضحيَّة الأسُود القاتلة. لم يُفاجأ أحد بأن تكون الضحيَّة الجديدة هي تاندي. فبعد أن اغتُصِبَت تحوَّلت الصبيَّة إلى ڤازيليو، أي واحدة من تلك الكائنات المُسرنَمة التي تجوب اللَّيالي. ولمَّا صارت وحيدة مهجورة، فقد استسلمت تاندي لشراهة الأسُود، وأنهت حياتها.

أستلقي على الفراش، ونحيب النساء ما زال مسموعًا في الطرقات. يبكين تلك التي قضت نحبها. بل يبكين حياتَها القصيرة الرماديَّة الواهية أكثر من موتها. تتردَّد كلمات الساحرة الأخيرة في دخيلة نفسي:

ـ تذكَّر أيُّها الصيَّاد، لستَ أنت من يضغط الزِّناد، بل تنطلق الرصاصة نزولًا عند رغبة آخر يحتلُّ كيانك في تلك اللَّحظة.

كانت تلك عندي هي المرَّة الوحيدة التي نطقت فيها آپيا نواپا بالحقّ.

***

أزور چِنتيو إمپيپيه صبيحةَ اليوم التالي. أقرع البوابة المفضية إلى الباحة بكفِّ يدي، فتحضر زوجته آنيفا. أما مُقتصُّ الأثر فيعاني من الخُمار، على حدّ قولها. تجزم آنيفا قائلةً:

ـ إنَّ زوجي كوامبالوا. كان في وسعي نعته «بالسكِّير». ولكنَّ حال زوجي لا تُوصَف إلَّا بلغتي. إنَّه كوامبالوا.

ـ تلك القوارير التي أراها متناثرة في الباحة، إنَّها قوارير شراب...

ـ لا تعجب يا سيِّدي، فأنا التي أُعدُّ تلك القوارير، أنا التي أناوله الشَّراب.

عند نساء كولوماني أنَّ السكِّير أنفع من الزوج. وفي حالة آنيفا، ينحصر الخيار بين لدغة الأفعى وأنفاس الشيطان، لأنَّ عنف چِنتيو في أوقات اليقظة أشدّ إيلامًا من قسوته في لحظات السُّكر.

ـ تعالَ.

تطلب منِّي آنيفا وتمضي بي عَبْر طرق مختصرة.

ـ تعالَ وانظرْ كيف ينام ذلك الرجل.

أجد چِنتيو وقد التفَّ حول نفسه على حصيرة بجوار البئر. فتعقِّب آنيفا:

ـ يبدو حيوانًا.

ثمَّ تقرّ بقولها:

ـ أحيانًا ما أبتهل إلى الرَّب حتى لا يصحو چِنتيو أبدًا.

أبتسم في حَرَج، ثمَّ أهزُّ رأسي وكأنِّي أخفِّف من شدَّة قولها. وعلى الرَّغم من ذلك، تستطرد مضيفتي بقَدْر أكبر من المرارة:

ـ إن لم يستيقظ فلن أُضطرَّ لقتله.

ـ آنيفا، ماذا تقولين؟

ـ أعطاني ذلك الرجل أربع بنات، ولكنَّه سلبني إيَّاهن جميعًا.

ـ قيل لي إنَّ الأسُود قتلت ابنتك الكبرى.

ـ چِنتيو هو من قتلها...

في ذلك الفجر المشؤوم ولَّت سيلينسيا هاربةً من كولوماني، من حكم چِنتيو إمپيپيه المستبدّ.

ـ تعالَ معي ترَ قبرها. إنَّه هنا، على بعد خطوات.

نمضي عَبْر أرض خلاء وصولًا إلى دغل قريب. القبر موسوم بصليب من الخشب وحجر ضخم من الغرانيت. وعلى حجر القبر المُرتجَل، أُودِعَت أزهار بريَّة. بعضها ما زال نضرًا.

ـ أزهار جميلة. هل تحضرونها بأنفسكم؟

ـ نحن؟ إنَّك أنت الذي تحضر الأزهار.

ـ أنا؟

ـ هنا تجثو على ركبتَيْك فجرَ كل يوم، وتتبادل أطراف الحديث مع الراحلة.

***

تمضي بي آنيفا عائدة إلى بيتها، وسؤال مرتاب يكدِّر ذهني: كيف تسنَّى لها اختلاق هذه القصَّة، والقول بأنِّي أحضر الأزهار من أجل سيلينسيا؟ أقول في نفسي إنَّها امرأة مجنونة.

في الباحة، يتناهى إلى مسمعي سعال آتٍ من خلف سياج من الخيزران. أهمُّ بإلقاء نظرة فتجذبني آنيفا من ذراعي، وتُجلِسني على المقعد الوحيد هناك.

ـ لا أحد هنا، إنَّها الكلاب وحسب. الكلاب التي لم تلتهمها الأسُود بعد.

تذهب مضيفتي إلى المطبخ، وتُحضِر قِدْرًا من البطاطا الحلوة المطهوَّة، ثمَّ تقدِّمها لي في صحن من الفخَّار. لستُ جائعًا، ولكنِّي لا أملك الرفض. في صمت، نتقاسم الطعام.

ـ أتحدَّث عن قتل جِنتيو، ولكنِّي أودُّ القضاء على كولوماني بأسرها.

ـ أيُّ سخط ذلك الذي يعتمل في نفسكِ، آنيفا؟

ـ ها نحن نتقاسم الطعام. ذلك أمر محظور في كولوماني. رجل وامرأة يتقاسمان الطعام؟ فقط لو كان الرجل مسحورًا.

ـ لعلَّني مسحورٌ، من يدري؟

وفجأة، أسمع دويَّ ارتطام الصحون التي وُضِعَت في السقيفة لتجفيفها، وألمح خيال امرأة تعدو لتتوارى خلف البيت.

ـ من هي؟

ـ لا أحد.

ـ ولكنِّي رأيتُها، رأيتُ امرأة تتوارى عن الأعين.

ـ وهذا ما قلتُ، فالمرأة هنا لا أحد...

تنهض في غير كلفة، وتمضي بي إلى الباحة الأماميَّة. ولسان حالها يقول إنَّ وقت الزيارة على وشك الانتهاء. تودّ أن تهديني بضعة من جذور المنيهوت، لكنِّي أرفض بأدب. وقبل أن أذهب، تأخذ بيدي سائلةً:

ـ أرى فيك تعاسة ضاربة في العمق. فما الخطب؟

ـ لا شيء. ما من خطب. فيمَ سؤالك؟

ـ ما الذي يجعلك تهدر وقتك في الحديث مع سوداء عجوز وحيدة مثلي؟

ما روَتْه ماريامار
(6)

نَهْرٌ لا بَحْر له

«حكيمةٌ هي اليراعة[1] التي تستعين بالظلام لكي تضيء».
(قول مأثور من كولوماني)

(1) اليراعة: حشرة تضيء في الظلام.

ليلةَ وصل أركانچو، حلمتُ بأنّي دجاجة تذوي في قنّ الدواجن الذي يملكه چِنتيو إمپيپيه، حيث كانت الدجاجات الأخرى أخواتي. فعشنا يومًا بيوم، لا نعرف قصَّة الطيور المحرومة من الطيران. وفي تلك الأثناء، بلغت مسامعنا أخبارٌ تزعم بأنَّ الدجاجات قد تحوَّلت إلى نسور في قنان أخرى. فرحنا نبتهل كي نتحوَّل إلى نسور نحن الأخريات، فنرتقي إلى حرِّيَّة السماوات ونحلِّق في الأعالي المذهلة. ولكنْ طال انتظار المعجزة.

ذات يوم، وفيما هو يقدِّم لنا الذُّرة، شرح لنا الجَدُّ أدچيرو أنَّ ما يحول دوننا والحرِّيَّة ليس هو سياج القنّ. فسرُّ خضوعنا يكمن في دخيلة أنفسنا، إذ كان چِنتيو إمپيپيه ينوِّمنا بالإيحاء. فمُجرَّد إصبع تتأرجح كالبندول أمام مناقيرنا تكفي لنغوص في الجمود، غريبات عن العالَم. وما إن يبدو على إحدانا أنَّها قد أفاقت وعادت إلى الحياة، حتى يضع سيِّدنا رأسها تحت جناحها فتعود من فورها إلى السبات الأبديّ.

***

تكرَّر الحلم كلّ ليلة من اللَّيالي التالية. وكأنَّ الأحلام ترغب في تحذيري من شيء. الآن، أعرف أنَّ ذلك الشيء هو الخوف، وأرى كلَّ

شيء جليًّا. فلم يهجرني أركانچو عن صفاقة، بل إنَّ الخوف هو ما يفسِّر ابتعاده. ذلك الخوف العتيق الذي شقي به، الخوف من وجود مسوخ متوارية عن الأنظار تحت صفحة ماء البحيرة، والارتياب خشية وجود وحش مُتخفٍّ وراء مظهري العذب، وحش قد يلتهمه. كان ذلك هو الخوف الذي استحوذ على أركانچو.

والحقّ، أنَّ أركانچو لم يُخلَق ليشاطر الآخرين حياته. فعظمة الصيَّاد تكمن في عزلته، حيث لا يشهد شاهدٌ على ما يعتريه من نوبات هلع وجُبْن. وحدها الضحيَّة تعرف مواطن ضعفه. ما يفسِّر تعجيل الصيَّاد بالتخلُّص من الطريدة.

***

منذ ستة عشر عامًا مضت، لمَّا رآني أركانچو باليرو وأنا أرقص في حفل القرية، كان الرَّيْب قد استقرَّ في دخيلة نفسه. كان الصيَّاد يخشى ما يقوله جسدي، يخشى مَنْ يتكلَّم عَبْر جسدي على قرع الطبول، إذ لا يمكن أن تكون سوى قوى الظلام، طبقًا لما ذهب إليه أركانچو، وهو الذي لا يتقن تلك اللُّغة. فهكذا تتكلَّم الشياطين، بلا كلمات، وتقول كلَّ شيء من خلال شهوة الجسد. كان ذلك هو الخوف الذي استحوذ عليه، ولكنَّها ليست الشياطين هي التي جعلت جسدي يرجف، وإنَّما الآلهة الكامنة في داخلنا نحن النساء، إذ تتحدَّث وتنصت. كان أركانچو يشاطر الرجال جميعًا ذلك الخوف، خشية أن يعود الزمن الذي كانت فيه النساء ربّات. ولمَّا التحمنا في رقَّة النسيم، كان أركانچو يودّ الاحتماء في نعمة هذه الكيانات. ولكنَّ آلهتنا لم تكُن واحدة. فآلهته تنام في الكتب، وآلهتي تصحو في الموسيقى. لم يدرك الصيَّاد أنَّني ما

كنت أرقص، بل أفعل شيئًا آخر: إذ رحتُ أتجرَّد من الوزن والزمن، كما يتعرَّى الثعبان من جلده القديم.

***

سبق أن تعرَّضت لما يجري لي الآن في هذا الحبس الإجباريّ. فمنذ ستة عشر عامًا، حين رحل أركانچو باليرو عن القرية، ارتميتُ في الشرفة من حيث رحتُ أراقب الأيَّام تمرّ. فحُبِست كما تُحبَس الفراشات في لحظة بعينها، وإذا بي شرنقة يلفُّها الزمن، في انتظار أن ينبثق منها كائن آخر. ولمَّا رأوني خائرة القوى، مغلوبة على أمري، تحت سقيفة بيتنا، ظنَّ الجميع أنِّي قد عدتُ إلى الشلل القديم. ولكنِّي لم أكُن خاوية إلَّا فيما يظهر. كنتُ أعرف أنَّ حُبِّي لأركانچو باليرو سوف يؤتي ثماره، حتى وإن كان حبًّا عابرًا. ترقَّبتُ حتى استدار بطني، ويومَ أتممتُ عامي السابع عشر على وجه التَّحديد، مثلتُ بين يدَيْ أمِّي، وواجهتُها في ظفر:

ـ حسبتِ أنَّني لستُ امرأة؟ ضعي يدكِ هنا إذًا، وتحسَّسي ما في داخلي.

وإذا بذراعها الخائرة في يدي تتهاوى قبل حتى أن تمسَّ بطني.

ـ ماريامار، أتخالين المطر ينهمر لمُجرَّد أنَّكِ سمعتِ هزيم الرعد؟ ما زال ينقصكِ الكثير من العُقَد في حبل الزمن.

ـ لم أفهم يا أمِّي.

كذبتُ فيما قلت، إذ كنتُ أعرف ما ترمي إليه. فنساء كولوماني، كلَّما مضى شهر من شهور الحَمْل، يصنعن عقدة في حبلٍ يتوارثنه جيلًا بعد جيل. فقالت هي:

ـ لقد خُلِقنا، نحن النساء، للتغلُّب على الشقاء.

ثمَّ لم تنبس بكلمة واحدة. إن هي إلَّا ابتسامة مبهمة، تشارف حدَّ الازدراء. ومن دون أن تقول شيئًا، راحت أمِّي تنكأ الجرح القديم، وتعيِّرني بأنِّي يابسة، وجفافي لا شفاء منه.

ـ لا تنظري إليَّ هكذا يا ابنتي. تعلمين جيِّدًا على من يقع الذَّنب.

كان ذلك شيئًا لا يرقى إليه الشك، فلقد حُرِمتُ من الأمومة بسبب الضرب الذي تلقَّيتُه من أبي، حتى إن المُمرِّض أكَّد على العواقب الوخيمة المُترتِّبة على تلك الركلات. قالت أمي، لتنهي بذلك الحديث:

ـ مِنْ الأطفال مَنْ يُولَد ويموت في داخلنا.

كانت كلمات مكتوبة على صفحة القَدَر، إذ داهمني ليلتها كابوسٌ رأيتُ فيه نفسي وفي داخلي وحشٌ يلتهم ابني، وليدي الخلاسيّ، طفلي الدنس، ابن الشارع، ذلك الذي خبا كالحلم في العتمة.

قمتُ مفزوعةً من نومي، والملاءات رطبة. سالت دمائي فضرَّجت فخذَيّ. صرختُ، ورحتُ أسبُّ أمِّي، وأصيح بأنِّي أضع مولودي. كانت الدِّماء على فراشي في حدّ ذاتها كائنًا، كتلةَ دمٍ خاثرة حيَّة، بشرًا من دماء. صرختُ والدم الأحمر الثخين يقطر من يدَيَّ المفرودتَيْن، على باب حجرة آنيفا أسّولوا:

ـ هذا هو ابني، هذا هو حفيدكِ.

***

اليوم، أعرف أنَّ قصَّة طفولتي لا تعدو أن تكون نصف حقيقة. ومن أجل تكذيب نصف حقيقة، يحتاج المرء لأكثر من الحقيقة الكاملة

بكثير. تلك الحقيقة الهائلة، التي بلغت من الهوْل حدًّا جعلها تغيب عنّي. كانت الحقيقة واحدة فحسب: إذ لم يكُن العقاب البدنيّ هو الذي أصابني بالشلل ـ فتلك هي الرواية المُخفَّفة التي اختلقتها أمّي، بل إنَّ الجريمة كانت مختلفة. فعلى مدى أعوام، كان أبي چِنتيو إمپيپيه ينتهك بناته. في أوَّل الأمر انتهك سيلينسيا. فعانت أختي في صمت، ولم تفشِ ذلك السرّ الرهيب. ولكنْ ما إن برز نهداي حتى صرت أنا الضحيَّة. بحلول نهاية المساء، كان چِنتيو يفارق ذاته عن طريق شراب الليپا، عَرَق النَّخيل. فيقتحم حجرتنا وقد شرب حتى الثُّمالة، وعند ذاك يبدأ الكابوس. أمَّا الشيء العصيّ على التصديق أنَّني في لحظة الاغتصاب كنت أغترب عن ذاتي، وليس في وسعي أن أكون أنا تلك المستلقية تحت جسد أبي الذي يتصبَّب عرقًا. وإذا بعمليَّة غريبة تجعلني أنسى ما قاسيتُه في اللَّحظة التالية مباشرة. كانت غايتي من فقدان الذاكرة المفاجئ ألَّا أصبح يتيمة. ومع ذلك، كان الأمر برمَّته يجري من دون أن يحدث البتَّة، إذ كان چِنتيو إمپيپيه يفارق ذاته ليسكن وجودًا غير الوجود، بينما أتحوَّل أنا إلى كائن آخر، لا سبيل إلى بلوغه، لا وجود له.

طالما تظاهرَت أمّي آنيفا أسّولوا بأنَّها لا تعرف شيئًا، زاعمةً بأنَّ ما يتردَّد مُجرَّد قصص من اختلاق الجيران، هذيان يفضي به أولئك الذين يريدون مداراة عارهم. ولمَّا أفحمتْها الأدلَّة، أرسلت في طلبي لتسألني بصوتٍ مرتجف:

ـ أهي حقيقة؟

فلم أُحِر جوابًا، وبقيتُ شاخصةً إلى الأرض. فكان صمتي عندها بمثابة تأكيد على صحَّة الأمر.

ـ ملعونة أنتِ!

ومن دون أن يصدر عنِّي ردُّ فعل واحد، اكتفيتُ بالتَّحديق إليها وهي تنقضّ عليَّ وتوسعني لكمًا وركلًا وتسبُّني بلغتها الأمّ. وفيما هي ترغي وتزبد، راحت تقول إنَّه ذنبي أنا. الذَّنب كاملًا يقع على عاتقي وحدي. ومع أنَّها تنبَّهت إلى ما كان من أمر سيلينسيا، كنتُ أنا التي أثير رجُلَها، بحسب ما ذهبَت إليه. لم تذكر چِنتيو بوصفه «أبي». فهو الآن أصبح «رجُلَها».

ـ اخرجي من هذا البيت. لا أريد رؤيتكِ هنا ما حييت.

***

لم أبلغ حدَّ الخروج. بالعكس، فلقد بقيتُ حبيسة الجدران كما لم يُسجَن أحدٌ في بيت قطّ. أرسلَت آنيفا أسّولوا في طلب ساحر، فجعلني ذلك الأواقي أحتسي شرابًا مريرًا. على مدى يوم كامل، رحتُ أشرب في إناء صغير من الفخَّار. وفي اليوم التالي، كان السمُّ قد ترك فيَّ أثره، فتحوَّلتُ إلى جسد بلا روح؛ ولم يبقَ في عروقي إلَّا النّسغ السامّ، عوضًا عن الدماء.

كانت أمِّي تنتقم منِّي. فبعد أن نقلَت مرضي إلى شجرة باحتنا فيما مضى، صارت الآن تصنع معي التاكاتوكا معكوسةً، فتنزع منِّي الحياة وتنفخها في الشجرة الميِّتة. وفي لحظة، وُلِدت شجرة التمر الهنديّ من جديد، خضراء زاهية. أمَّا أنا، فصرتُ كائنًا لا روح له. ولم تبقَ لي إلَّا حاسة وحيدة: السمع. أمَّا فيما عدا ذلك، فقد غشيتني عتمة قديمة مولودة معي.

سعت آنيفا أسّولوا إلى ما هو أكثر من مُجرَّد طمس جسدي. إذ كان الموت عليَّ قليلًا، ولا بدَّ من طمس مولدي. فالموتى لا يطويهم الغياب، وإنَّما هم باقون على قيد الحياة، فيتحدَّثون إلينا في أحلامنا، ولهم وزنهم في وعينا. أمَّا العقاب الذي كان ينتظرني فهو النَّفي المطلق، لا النَّفي من كولوماني، ولكن من العقل واللُّغة. فأُذيع أنَّ بي مسًّا من الجنون. ذلك أنَّ الجنون هو الغياب الكامل. وفي جنون العقل كنتُ باديةً للعيان، ولكن منغلقة على ذاتي؛ مريضة بلا جرح، جريحة بلا ألم.

حاول جَدِّي أدچيرو أن ينقذني، وجرَّب مينتيلا من صنعه هو. فباءت محاولته بالإخفاق. أرسلوا في طلب الأب أموروزو. ولكنْ في تلك المرَّة، لم يسْعَ الكاهن البرتغاليّ ولا حتى لصنع معجزة. بل إنَّه لم يقُل سوى شيء واحد فحسب:

ـ احملوها إلى المستشفى حالًا.

مضوا بي إلى پالما، فشخَّص المُمرِّض حالتي من دون أن يرفَّ له جفن:

ـ تلك أمور تجري من دون سبب. وبشيء من الحظّ، سوف تستعيد القدرة على السَّيْر.

نزلتُ في العيادة الصِّحّيَّة لبعض الوقت، وإن لم يبدُ عليَّ خلاله أدنى تحسُّن، يئس منِّي الدواء. وعلى الرَّغم من ذلك، لم يعودوا بي إلى كولوماني. نزلتُ في مستشفى پالما ولي من الحياة القليل، ومن الرفقة أقلّ القليل. ولكنِّي لم أدرك سبب تأجيل عودتي إلَّا في وقت لاحق،

إذ كان جَدّي أدچيرو قد تُوفّي آنذاك، فلم يريدوا منّي الحضور. لا بقصد إعفائي من وداعه، وإنّما ليطول ذلك الوداع مدى الحياة.

* * *

في الذكرى الأولى لموت جَدّي أخذوني لزيارة قبره. كان الراحل قد أعرب صراحةً عن رغبته في أن أحضر الشعائر. وعلى الرَّغم من عودتي إلى البيت، فلم يطرأ على حالي أيّ تغيير. لم يرغب أحد في اصطحابي عَبْر الطريق وأنا على تلك الحال. فلربَّما لوَّثتُ السيَّارات. ولذا استقرُّوا على نقلي في قارب عَبْر النهر، وصولًا إلى الغابة المُقدَّسة، حيث المثوى الأخير لأدچيرو وجَدّي الأكبر مواريمي.

فنُقِلتُ إلى القارب حملًا على الأذرع. وفي تلك اللَّحظة، انزلق جسدي وسقطتُ في مياه نهر ليدايا، مهجورةً. يُقال إنّي اختفيتُ في قاع النهر حيث بقيتُ تحت صفحة المياه زمنًا بلا نهاية. ثمَّ انتشلوني أخيرًا، وذهولُ طفلٍ وليدٍ جاء إلى الدُّنيا لتوّه يطلُّ من عينَيَّ. مثلتُ بين يدي العالَم رويدًا رويدًا. قطعتُ خطًى مخمورة، ثمَّ هززتُ كتفَيَّ وكأنّي أزيح عن كاهلي عبئًا خفيًّا. لا شكّ في ما جرى، طبقًا لشهادة الأقرباء الذين هتفوا بصوت واحد:

ـ عادت ماريامار! عادت ماريامار!

تركَّزت الأنظار عليَّ في دهشة، وإذا بي مركز الكون. خيَّم الصمت، وأقربائي جامدون بلا حراك، يترقَّبون ما هو آتٍ. فجاءت كلماتي الأولى كما يلي:

ـ أين أخواتي؟

فجاؤوا إليَّ بأختي الكبرى سيلينسيا، ومعها التوأمتان الصغيرتان أومينيا وإغواليتا. في صمت، قبَّلتُ سيلينسيا وجثوتُ على ركبتيَّ لأبلغ أختَيّ الأصغر عمرًا. بالكاد مرَّت بضعة أشهر. ومع ذلك، تقدَّم العمر بالصبيَّتَيْن على نحو محزن. لطالما ساءلتُ نفسي عمَّا إذا كان الأطفال في قرية كولومانيّ لهم وجود. أَتجوز تسمية الصغير طفلًا ما دام يحرث الأرض، ويقطِّع الحطب، ويحمل المياه، وفي نهاية اليوم يعجز عن اللَّهو بما له من معنويات مُثبَّطة؟

وفجأة، كسر أبي حاجز الصمت رافعًا ذراعَيْه، وقال:

ـ هيَّا بنا إلى البحر.

تعجَّبَت أمِّي:

ـ البحر؟

فهتف جِنتيو إمپيپيه بلهجة قاطعة:

ـ ستذهب الأسرة بجميع أفرادها، كما وعدتُ الجَدّ.

لم يكُن البحر هو الذي أردتُ أن يأخذوني إليه، بل إنَّني لم أرغب في شيء سوى العودة إلى حضن أمِّي. أردتُ أن تهدهدني أمِّي، فأعود طفلة صغيرة. ذلك هو البحر الوحيد الذي لم أرغب في سواه. عند ذاك، فهمتُ الباعث الذي يدفع الكاهن أموروزو إلى الإسهاب في حديثه عن الطوفان الأخير. فذلك هو الشيء الذي كانت تصبو إليه نفسي: فيضان يجتاح هذا العالَم. هذا العالَم الذي يُرغم امرأةً من أمثال اَنيفا على الإنجاب، ثمَّ يأبى عليها أن تكون أمًّا؛ يرغمها على الزواج، ثمَّ يأبى عليها أن تعرف الحبّ.

* * *

غمرَت النشوةُ جميع أفراد الأسرة أمام رحابة المحيط اللَّامتناهي الحيّ، ذلك الأفق الذي لا يحدُّه حدّ، الأفق الذي بدا وكأنَّه يُولَد في دخيلة أنفسنا. أمَّا أخواتي اللَّائي جمَّدهنَّ الذهول، فقد عجزن عن النطق وسكرن أمام رحابة المحيط. سرتُ وحدي صوب مَلْطَم الأمواج. فلم يكُن غياب الحدود ما فُتِنت به، وإنَّما سحرني زَبَد المحيط، نسالات الزّبَد المنفرطة على قمم الأمواج. كالطيور البيض، بلا أجساد ولا أجنحة، كانت تلك النسالات تنفرط مُحلِّقةً في طيران أعمى لتذوب في الهواء. وعلى شفتَيّ دارت كلمةُ «زَبَد» وانسابت ألف مرَّة. لو أنجبت ابنة يومًا لدعوتُها بهذا الاسم: زَبَد.

كان الاسم الذي اخترتُه لتلك الابنة المستحيلة لائقًا، على الرَّغم من كلِّ شيء. لأنَّ نَسْلي من شأنه أن ينفرط كما تنفرط هذه المادَّة من الأمواج وتتناثر حتى لا يبقى منها سوى الغياب. لن أنجب ما حييت، لن يصبح لي مَنْ أملك تسميته.

وعلى الرَّغم من ذلك، فمع كلّ محاقٍ كانت تداهمني الانقباضات نفسها، فأضع مولودي في عزلة الفراش. عشرات من الأبناء، أنجبتُ عشرات من الأبناء، كما لم تفعل امرأة أخرى قطّ. وضعتُ مواليد لا يُحصَى لهم عدد، انطفأوا جميعًا لحظةَ الميلاد كما تخبو الشهب الساقطة من السماوات. فتلاشى أبنائي الذين كانوا ضربًا من المحال، ولكنَّ آلامي الحقيقيَّة التي صاحبت تلك الولادات المُتخيَّلة سوف تطاردني مدى الحياة.

أمعنت أمّي في تحذيري، وهي التي عرفت الشقاء، فأخبرتني أنَّ الآلام تنقضي ولكنَّها لا تزول. بل تتسرَّب إلى دخيلة أنفسنا، لتشغل موضعًا في كياننا، وتغوص في أعماق البحيرة.

يوميَّات الصيَّاد
(6)

اللقاء الثاني

«ما لي سعادة إلَّا السَّعادة السَّابقة على الحياة. ما لي ذكرى إلَّا ذكرى الأحلام. ولذا، أكتب».

(مُقتطَف مُختلَس من دفاتر الكاتب)

في الصباح الباكر، دُفِنَت تاندي. قلائل هم من يحضرون الجنازة. أكثرهم من النِّساء. يحضر المحافظ برفقة زوجته. فالراحلة كانت خادمته مدى الحياة على كلّ حال، وغياب سيِّدها قد يكون مدعاة للارتياب في نظر أهل القرية. على عكس زوجها، تبدو نافتاليندا وقد انفطر قلبها، في لحظة بعينها تودّ إلقاء كلمة. ولكنَّ البكاء يحول دونها ودون الحديث. تجمع شتات نفسها وتجفِّف دموعها، ثمَّ تقف بمهابة وجلال شيئًا فشيئًا:

ـ الأسُود تحاصر القرية، وما زال الرِّجال يأمرون النِّساء بحراسة الحقول، ما زالوا يأمرون بناتهم وزوجاتهم بجمع الحطب وتعبئة المياه فجرًا. متى نقول كلَّا؟ أنقولها يومَ لا تبقى واحدة منَّا نحن النساء؟

كانت تتوقَّع أن تتبعها باقي النساء في دعوتها إلى التمرُّد، ولكنَّهنَّ يهززن أكتافهنَّ ويسرن مبتعدات واحدة تلو الأخرى. أمَّا السيِّدة الأولى، فآخر مَنْ يهجر الجنازة مِنْ النساء. وفي دخيلة نفسها، تحسُّ بأنَّها المرأة الأخيرة، كما أحسُّ بأنِّي الصيَّاد الأخير.

* * *

بانتهاء شعائر الجنازة، يدنو منّي فلوريندو معلنًا وصول البنادق في اليوم التالي.

ـ أنت بصدد تلقّي التعزيزات.

ـ لا حاجة بي إليها. لا حاجة بي سوى لذاتي. أمَّا تلك الأسلحة، فعليك بادّخارها لغاية أخرى، كمحاربة الصيَّادين غير الشرعيِّين على سبيل المثال.

ـ سيستلم جِنتيو وماليكيتو الأسلحة على أن يتحرَّكا تحت أوامرك.

ـ لن آمر أحدًا. إذا أردت تشكيل فريق آخر، فلا بأس. ولكنْ ما ينبغي لي إنجازه، فلسوف أنجزه وحيدًا.

يزداد حديثنا حدَّةً، ويبتعد الحضور علامةً على الاستنكار. فما ذلك بالمكان اللَّائق، ولا تلك باللَّحظة اللَّائقة، بكلِّ تأكيد. ولكنَّ المحافظ ساخط أكثر ممَّا ينبغي:

ـ أتعرف مدى جسامة هذه المخاطرة على الصعيد السياسيّ؟ وأنا الذي آمنت كلّ الإيمان ببعثة الصَّيد هذه من أجل الحصول على ترقية؟ ماذا تبغي منّي، أن أتّبع وسائل أخرى؟

يدفعنا الكاتب بعيدًا عن الكنيسة، وهو الذي يستأنف الحديث هذه المرَّة:

ـ لم أفهم يا عزيزي ماكوالا. ماذا تعني بقولك «وسائل أخرى»؟

فيجيب المحافظ:

ـ الحقّ، أنَّني بدأت أشكُّ في تلك الأسُود. فهي تدخل القرية مدفوعةً بنوايا تكاد تكون بشريَّة، حتى في ساعات النهار...

يضحك الكاتب، ولكنَّ فلوريندو لا يتزحزح. فتلك الحيوانات تجوب المكان بحثًا، وتتشمَّم الأبواب. إنَّها تقتل بتكليف من أحدهم. لا يمكن أن تكون إلَّا أسُودًا صناعيَّة، وإلَّا فلمَ أحجمت عن أكل اللَّحم المسموم الذي وُضِع لها طُعمًا؟ ولأيّ سبب تمزِّق الثياب المُعلَّقة على حبل الغسيل؟

ثمَّ يشدِّد المحافظ على كلماته، وقد خلص إلى النتيجة الآتية:

ـ لك أن تتأكَّد، فلا أسد حقيقيّ يسلك مثل هذا السلوك.

* * *

في البيت، أُعدُّ طعام الغداء؛ في حين يعمل الكاتب في الصالة. ألاحظ أنَّه ما زال يختلس النَّظر إلى أوراقي المبعثرة. ما عاد يهمّني، لأنّي أطالع دفاتره أنا الآخر، بل وأختلس منها بعض الكلمات. بدأتُ أُعجَب في الآونة الأخيرة بالكتابة. في الكتابة شيءٌ يرضيني بقدر ما يرضيني الصَّيد. في خواء الصفحة تتوارى مخاوف ومفاجآت بلا نهاية.

أقدِّم الطعام في صحن غوستاڤو، وأملأ كأسه بالشراب، فتُشعِره خدماتي بعدم الارتياح. لا ينبس أحدنا بكلمة على الغداء، وأخيرًا أذهب إلى الحُجرة، ثمَّ أعود لأُلقي بالبندقيَّة بين ذراعَيْه، على حين غرَّة.

ـ ما هذا، أركانچو؟

ـ إنَّها لك، البندقيَّة لك أنت.

ـ أرجوك، أركانچو، وما رغبتي في سلاحٍ لعين؟

أرفع راحتي مشيرًا إليه بالإنصات من دون أن يقاطعني.

ـ أَتَذْكُر ما جرى ليلةَ استدعتنا آنيفا؟ أَتَذْكُر كم تأخَّرتُ في إطلاق النار؟

أمَّا الكاتب فيودع السلاح على الأرض، بمنتهى الحذر، وكأنَّه عبوَّة ناسفة. أترقَّب ريثما يفرغ من العمليَّة الدقيقة التي يجريها، ثمَّ أستطرد:

ـ غوستاڤو، منذ أيَّام أردتَ أن تعرف بأيّ يدٍ أطلق النار. لا باليمنى، ولا باليسرى. ما عدتُ أطلق النار.

ـ لم أفهم.

ـ ما عادت أصابعي تمتثل لأوامري. ماتت أصابعي. إليك الحقيقة: ما عدتُ قادرًا على الصَّيْد.

أرفع ذراعَيَّ عاليًا، مُبديًا أصابعي المُقوَّسة كالخطاطيف العتيقة. فلا يدري الكاتب ماذا يقول.

أبدو صادقًا كلَّ الصِّدق، مهزومًا كلَّ الهزيمة، حتى تشقّ عليه رؤية الصورة التي كوَّنها عنِّي وهي تتداعى. مهزومًا، أخلص إلى ما يلي:

ـ أصبحتُ بلا يدَيْن.

أراقب يدَيَّ وكأنْ لم تسبق لي رؤيتهما قطُّ، وكأنَّهما غريبتان عنِّي كلِّيًّا، تحديدًا كما يتأمَّل أخي رونالدو جسده الذي لا نفع منه وهو في المستشفى. ثمَّ أتوسَّل إلى الكاتب همسًا:

ـ لا تخبر أحدًا.

فيهدِّئ غوستاڤو من روعي:

ـ لن يعرف أحد.

ثمَّ يردف سائلًا:

ـ معذرة، ولكنْ أليس من الأفضل أن تقبل عرض المحافظ، وتخرج للصَّيْد بدعم من چِنتيو وماليكيتو؟

ـ إطلاقًا.

ـ لا أفهم. ومن يقتل الأسُود إذًا؟

ـ أنت.

ـ كيف؟

ـ تقتلها أنت.

ـ لقد جُنَّ جنونك!

ـ سيكون كلُّ شيء تحت قيادتي، لا تقلق. في لحظة بعينها، لن يتعيَّن علينا سوى ضغط الزِّناد.

توقَّعتُ أن يكون الرجل أكثر حزمًا في رفضه التامّ. ولكنْ يبدو على غوستافو التأمُّل. قد يبدأ الكاتب في الامتثال لرغبة دفينة. يعاود رفع السلاح، ثمَّ يزنه بيدَيْه ويصوِّبه إلى هدف من نسج الخيال. يسألني:

ـ أتظنّني قادرًا على إصابة الحيوان؟

وإذا بشعور جديد يطلّ من روح الكاتب، فتبدو عليه حماسة تكاد تكون صبيانيَّة. ويدور في خَلَدي أنَّ كلّ ما شيَّدناه بمنتهى الحرص على مدى قرون لنرتقي بأنفسنا عن حيوانيَّتنا، كلّ ما غلَّفته اللُّغةُ بالمجاز والألفاظ المُلطَّفة (كالعنق، والوجه، والخصر)، يعود في لحظة واحدة إلى جوهره الخام (كاللَّحم، والدم، والعظم). فالأسد لا يلتهم البشر وحسب، بل إنَّه يلتهم إنسانيَّتنا.

يسأل غوستاڤو:

ـ وماذا لو أخفقت؟

ـ لا تقلق أيُّها الكاتب. فأنا لم أسلِّمك البندقيَّة لقتل الأسد بقدر ما سلَّمتُك إيَّاها حمايةً لنفسي من نفسي.

✹✹✹

آمل أن يدافع الكاتب عنِّي، وهو الذي بادر بالدفاع عن أحدهم بالفعل، فأرسل تقريرًا إلى الحكومة المركزيَّة ندَّد فيه بتقصير فلوريندو في واقعة اغتصاب تاندي. أسأله:

ـ هل تحدَّثتَ إلى نافتاليندا؟

ـ إنَّها هي التي طلبت إليَّ التنديد بتلك الجريمة. كما تواصلت معي آنيفا الخادمة هي الأخرى، فأعلنتْ أنَّ زوجها چِنتيو إمپيپيه هو الذي تزعَّم زمرة المغتصبين.

ـ أَتثق فيما تقول آنيفا، بعد ما جرى ليلتها؟

ـ لقد أقرَّ چِنتيو إمپيپيه نفسه بأنَّه كان يتزعَّم أولئك المُختلِّين في الإمقيرا، أي المُخيَّم حيث تُقام شعائر البلوغ.

يتبادر إلى ذهني الحلم، حيث أرى الأسُود في الكنيسة. وأذكر تلك النبوءة الغريبة التي يدلي بها الكاهن أموروزو: «ما جئتَ لصيد الأسُود. وإنَّما جئتَ لقتل إنسان!»

✹✹✹

أحزنتني جنازة تاندي بأكثر ممَّا كنتُ أتخيَّل، تلك الجنازة البسيطة التي خلَت من المُشيِّعين إلَّا فيما ندر. لم يُسمَح لي بالمشاركة

في دفن أمّي وأبي، إذ لم يكُن عمري لائقًا آنذاك. لستُ أدري ما إذا كان هنالك عمر يليق بتأمُّل الموت. تأثَّرتُ بغياب تاندي، وكأنَّ بعضًا قد انتُزِع منّي. أمسكتُ بواحد من عظام تلك المرأة. كيف أنام من دون أن تزورني الأشباح؟

يتثاقل السقف وأنزلقُ في تهويمِ عذْبٍ غير مألوف. وعلى التخوم الفاصلة بين اليقظة والنوم، أرى زوجة أخي في الحُجرة، بوداعة تليق بالظلال. أحلم، ولا أرغب في الخروج من الحلم. تنبثق لوزيليا وسط الضباب، لوزيليا تتسلَّل إلى البيت، لوزيليا تدلف إلى حُجرتي. جميلة، عطِرة، فاتنة. تتشبَّث بالبندقيَّة وتشرع في الرَّقص بها. تربِّت على السلاح وكأنَّه يضفي عليها حياةً. أمَّا أنا، فأتابع تلميحاتها المتمايلة جالسًا، جامدًا. تمرِّر ماسورة البندقيَّة على وجهها شاخصةً إليَّ، تتأمَّل في عينَيَّ. أحذِّرها:

ـ حذار، فالبندقيَّة محشوَّة بالذخيرة!

ـ أعرف، ولذا أرقص بها.

ثمَّ تردف المُمرِّضة:

ـ لا رقص إلَّا وكان، هكذا، محفوفًا بالأخطار، شبه مُميت. فالمرء يبدأ بين ذراعَي الحياة، وينتهي بالرقص مع الموت.

تقبِّل شفتاها الزِّناد، تمصَّان الماسورة في شهوة، وعيناها ما زالتا شاخصتَيْن إلى عينَيَّ. ولكنّي ما زلتُ باردًا نائيًا. فمن المعروف أنَّ للحبّ وقتًا، وللصَّيْد وقتًا، لا يمتزجان البتَّة. أمَّا لو استسلمت لخنت بذلك التقليدَ العتيق: فالجنس مُحرَّم في وقت الصَّيْد.

ـ أركانچو، ألا ترى؟ إنّي أنا الأفعى العرجاء...

عند ذاك، أُدركُ أنَّ المرأة تبغي الاستيلاء على روحي. ولدهشتي، تتعرَّى لوزيليا رويدًا رويدًا، فيتبدَّى جسدها في اشتهاء مُتمهِّل. والنور المنساب يضفي على جسدها لاواقعيَّة قمريَّة. تدنو منِّي، ثمَّ تولّيني ظهرها وتتَّكئ عليَّ، فترسم انحناءاتها على جسدي. وفي صدري يعتمل غليان الجليد، فأتمدَّد فاتحًا صدري حتى النخاع، وإذا بي شعلة مُتَّقدة، لا صوت لها. تسألني لوزيليا:

ـ ألا تقول شيئًا يا عزيزي أركانچو؟

إنَّ ما تطلبه منِّي مهمَّة شاقَّة. لقد اختطفتني الغواية. أريد الحديث إليها فتعوزني الحنجرة، أريد لمسها فتعوزني الأصابع. ما عدتُ مالكًا جسدي في الحبّ أيضًا، تحديدًا كما في الصَّيْد. فلا يصدر عنِّي أكثر من تنهيدة مبهمة:

ـ أقول شيئًا، أنا؟

وإذا هي أمامي وجهًا لوجه. ثغرها، أسنانها، لسانها.. يتناغم كلُّ ما فيها لينزع منِّي روحي. وأنا، على مشارف الموت، مهجورٌ في هوَّة النعاس.

***

أهبُّ من نومي مفزوعًا. أقطع الرَّدهة وبشائر الصُّبح الأولى تشرق في الخارج. ألتقي بالكاتب الذي يرميني بقوله عن كثب:

ـ لقد خرجت امرأة من هنا لتوِّها.

ـ امرأة؟ أيَّ امرأة؟

ـ لا أدري، لا أعرفها.. وصلت من ماپوتو. جاءت بحثًا عنك. تقول إنَّ اسمها لوزيليا.

ـ لوزيليا؟

من الخارج، أبدو غير مكترث، ولكنَّ بركانًا يتفجَّر في داخلي. هأنذا وقد بُوغِتُّ كالحيوان الواقع في الشِّراك. جامد فيما يبدو، ولكنِّي أركض في دخيلة نفسي، مندفعًا، مراهقًا، مذعنًا للغواية. أحسستُ بجسد لوزيليا على جسدي، وسكرت بالأنَّات والتَّنهيدات. لم تكُن مُجرَّد رغبة منِّي في تحقيق الحلم، وإنَّما أردتُ أن يندمل جرحي الذي تركه الصدّ في نفسي.

بعد ساعة، تعود لوزيليا. فتحيِّيني بقبلة على وجنتي، تكاد تكون على حافَّة شفتي. وجهها يلطِّف من خشونة لحيتي التي لم أحلقها. أحسُّ بنهدَيْها على صدري، ونبقى على هذه الحال بعض الوقت.

ـ كنتُ أعرف أنَّكِ آتية.

ـ كاذب. أنا نفسي ما كنتُ أعرف.

ـ وكيف حال أخي؟

ـ هو السَّبب في مجيئي إلى هنا. أخوك... لستُ أدري كيف أقولها...

ـ هل قضى نحبه؟

ـ كلَّا، ليس بعد.

ـ ليس بعد؟

ـ رونالدو يريد منك أن تعود إلى ماپوتو بأسرع ما يمكن. عنده ما يودُّ أن يخبرك به قبل الموت.

ـ أحتاج إلى يوم آخر. ثمَّ نعود معًا.

ـ سأعود إلى پالما إذًا، حيث أبيت في نُزُل هناك. احضرْ للقائي غدًا.

ـ لوزيليا، لا تذهبي الآن. أودُّ لو أريتكِ النهر. ولاحقًا آخذكِ بالسيَّارة إلى پالما.

***

نتأمَّل الوادي في صمت مطبق من مكاننا على ضفَّة نهر ليدايا الأعلى ارتفاعًا. نجلس على الصخور الغرانيت، عند ذاك وحسب تشرع المُمرِّضة في الحديث:

ـ هنالك ما يجب عليَّ البوْح إليك به. بشأن أمّك أوَّلًا، بشأن موتها.

ـ أعرف ما جرى. كانت مريضة.

ـ لقد أودى بحياة أمّك الكوزونغابانغا.

ـ أهذا اسم مرض؟

ـ دعنا نقُل إنَّه اسم مرض. مرض يقتل الأخريات، يقتل المعافيات.

في تلك اللَّحظة، لم أفهم مقصدها. ولكنَّ لوزيليا تفسِّر لي أنَّ الكوزونغابانغا في لغة المانيكا[1] تعني «الإقفال بالسكين». فهناك مِن الرجال مَنْ يخيطون فروج نسائهم بالإبرة والخيط قبل السفر من أجل العمل، ما يُفضي إلى إصابة الكثيرات بالالتهاب. أمَّا في حالة مارتينا باليرو، فقد أفضى الالتهاب إلى الموت.

---

(1) لغة المانيكا: لغة منطوقة في بعض أنحاء زيمبابوي وموزمبيق.

ـ عرف رونالدو بما جرى، فكان ذلك هو الباعث الذي دفعه إلى قتل أبيك. لم تكُن حادثة. فقد ثأر لموت أمّك.

***

يجيش صدري بالغضب. أخي قتل أبي! أردِّد في نفسي «أبي» وكأنَّه لي أكثر ممَّا هو لرونالدو. يتراجع الاتِّهام أمام شعور آخر يشبه الحسد.

ـ لوزيليا، خبِّريني: هل يتمكَّن أخي من النوم؟

تؤكِّد زوجته أنَّ رونالدو ينام. كيف لي بمثل هذه اللَّامبالاة؟ وصل أخي إلى المنفى التامّ الذي طالما رجوتُه لنفسي. كنتُ أحسد أخي على النوم والجنون، أحسده على المرأة، على الحبّ الذي تقابله امرأته بمثله، ذلك الحبّ الذي لم أنعم به قطُّ.

أسير مبتعدًا عن لوزيليا، وأدنو من حافَّة الجرف لأرى الوادي بقَدْر أكبر من الوضوح. ارتفع منسوب مياه النهر منذ وصلتُ إلى كولوماني. لا بدَّ من أنَّ الأمطار بدأت في التساقط على جبال المصبِّ النائية. النهر لا ينام البتَّة. فهو وإيَّاي في الأرق سواء.

ـ هنا، قرب هذا النهر، عشقتُ فتاة...

ألوِّح بتلك الذكرى الضبابيَّة وكأنَّها سلاح، مدفوعًا برغبة عبثيَّة في إيلام لوزيليا. أسترسل قائلًا:

ـ كانتا أختَيْن، أجل. لا أذكر لهما اسمًا ولا وجهًا. قبَّلتُ إحداهما، وإن كنتُ لا أذكر أيَّا منهما. ربَّما، لو عدتُ لرؤيتهما...

ـ الرجال، آه من الرجال! ما كانت امرأةٌ لتنسى أمرًا كذلك يومًا. أراهن على أنَّهما تَذكُرانِك.

ـ أعترف بأنّي كنتُ أُفرِط في الشراب آنذاك، بل وبلغتُ حدَّ معاقرة ذلك العَرَق الذي يعتّقونه في هذه الأنحاء.

ـ وما الذي جاء بك إلى هنا، إلى آخر العالَم؟

ـ جئتُ أقتل تمساحًا خطيرًا.

ـ وهل نجحت في ذلك؟

ـ هل عندكِ شكٌّ في مهاراتي في الصَّيْد؟

ـ لم تفلح في صيد مبتغاك دائمًا.

أتظاهر بأنّي لا أنصتُ إليها، فأحذو حذو الأسُود التي تتصنَّع الشرود قبل الهجوم على الفريسة. ما عدتُ أعرف كيف أتعاطى مع لوزيليا إلّا بصفتي صيَّادًا.

ـ ثمَّة شيء لا أفهمه. هل تفهمين حديث رونالدو حقًّا، عندما يتكلَّم على طريقته؟

وفجأةً، أجد نفسي قريبًا من ارتياب أبي في رسائل أمّي. ربَّاه، ما أشبهني بإنريكي باليرو! تجيبني لوزيليا وهي بعيدة تمامًا عن خواطري:

ـ لا تنسَ أنّي مُمرِّضة، وأعتني بأخيك منذ أمد بعيد كلّ البعد! لذا أنصتُ إليه كمن يقرأ الخطوط في راحة يده. ولا تنسَ أنَّ رونالدو كان يتقن الكتابة.

لطالما كانت الكتابة سلاحه وملاذه!

من جيب البنطال، تبرز لوزيليا قصاصتَيْن من الورق، ثمَّ تنتقي أكثرهما تجعيدًا وتسلّمني إيَّاها. إنَّها رسالة من رونالدو. أتعرَّف خطَّه، خطّ الصبيّ المُهذَّب دومًا. لا تروقني القراءة بصوت مسموع، إذ تجعلني أحسُّ بالهشاشة، بالسُّخف، بالعرِيّ. ولذا أقرأ همسًا:

«أخي العزيز،

أتصوَّر أنَّك تتألَّم لحالي. أريدك أن تعرف أنِّي لا أعاني. بالعكس، فأنا سعيد، إذ لم يعُد في وسعي أن أكون من آل باليرو مرَّة أخرى ما حييت. تخلَّيتُ عن اسمي الموروث بالسَّعادة نفسها التي بها يحرق بعض الأرامل ثياب الزوج الذي فرض عليهنَّ طغيانه. ما عدتُ أخاف بعد الرصاصة التي أطلقتُها، ما عدتُ أخاف ممَّن كنتُه. فلم تعُد ثمَّة جريمة تنتظرني. خاوٍ أنا، كما لا يتأتَّى سوى لقدِّيس. أتذكر بما كانت أمُّنا تنادينا؟ «يا ملاكاي»، هكذا كانت تنادينا. ولكنْ في هذه المصحَّة، حيث نزلتُ أنا، لا حاجة للشياطين ولا الملائكة. فنحن نكفي. أجل، أنا الذي قتلتُ أبانا. قتلتُه وكنت سأقتله مرَّة أخرى كلما وُلِد من جديد. امتثلتُ للأوامر. تلك الأوامر التي تلقّيتُها بلا كلمات. كانت نظرة أمِّي الحزينة تكفيني. أخي، لا تشفقْ عليَّ. في البدء كان الجنون حجَّة براءتي. ثمَّ بات غفراني. طالما حذَّرتْني أمِّي بقولها إنَّ «الرصاص يقتل في اتِّجاهَيْن». قتلتُ باليرو العجوز، فأنهيتُ حياتي بنفسي. قلتَ لي ذات مرَّة، بعد موت أمّنا: «من لي بالموت!». الآن أجيبك. ليس الموت هو الذي يوارينا بين طيَّات الغياب. فالميِّت لا يزال حاضرًا، والماضي له بأسره. لا سبيل إلى العَدَم سوى الجنون. ولا غائب إلَّا المجنون».

أكَّدت لي تلك السطور شكوكي القديمة: إذ كان أخي يتظاهر بالجنون. ولا كائنًا مريض بحقّ غيري أنا، بلياليَّ المضنية، وذكرياتي الأليمة، ذكريات الماضي العصيب.

ـ هل لي بسؤال آخر؟ هل تطارحتما الغرام يومًا، أنتِ وأخي؟

لوزيليا لا تحير جوابًا. بالكاد تبتسم، حزينة. ثمَّ تفرد الورقة الثانية ببطء وتهزّها أمامي.

ـ أتعرف هذا؟

إنَّها رسالتي العتيقة، تلك الرِّسالة البائسة التي فيها أعربتُ عن شغفي منذ أعوام طوال. ومن دون أن تزيد كلمة واحدة تدنو لوزيليا منِّي، والآن ترتسم ابتسامتها ملغَّزة. ثمَّ تقبِّلني.

ـ هيَّا بنا إلى كولوماني، إلى حُجرتك.

ـ لا نستطيع. فالكاتب يشاركني المكان.

ـ إذًا، فهيَّا بنا إلى پالما، هناك نجد قَدْرًا أكبر من الراحة.

نستقلُّ السيَّارة. تستمهلني يدها قبل تشغيل المُحرِّك. تهمس لوزيليا في مسمعي:

ـ كنتَ على حقّ، هذه آخر مرَّة تصيد فيها. فأنا قد جئتُ لآخذك...

نرحل في صمت، ويد لوزيليا تشبك ذراعي طول الوقت.

ـ اللَّيلة...

إلَّا أنَّها تقطع الجملة بحثًا عن الكلمة، فأسألها:

ـ ماذا؟

ـ اللَّيلة... اجعلني أخاف من نفسي.

أراقب طريق الرمال التي تنشقّ أمامنا، تلك الطريق التي فيها من المنعطفات أكثر ممَّا فيها من المسافات، وفي خَلَدي يدور ما يلي: إنَّ الحياةَ ترقُّبُ ما قد يعيشه المرء.

ما روَتْه ماريامار
(7)

الشرك

«احذرِ الأسود مرَّة، واحذرِ العنزة الساكنة في عرين الأسود مرَّتَيْن».

(قول مأثور من إفريقيا)

منذ وصل الصيَّاد والأيَّام تمرُّ ثقيلةً على خوائها، مثلها كمثل سحائب الشتاء. بقيتُ حبيسة بيتي طوال الأيَّام الماضية، أختلس النظر إلى إعدادات بعثة الصَّيد التي باءت بالفشل. كنتُ أحسُّ بدبيب خطوات أبي تتردَّد فجرًا، ويدفعني هدير الچيپ إلى النافذة لأختلس النظر إلى أركانچو باليرو.

ولكنَّ ذلك الاهتمام بمعشوقي أخذ يتلاشى رويدًا رويدًا. لماذا لم يرسل إليَّ إشارة على رغبته في رؤيتي من جديد؟ الحقيقة واحدة ليس إلَّا: فأنا عنده ميِّتة. لم يعُد لديَّ من الأوهام ما أستمرّ في التعلُّق به. فلقد دفعني ذلك الخذلان العميق إلى اليأس. ما عدتُ أرغب في الهرب من البيت، وتخلَّيتُ عن اللِّقاء بالصيَّاد ثانية. تخلَّيتُ عن النهر، عن الرحلة، عن الحلم.

***

لم يخذلني أركانچو باليرو وحدي، إذ بدأ شيوخ القرية يجتمعون في الشيتالا وقد نفد صبرهم، وخيَّمت أجواء التآمر على كولوماني. أمَّا فلوريندو ماكوالا، المحافظ، فقد بدأ يظهر في اجتماعات الشيوخ. كان حضوره في القرية غير مسبوق. فطالما نأى ماكوالا بنفسه عن ذلك

العالَم ناعتًا إيَّاه بـ«التقليديّ»، وطالما أعرض عن إدارة شؤون ما خفي من الأمور. ولذا، كان التقرُّب المباغت إلى ذلك العالَم مدعاة للعجب.

***

أمر غير مُتوقَّع يجري مساء اليوم، إذ يحضر المحافظ فلوريندو ماكوالا إلى بيتنا. ليس من تقاليد الزعماء أن يغادروا مقرَّاتهم لإدارة شؤون الحكم. ولكنْ في هذه المرَّة، جاء ماكوالا طالبًا خدمة. يتفاوض المحافظ وأبي ردحًا من الوقت وأبواب الصالة مقفلة دونهما. يدبُّ في نفسي الخوف من كوني أنا موضوع التفاوض. الخوف الذي يتأكَّد لي حين يستدعيني أبي في وقت لاحق ليملي عليَّ أوامره المُقلِقة، ويصدر حكمه قائلًا:

ـ اللَّيلة تذهبين مع المحافظ!

أسأله:

ـ ولكنْ، ألستُ حبيسة؟

فيؤكِّد أبي على مضض:

ـ هناك تنامين، في بيته.

أسيطر على زمام نفسي في حضور الزائر، وإن كنتُ أتداعى من الداخل. ولكنْ ما إن يذهب فلوريندو، حتى أنطلق مُتوسِّلة:

ـ أبي، لا تفعل بي هذا. كرمى للرَّب، فأنا لا أريد...

ـ ليس عليكِ أن تريدي.

فتقول أمِّي، مدافعةً عنِّي على غير المُتوقَّع:

ـ نتوانغو، أرجوك، فكّر في الأمر جيّدًا. فذلك المدعوّ فلوريندو، إنَّه دودة حقيرة...

لا يسمح إمبيبيه بالجدال. يأمرنا بأن نخرس. هل ندري أيَّ مؤامرة تُحاك ضدّ شخصه في سكون اللَّيل؟ هل ندرك مدى عزلته وضعفه؟ ولكنَّه بإسداء الخدمات إلى المحافظ يحصل على فرصة سانحة لنيل الحماية والاحترام من جديد.

في صمت، تعدّ أمّي اللَّازم كي أغتسل، وتلبسني ثيابي، وتصفِّف شعري. ترافقني إلى مقرّ فلوريندو ماكوالا والغروب يراقبنا. تمكث على الطريق جامدة، تراقبني وأنا أجتاز الباحة، وتناديني قائلة:

ـ الوشاح يا بنيَّتي...

ثمَّ تمسح بيدها على وجهي، متظاهرةً بأنَّها تسوِّي تصفيفة شعري. وتظلُّ على تلك الحال، سجينة لفتتها. تُنعم النظر إليَّ قبل أن تقول:

ـ لا تقلقي يا بنيَّتي، فأنتِ رائعة الجمال.

ثمَّ ترحل. تعود إلى البيت. فأبقى وحيدة، مُتردِّدة، على مدخل ذلك الذي طالما أصرَّ المحافظ على تسميته «المقرّ»، لا «البيت». لا يطول تردُّدي، فالمحافظ يحضر إلى الباب لاستقبالي ويدعوني لأدخل مكتبه. في المكتب أريكة ضخمة لا يلبث أن يشغلها وأنا أجيل بصري في الجدران، التي يظهر على أحدها تقويم هائل الحجم يصوِّر امرأة صينيَّة مستلقية على سقف السيَّارة في وضع مُغرٍ.

ـ تنقصنا صورة فخامته، تلك التي هشَّمتها أمّكِ آنيفا وهي تنظِّف. أنتظر اعتمادات ماليَّة لشراء إطار جديد...

أترقَّب واقفةً، بينما يغوص هو في ذاته، وقد مال رأسه على ركبتَيْه.

ـ ماريامار، أنا في غاية اليأس!

يدور في خَلَدي أنَّه سرعان ما يجهش بالبكاء. وفي اندفاعة تليق بأمٍّ، أجلس إلى جواره، حيث أبقى جامدةً، كما هو مُتوقَّع من شخص في منزلتي. يطلب منِّي فلوريندو:

ـ ناوليني يدكِ.

بين ارتباك وذهول، أمدُّ ذراعي وقد انفرجت أصابعي نصف انفراجة. أبقى على تلك الحال هنيهةً، بينما المحافظ لا يردُّ على لفتتي بمثلها.

ـ أتعرفين سبب مجيئكِ إلى هنا؟

أكذب، فأهزُّ رأسي نافية بخجل، ورائحة لاذعة تسلبني الهواء. يأخذ فلوريندو ماكوالا بيدي، ويمضي بي على امتداد الصَّالة كما يفعل الأزواج الطاعنون في السنّ إذ يأْوُون إلى حجراتهم. يطوي ردهة معتمة، وعند الباب الواقع في نهاية الرَّدهة، يُدني وجهه من وجهي. أشيح عنه بحدَّة، إلَّا أنَّه يصرُّ مُجدَّدًا ويهمس في مسمعي:

ـ زوجتي نافتاليندا تواجه مشكلة.

وأخيرًا، يشرح لي ما خطبه. فالدافع وراء حضوري كان بعيدًا كلّ البعد عمَّا ارتبتُ فيه. بل إنَّ مَرَدّ اليأس الذي اعترى فلوريندو كان مختلفًا عمَّا ظننتُ، في حقيقة الأمر. فلقد عرضَت زوجته أن تُقدِّم نفسها طعمًا للأسُود. حاول الزوج ثنيها عن ذلك، ولكنْ سُدى. فقد أصرَّت السيِّدة الأولى على أنَّها ستنام عارية في الخلاء، ليلة إثر ليلة، حتى تنجذب إليها الأسُود وتلتهمها. كانت تلك نيَّتها المُعلَنة، ما لم يسلك فلوريندو

مسلك الرجال بحقّ، ويتّخذ موقفًا حازمًا من مسألة تاندي وغيرها من المسائل بالغة الكثرة.

- زوجتي، زوجتي الوحيدة التي ما لي سواها...

ما عادت نافتاليندا توليه سمعًا ولا بصرًا. فتملّك الهلع من المحافظ. لا بدَّ من ثني نافتاليندا عن ذلك الهدف الانتحاريّ. ولن تنصت السيِّدة الأولى سوى لشخص مثلي عاش في العزلة نفسها، ويتحدَّث اللُّغة نفسها.

- سيِّدي المحافظ، هل أنت واثق أنَّني الشخص المناسب؟ في البيت يقول الجميع إنِّي لا أرقى حتى لمنزلة البشر...

كان المحافظ مقتنعًا كلّ الاقتناع. فأنا أشاطر نافتاليندا أمورًا بالغة الكثرة: كلتانا وُلِدت في العام نفسه، ودرست في الإرساليَّة، وقُضِي عليها بألَّا تنجب، ولذا قُدِّر لها ألَّا تكون امرأة قطّ.

- ادخلي إلى هذه الحُجرة وتحدَّثي إليها. ولكن حذار من أمر واحد، إيَّاكِ وأن تناديها باسمها القديم أبدًا. لأنَّه ما عاد يروقها الآن...

في كولوماني، يتبدَّل اسم المرء بتبدُّل الزمن والعمر. في البدء، كانت نافتاليندا تُدعى أوسيانيتا، وهي لا تزال صغيرة تُحمَل على الأعناق، الاسم الذي دُعِيَت به نظرًا لدموعها الغزيرة[1]. كانت تبكي وكأنَّها المدُّ الغامر. وكل دمعة بيضةٌ من المياه تتساقط على الأرض في دويٍّ صاخب.

(1) جدير بالذكر أنَّ «أوسيانيتا» تصغير مُؤنَّث لكلمة «أوسيانو» Oceano والتي تعني «محيطًا» باللُّغة البرتغاليَّة.

بلغت الصبيَّة عمر المراهقة وتضاعف حجم جسدها. فتخوَّفت الأسرة وحملتها إلى الأب الكاهن أموروزو ليعتني بها، لأنَّها بحاجة إلى الكثير من الأرواح من أجل جسدٍ على هذا القَدْر من الضخامة. وفي الإرساليَّة التقينا. كانت غايتي الشفاء من الشلل. أمَّا غايتها فخفَّة الجسد. استعدتُ أنا القدرة على السَّيْر، أمَّا هي، فلم ينقص وزنها قطُّ. وعلى الرَّغم من أنَّها بدَّلت اسمها، فهي لم تتخلَّص من بدانتها قطّ. ولمَّا ودَّعتُها على باب الإرساليَّة، لمحتُ مرارةً في نظراتها وخشونةً في صوتها لأوَّل مرَّة:

ـ إيَّاكِ أن تناديني باسم أوسيانيتا مرَّة أخرى. فأنا الآن نافتالياندا.

أُرسِلَت إلى المدينة فانقطعت أخبارها حتى عادت إلى كولوماني منذ أيَّام قلائل برفقة زوجها وصيَّادي، صيَّاد الأسُود. واعتبارًا من ذلك اليوم، لم أرَها إلَّا من بعيد عندما اجتاحت شيتالا الرجال منتصرةً. كانت عندي لا تزال أوسيانيتا. أمَّا عند الآخرين جميعًا، فهي لم تكُن في حاجة لاسم، لأنَّها مُجرَّد زوجة، زوجة مُميَّزة للغاية. كانت هي السيِّدة الأولى في قرية بلا سيِّدات.

***

الآن، ما عادت زوجة الزَّعيم ضخمة البدن ترغب في شيء سوى الموت. يتبادر إلى ذهني أنَّ رغبتها الانتحاريَّة من أنقى صنوف الكرم، فهي تبلغ من الاكتناز باللَّحم حتى إنَّ الحيوانات سوف تنال كفايتها من الطعام وتترك القرية في هدوء شهورًا طوالًا؛ أو لعلَّ الصيَّادين يغتنمون اللَّحظة ويوقعون الوحوش المشؤومة في شراكهم، من يدري؟...

يفتح المحافظ الباب في حَذَرٍ بالغ، ويشير إليَّ كي أدخل وحدي. أمضي قُدمًا وسط الغَبَش، حيث أهتدي بصوت أنفاس لاهثة. يبدو كأنَّ الأنفاس الخارجة تتهاوى في تعبٍ عن صدرها الضخم كما تتساقط الطيور الجريحة عن جرف هارٍ.

أبحث في الظلال، خطوة خطوة، حتى أتبيَّن حضور السيِّدة الأولى أخيرًا. تجلس وكأنَّها بوذا على أريكة عتيقة، حيث تغمس أصابعها في قدحَيْن من الخلّ.

تبادر قائلة من دون أن تلقي عليَّ التحيَّة:

ـ هذا من أجل تنعيم الأظفار.

جاء صوتها حادًّا كصرير ظفر على الزجاج. لم تنتبه إلى القشعريرة التي سرت إلى بدني. ومن دون أن تحوِّل نظراتها عن يدَيْها، تقول وهي تنفخ في أصابعها:

ـ أعشق أظفاري.

ثمَّ تردف:

ـ إنَّها الشيء الوحيد النحيل في جسدي.

تخفِّف رائحة الخلّ من الخوف اللَّاعقلانيّ الذي داهمني منذ دخلتُ إلى ذلك البيت. ثمَّ يخطر لي أنَّه شَرَك، وتسري إليَّ رعدة. ليس الأسد هو الذي تريدُ الإيقاع به، بل إنَّها تريد الإيقاع بي أنا. وأخيرًا، تستقرُّ نظرات المضيفة عليَّ.

ـ لقد صفحتُ عنكِ يا صديقتي.

الآن، بعد كلّ الأعوام الماضية، تدلي إليَّ باعترافها. فهي طالما شعرت نحوي بالغيرة، من جسدي الممشوق، من عينَيَّ

الواسعتَيْن. تلك الغيرة التي كانت تبلغ حدًّا لا يُحتمَل كلَّما حملني الفتيان على أكتافهم، كلَّما ركضوا وهم يحملونني، كلَّما سقطوا على الأرض لتغدو أجسادنا واحدة، كلَّما ضحكوا معي لتتعالى قهقهاتنا بصوت واحد.

ـ كم كرهتُك، ماريامار! كم سألتُ الرَّب أن يأخذك!

تألف عيناي نور الحُجرة، فأتأمَّلها على مهل كالعامل الذي يتحقَّق من الشحنة على رصيف الميناء. وكأنِّي بنظراتي أعمَى يتلمَّس بيدَيْه. أحدِّق إلى أوسيانيتا وإن لا أتمكَّن من رؤيتها البتَّة. مرفقاها الخفيَّان، وغمَّازتاها القمريَّتان، وانثناءاتها ومنحنياتها: كانت المرأة عبارة عن مزرعة من اللَّحم. عند ذاك، أُدرك أنَّها تضيق بمراقبتي لها. تحاول أن تنهض، فتُذكِّرني بجُرم سماويّ منطلق في رحاب الكون. أعرض عليها مساعدتي:

ـ هل أساعدكِ؟

فتأبى مفعمةً بالحيويَّة:

ـ لا داعي لذلك.

ولكنَّها لا تلبث أن تهوي، وكأنَّها بلا ركبتَيْن. تتَّكئ عليَّ، كسفينة ترسو في المرفأ. يبدو أنَّ الاتِّكاء عليَّ طويلًا يروقها. أبعدها عنِّي بحرص، وأتراجع بضع خطى إلى الخلف كي أتأمَّل. لم يتسنَّ لي تقدير حجمها عندما رأيتُها عن بعد منذ أيَّام مضت. ولكنِّي الآن أدرك مدى ضخامة نافتالياندا التي بلغت من البدانة حدًّا تظلُّ معه مستلقية حتى وهي واقفة على قدمَيْها.

وإذا هي ترفع تنُّورتها فجأةً، وتعرض الأجزاء المحظورة من جسدها، فأشيح بنظري بغتة. بينما تظلّ السيِّدة الأولى جامدة كالتمثال، عاريةً في غير حياء.

ـ أنعمي النَّظر إليّ! انظري في غير خوف، فكلتانا امرأة. كيف لرجل أن يشتهيني أنا؟ كيف لي بإغراء فلوريندو، خبِّريني؟

فأتوسَّل إليها:

ـ لا تفعلي بي هذا.

ـ ماذا أخبركِ فلوريندو؟ هل أخبركِ أنَّني قدَّمتُ نفسي طعامًا للأسُود؟ لم يفهمني. إنَّما وددتُ لو كنتُ طعامًا شهيًّا، لو كنتُ طعامًا شهيًّا بالمعنى الجنسيّ للكلمة. أودُّ أن أحبل من أسد.

كان الأسد سيحفر كعُمَّال المناجم حتى يبلغ مركزها. ذلك هو مخطّطها السرِّيّ. أنظر إليها. وجهها جميل، وعيناها غائرتان، حالمتان.

ـ ماريامار، تدرين؟ أحنُّ إلينا عندما كنَّا في الإرساليَّة. لم تكُن الإرساليَّة مُجرَّد دار عبادة، وإنَّما كانت بلدًا. أتفهمين؟ كلتانا عاشت في الخارج. كلتانا أكثر بياضًا من ذلك المدعوّ أركانچو.

أساعدها لتجلس على الأريكة من جديد. أخبرها بأنِّي سأقضي اللَّيلة معها، وأشاركها الحُجرة كعهدنا في الإرساليَّة.

ـ نافتاليندا؟

ـ ناديني باسم أوسيانيتا...

ـ هل لي بالنوم في هذا الركن؟

ـ نامي حيثما شئتِ، ولكن ساعديني على الخروج أوَّلًا، فأنا أودُّ تحقيق حلمي.

ـ لا أستطيع. قطعتُ عهدًا بألَّا أسمح لكِ بالخروج.

ـ لن نلبث أن نعود.

ـ هيَّا بنا، ولكن لوقت وجيز فحسب. وفي هذه الأنحاء، قرب البيت.

تأخذني من يدي وتمضي بي إلى أرض خلاء قبالة المحافظة. الكلّ في القرية نيام، ولا يُسمَع في الدَّغل إلَّا تغريد طائر السُّبد المحزون. تتأمَّل نافتاليندا البيوت المعتَّمة في حسرة:

ـ أشفقُ على فلوريندو. إنَّه مُهرِّج. يحسب أنَّ الناس يبجِّلونه. ليس هناك من يضمر له الاحترام، ليس هناك من يحبّه.

تخطو بضع خطى صوب الشجيرات المحيطة بالباحة، وتنتقي جذعًا عتيقًا. هناك تجلس. تظلّ على تلك الحال وكأنَّها تصلِّي. تغفو نافتاليندا في حين أظلّ مستيقظة، على مسافة منها. وشيئًا فشيئًا، أستسلم للنُّعاس أنا الأخرى، حتى يقع الأمر برمَّته في لحظة واحدة، في التباس مُشوَّش مرتبك. فبين حفيف الحشائش، والزمجرة المكتومة، ينطلق ظلٌّ كالرَّصاصة مُنقضًّا على نافتاليندا. وكوميض البرق، أرى لبؤة تحيط بجسد نافتاليندا الضخم، فتتعانقا في رقصة مميتة، ويكاد يتعذَّر التمييز بينهما.

ـ النجدة، إنَّها اللَّبؤة! النجدة!

أهبُّ لنجدتها صارخةً. فتُفاجأ اللَّبؤة بهجمتي. أندفع نحوها بقوَّة لم أتوقَّعها في ذاتي قطّ، وإذا بي أقوى وأضخم، فأرغم اللَّبؤة على

التراجع. تلك هي اللَّحظة المواتية كي تولِّي نافتاليندا هاربة. ولكنَّها تأبى مساعدتي لها، وتسارع بتسليم نفسها إلى المُعتدية من جديد. وفي غمضة عين، ندور ثلاثتنا حول بعضنا بعضًا، فيتداخل كلٌّ من الأظفار والمخالب، الزَّبَد والتنهيدات، الزئير والصرخات. يتضاعف جسدي من جرَّاء الغضب. فأعضُّ، وأخدش، وأركل. أمَّا اللَّبؤة، فتستسلم في خاتمة المطاف. تتراجع مهزومة، بما لها من وقار ملكة مخلوعة عن العرش. وتتوارى تحت جنح الظلام، فيما وراء الطريق.

لثوانٍ، أبقى مستلقية فوق نافتاليندا، وإذا بقبَّة السماء تتهاوى فوق ظهري فجأة. الألم هائل، أصرخ في يأس، أدور حول نفسي، وفي لمحة أتبيَّن فلوريندو شاهرًا مطرقة فوق رأسي، مُتأهِّبًا كي ينهال عليَّ بالضربة الحاسمة.

ـ إنِّي أنا! إنِّي أنا، ماريامار!

في حين تتعالى جوقة من الأصوات: «فلوريندو، اقتلها! تلك المرأة هي اللَّبؤة بعينها!». تتحلَّق القرية بأسرها حولنا، تطالب بتنفيذ العدالة، ونافتاليندا إلى جواري مُضرَّجة بالدّماء. تنهض على ركبتَيْها، وتفتح ذراعَيْها دفاعًا عن جسدي، ثمَّ تعلن زاعقة:

ـ إيَّاكم وأن يمسَّ أحدكم هذه المرأة! إيَّاكم وأن يمسَّها أحدكم!

أمَّا فلوريندو ماكوالا، الذي اختلط عليه الأمر، فيأمر الحشد بالابتعاد وهو لا يزال قابضًا على المطرقة. يجثو على ركبتَيْه إلى جواري للتحقُّق من حالتي. ويهمس لي بصوت جاثٍ هو الآخر:

ـ ماريامار، معذرة، فأنا لم أتبيَّنكِ في العتمة.

للوهلة الأولى، تتراجع الجموع، ثمَّ تعود إلى حماستها الأوَّليَّة، وبصوت واحد تنادي بإعدامي فورًا. تندلع الهجمة المحمومة مرَّة أخرى، فيداهمني الحلم القديم. سأقضي نحبي كما في الحلم الذي طالما راودني، وقد ارتميتُ على امتداد الشاطئ، وخيالات مُعلَّقة في الهواء كالنسور تتأهَّب لتنهش روحي. ما عادت تؤلمني اللَّكمات، ولا الرَّكلات، ما عدتُ أميِّز السباب ولا أنتبه إلى الحشد الذي يتلاشى كالموجة في البحر. فلورينـدو ماكوالا هو الذي يفرِّق القطعان الهائجة، وقد تضخَّم جسدًا وصوتًا. هكذا أراه من مكاني على الأرض، من حيث تراءى لي جبلًا، وهو يملي أوامره كإله غاضب:

ـ إلى الخلف! إمَّا تتراجعون إلى الخلف وإمَّا أقتلكم بيدَيّ العاريتَيْن.

في دهشة، تتأمَّل نافتاليندا زوجها وكأنَّها لا تعرفه. ثمَّ تتنهَّد:

ـ رَجُلي، ها قد عاد رَجُلي!

يبقى المحافظ جامدًا كتمثال ينذر بالوعيد حتى يُسمَع دويُّ رصاص فجأة. يُسمَع دويُّ طلقات بعيدة في أوَّل الأمر، فيتسمَّر الحضور لحظات طوال، بين ترقُّب وخوف. ثمَّ تتبعها طلقات أخرى أكثر قربًا هذه المرَّة، فينطلق المُتفرِّجون عدْوًا في اتِّجاه الطريق. وسرعان ما تتعالى الصيحات رنَّانةً وإن تكُن عصيَّة على الإدراك. يدور في خَلَدي أنَّ القادم هو أركانچو. جاء الصيَّاد لينقذني، ويقف أخيرًا أمام قلبي الذي خارت قواه. تُسمَع الصرخات بقدر أكبر من الوضوح الآن:

ـ قتلوا الأسُود! قتلوا الأسُود!

أنهض بمشقَّة، وبخطًى مُترنِّحة أمضي صوب الطريق أنا الأخرى. فها هو هناك، مُخلِّصي! ينبثق من العتمة ماضيًا صوبي، والسلاح على كتفه. لكنَّ هيئته تظهر أوضح فأوضح، ويتأكَّد لي أنَّه ليس أركانچو باليرو، وإنَّما هو ماليكيتو، الشرطيّ. يرفع بيمينه الأذن الدامية للأسد الساقط، وقد تحلَّقت الجموع حوله، تستقبله في جلال.

ـ قتلتُ هذا الأسد في الدَّغل.

ـ ولكنَّا سمعنا دويّ الرصاص قريبًا من هنا...

ـ لأنَّ اللَّبؤة الأخرى قُتِلَت هنا على وجه التَّحديد، على الطريق.

فتتعالى هتافات الفرحة تحيّةً له. لا أحد يُدرك أنَّ فلوريندو يساند زوجته الجريحة وحيدًا، في طريق العودة إلى البيت. وأنا الوحيد الذي لا أملك بيتًا إليه أعود. أنا الوحيد الذي أبكي، على أرض كولوماني المعتمة.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

يوميَّات الصيَّاد
(7)

الشيطان القدِّيس

«إنَّما الزمن من شمس وعظام، لا من حياة. لأنَّ الحياة ضدّ الزَّمن لا تُقاس، منسوجة من لانهايات في منتهى الدقَّة».

(مُقتطَف مُختلَس من دفاتر الكاتب)

يتناهى إلى سمعي دويُّ رصاصٍ في منتصف اللَّيل. أشعر برغبة في الخروج من پالما عَبْر الطريق بحثًا عن مصدر الرَّصاص الذي يبدو آتيًا من أنحاء كولوماني. ولكنِّي أسيرٌ، مشدود الوثاق إلى الأرض، حيث عشقتُ كما لم أعشق في أيّ وقت مضى. وإلى جواري، تنام المرأة الوحيدة في الكون بأسره. تستلقي لوزيليا على السرير شبه عارية، وكأنَّ ذلك النُّزُل المتداعي قصرها.

* * *

ـ كم اشتقتُ إلى الاستيقاظ!

تتمطَّى لوزيليا وكأنَّها تُولَد من جديد. قضيتُ ساعات وأنا أراقبها، في الغَبَش الذي خيَّم على حُجرة النُّزُل في پالما.

ـ أتراقبني منذ وقت طويل؟

ـ منذ الأزل.

ـ أفقتُ كما لو كنتُ في سبات منذ الأزل. ماذا عنك؟

ـ سمعتُ دويَّ رصاص آتيًا من أنحاء كولوماني منذ قليل. عليَّ أن أذهب.

يبدو أنَّ لوزيليا لم تسمع. تضع ثيابها بذلك الشرود الذي لا تبثّه في النَّفس إلَّا السعادة، ثمَّ تعاود الجلوس فتتكلَّم وهي تعانق الوسادة.

ـ حلمتُ بمجنونة أعرفها، نزيلة في المستشفى حيث أعمل. أتدري ماذا كانت تفعل؟

كانت المرأة تلتقط الفراشات، ثمَّ تنزع أجنحتها وتودعها في قارورة. ماذا كانت تفعل بها؟ كانت تحشو وسادتها، وتقول «هكذا أحلّق في نومي».

ـ لا بدَّ أنَّ هذه الوسادة زاخرة بالفراشات.

يتأرجح مفتاح السيَّارة في يدي. فتدرك لوزيليا الرِّسالة، وتقترح عليَّ الذهاب إلى كولوماني ثمَّ العودة إليها. فهي تودّ أن تنال قدرًا أكبر من النوم، تودّ أن تبقى فراشةً وتبحث عن أجنحة جديدة.

***

بالما بلدة صغيرة يستحيل ألَّا تلتقي سيَّارتان في شوارعها. أكاد أصطدم بالسيَّارة التي تقلّ فلوريندو ماكوالا. يفتح زجاج النافذة، ومن دون أن يترجَّل من الجيپ يسألني عمَّا أفعل هناك، بعيدًا عن القرية.

ـ كنتُ أصيد في هذه الأنحاء. ولكنِّي سمعتُ دويَّ الرصاص يتردَّد في القرية.

ـ قتلوا الأسُود. رجالي قتلوا الأسُود.

ـ وماذا يفعل هنا محافظ كولوماني؟ ألا يجدر به الاحتفال مع رجاله وشعبه الوفيّ؟

ـ أُصيبَت نافتاليندا بجرح، فجئتُ بها إلى المستشفى. ليس جرحًا خطيرًا، ولكنَّها أُحْتُجِزَت.

ـ هل وقع جرحى آخرون؟

ـ جِنتيو لقي مصرعه.

قتل جِنتيو اللَّبؤة، أمَّا ماليكيتو فقتل الأسد. لم يبقَ لي سوى التحقُّق من نجاح أولئك القتلة المجرمين، وأنا الصيَّاد الأخير في العالَم. لم يبقَ لي سوى كتابة تقرير أسرد فيه أحداث الواقعة، وأنا أركانچو باليرو خبير الرصاص، لا الكتابة.

ولكنَّ المحافظ لا يريد منِّي الذهاب إلى القرية الآن. فيستمهلني بضع دقائق في الوحدة الصحِّيَّة، لأن نافتاليندا سوف تسعد برؤيتي كثيرًا. ومن ثمَّ نعود إلى كولوماني معًا.

***

تشغل السيِّدة الأولى غرفة لشخص واحد. بالكاد تغطِّي الملاءات جسدها الضخم، وكتفها مُضمَّدة بضمّادة ضخمة تبدو عليها كما لو كانت منشفة متناهية الصغر. تأخذ المرأة بيدي وتنظر إليَّ بأمومة:

ـ لديَّ ما أودّ طلبه منك. خُذْ معك ماريامار إلى ماپوتو.

ـ ماريامار؟

ـ ابنة آنيفا الصغرى. سألحق بكما خلال أسبوع، وعند ذاك أتولَّى العناية بها.

ـ هدِّئي من روعك، سأتولَّى الأمر بنفسي.

ـ أنت رجل صالح. تُذكّرني برايموندو، أعمى القرية. بينكما شيء متشابه، شيء غريب...

ـ غريب؟

ـ إنَّ ذلك الأعمى يروح ويغدو في اللَّيل، وينام في العراء. وعلى الرَّغم من ذلك، فلطالما استثنته الأسُود من الهجوم. أتعرف لماذا لم تهاجمه قطّ؟

ـ لا تقولي إنَّه من أولئك المدعوّين أسُودًا بشريَّة!

ـ بالعكس. فوحده مكتمل البشريَّة، وحده مكتمل الإنسانيَّة، يختلف عن باقي أهل القرية. مثله كمثلك أنت على وجه التَّحديد، يا صيَّادنا...

يقاطعها ماكوالا:

ـ وأنا أيضًا، الآن.

ـ أجل، وأنت أيضًا. فلقد عُدتَ رَجلي مرَّة أخرى، فلوريندو رَجلي.

ثمَّ توجّه إليَّ الحديث مُجدَّدًا:

ـ لو أنَّك رأيتَه ليلة أمس...

فأستعجلُ الرَّحيل، في كياسة:

ـ دونا نافتالينداا، يجب عليَّ الرحيل.

ـ دعني أنظر إليك. كم تبدو سعيدًا، وشابًّا.

ـ بِتُّ ليلتي ومعي رفقة حسنة.

ـ وأنا أيضًا، بِتُّ ليلةً سعيدة، بعد كلّ هذا الزمن. فلقد عشقتُ عشقًا هانئًا، ونمتُ نومًا هانئًا، وحلمتُ حلمًا هانئًا، على الرَّغم من الألم.

حلمتْ نافتاليندا بأنَّها عادت إلى حضن أمّها التي راحت تهدهدها، وإن تغنَّت لها بالبرتغاليَّة، ما لم يحدث على أرض الواقع قطّ. فجميع أغنيات المهد التي سمعتها كانت بلغة الماكوندي. تقول نافتاليندا:

ـ عجزت أحلامي عن التواصل مع ذكرياتي حتى الأمس. أمَّا اللَّيلة، فقد تسنَّى لي ذلك. اللَّيلة هدهدني الزمن.

***

في طريق العودة، يعترف لي فلوريندو بأنَّه سيتخلَّى عن المنصب، ويعود أستاذًا من جديد. ليس هذا اختيارًا، وإنَّما تخلٍّ.

ـ أمَّا من حيث التَّفضيل، فأنا أفضِّل السياسة. ولكنَّ السياسة ونافتاليندا لا تجتمعان.

يسكت هنيهةً، ثمَّ يردف:

ـ اكتبْ تقرير بعثة الصَّيْد، وأنا سأبلِّغ عن مغتصبي تاندي.

ـ خبِّرني بما جرى لچِنتيو.

كانت القصَّة بسيطة على غموضها، شأن كلّ ما يجري في كولوماني. إذ لقي الرجل مصرعه وهو يقتل اللَّبؤة، على حافَّة الطريق. اللَّبؤة نفسها التي هاجمت نافتاليندا وماريامار.

ـ هل أُخِذ چِنتيو على حين غرة؟

لم يكُن المحافظ مُلمًّا بدقائق التفاصيل، على الرَّغم من علمه بأنَّ مُقتصَّ الأثر واللَّبؤة قد لقيا مصرعهما متعانقَيْن، وكأنَّهما يعرفان أحدهما الآخر، وكأنَّ صلة قرابة حميمة تجمع بينهما.

ـ اضطررنا للفصل بين الجسدَيْن بمشقَّة بالغة، وكأنَّها ولادة معكوسة. بل ويُقال إنَّ الكاتب أجهش بالبكاء، فلم يتمكَّن حتى من التقاط الصور.

***

أتخيَّل الكاتب ودموعه. لا بدَّ أنَّها دموع مُختلَقة، مثلها كمثل الكلمات التي يخترعها. ويدور في خَلَدي أنَّ الرحلة كانت تستحقّ العناء بالنِّسبة له. فالآن، عرف غوستاڤو ريغالو ما الأسد. وزاد علمًا بالبشر. لن يعاود السؤال عن الدافع وراء الصَّيْد أبدًا، لأنَّه سؤال بلا جواب. فالصَّيْد يجري من وراء العقل: الصَّيْد شغف، دُوار مشوبٌ بالهذيان.

يرميني غوستاڤو بسؤاله عن كثب:

ـ أتشعر بالحزن لأنَّك لستَ أنت قاتل الأسُود؟

ـ الحزن؟ أنا؟

ـ أعرف بما ستجيبني. بأنَّك لا تقتل، وإنَّما تصيد.

بِتُّ ليلتي مع امرأة أحلامي. فكيف لي أن أكون حزينًا؟ ربَّما كنتُ الآن طامعًا في ليالي الزمن جميعًا. فالصيَّاد رجل يدمن المعجزات. الصيَّاد شيطان قدِّيس.

ما روَتْه ماريامار
(8)

دماء الوحش، دموع المرأة

«أَيُّمَا بيوت العنكبوت اتَّحدت، صار الإيقاع بالأسد ممكنًا».
(قول مأثور من إفريقيا)

أعترف الآن بما كان يجب عليَّ الإفصاح عنه منذ البدء: فأنا لم أُولَد قطّ، أو بالأحرى وُلِدتُ ميّتة. وما زالت أمّي تنتظر بكاء ميلادي. وحدهنَّ النساء يعرفن كم يموت المرء وكم يُولَد في لحظة الميلاد. فليس الميلاد جسدَيْن يفترقان، وإنَّما جسد واحد يتمزَّق، جسد واحد أراد أن يحتوي حياتَيْن. ليس الألم البدنيّ أشدّ ما يضني المرأة في تلك اللَّحظة، ولكن ألمًا آخر. فذلك شطر يفترق عنها، صَدْعٌ في دربٍ يلتهم أبناءنا شيئًا فشيئًا، واحدًا تلو الآخر.

ولذا، فلا ألم يفوق ولادة جسد بلا حياة. بين ذراعَيْ أمّي أوْدَعوا ذلك الكائن الذي لا روح له، ثمَّ غادروا الحُجرة جميعًا. يُقال إنَّها راحت تغنّي من أجلي وتهدهدني، وتتلو الابتهال الذي تلته احتفالًا بولاداتها السَّابقة. وبعد مضيّ ساعات، أخذ أبي جسدي الذي لا وزن له بين ذراعَيْه، وقال:

ـ سندفنها على ضفَّة النهر.

عند حافَّة المياه يُدفَن أولئك الذين لا اسم لهم. هناك تركوني، كي أذكر إلى الأبد أنّي لم أُولَد قطُّ. عانقتني الأرض الرَّطبة بالحنان

الذي أولتني أمّي وأنا بين ذراعَيْها الخائرتَيْن. ما زلتُ أذكر ذلك الحضن المعتم، وأعترف أنّي أحنُّ إليه كما يحنُّ المرء لجَدَّة بعيدة.

أمّا في اليوم التالي، فقد لاحظوا تحرُّك التراب على قبري الحديث. هل نبش رفاتي حيوان يعيش تحت الأرض؟ فما كان من أبي إلّا أن تسلَّح بساطور ليدافع عن نفسه إن خرج ذلك الكائن من تحت سطح الأرض. لم يُضطَرّ لاستخدام السلاح، إذ برزت ساق ضئيلة من التراب وتدحرجت على الأرض كالصَّاري الأعمى، ثمَّ ظهرت الأضلع، فالكتفان، فالرأس. كنتُ أُولَد. وكالمولودين حديثًا، سرَت إليَّ الاختلاجة نفسها، وندَّت عنّي الصرخة العاجزة نفسها. كنتُ أُولَد من بطن الأرض، من حيث تُولَد الأحجار، والجبال، والأنهار.

يُقال إنَّ أمّي في تلك اللَّحظة بلغت من الشيخوخة حدًّا لن تتجاوزه يومًا. وما الشيخوخة إلّا ترقُّب الداء. في تلك اللَّحظة، كانت آنيفا أسّولوا عبارة عن داء. نظر أبي إلى وجه أمّي الممتقع سائلًا:

ـ هل أكون أبًا لخُلْدٍ[1]، أنا؟

عند ذاك، لاح ضوء غريب على وجهي الصغير. وفي تلك اللَّحظة، تجلَّى مدى عمق عينَيّ، عينَيّ العميقتَيْن كمياه النهر. جعل الحضور يتأمَّلون وجهي، فلم يتحمَّلوا حريق نظراتي. وفي خوف، قال أبي مُتردِّدًا:

ـ عيناها، هاتان العينان...

---

(1) الخُلْدُ: حيوان برّيّ له عينان مَخْفِيَّتان تحت الجلد وأرجل أماميَّة قويَّة وقائمتان أماميَّتان للتنقيب. يتغذّى على ديدان الأرض، ويعيش أغلب وقته في جُحْر تحت سطح الأرض.

وإذا الارتياب يبدو على الجميع، فأنا لم أكُن من البشر. لم يجرؤ أحد على الكلام. ولكنْ سرعان ما أدركت أمّي أنَّ عينَيّ الصافيتَيْن تشفَّان عن روح آخر مُبعَد. فراحت تتساءل في نحيب منعزل عن السَّبب الذي جعل عينَيّ صفراوَيْن إلى هذه الدرجة، حتى وكأنَّهما شمسيَّتان. هل شُوهِد شخص أسْوَد بهاتَيْن العينَيْن يومًا؟ ربَّما اتَّقدت عيناي من فرط البحث في جوف الأرض المُدلَهِمّ.

يُقال إنَّ الظلمات مملكة الموتى، بَيْد أنَّه قول عارٍ من الحقيقة. فليس للظلمة وجود إلَّا عند الأحياء، مثلها كمثل الضياء. أمَّا الموتى فيسكنون الشفق، ذلك الصَّدْع القائم بين اللَّيل والنهار، حيث ينطوي الزمن على ذاته.

من عاش في العتمة ابتكر أنوارًا. وتلك الأنوار بشرٌ، وأصوات أشدّ إيغالًا في القِدَم من الزمن. أمَّا نوري أنا، فلطالما كان يُدعَى أدچيرو كاپيتامورو. علَّمني جَدّي ألَّا أخشى الظلمات، لأنِّي فيها أكشف عن روحي اللَّيليّ. بل إنَّ العتمة هي التي كشفت لي من كنتُ أنا طوال الوقت: لبؤة. هذه أنا. لبؤة، جسدًا وشخصًا. لي هيئة البشر، ولكنْ حياتي بمثابة تحوُّل بطيء. فأقدامي تتحوَّل إلى قوائم، وأظفاري إلى مخالب، وشعري إلى لُبدة. الطفرة التي استغرقت كلّ هذا الوقت. كان الانتهاء من التحوُّل بسرعة أكبر ممكنًا، بَيْد أنِّي كنتُ مشدودة الوثاق إلى أصلي. تغنَّت أمّي لي أنا وحدي، فألقت تلك الأنشودة بظلِّها على طفولتي، واستمهلت الحيوان الذي في داخلي.

ولكنَّ شيئًا ما أخذ يتغيَّر في بيتنا رويدًا رويدًا، لأنِّي تُرِكت لمصيري، مثلما تُترَك الأسُود. فهجرتني آنيفا أسّولوا شيئًا فشيئًا، من

دون ذنب، من دون كلمة عزاء، وكأنَّها تفهَّمت أنِّي لم أشغل بطنها وأسكن حياتها إلَّا بصفة عارضة.

* * *

أعود إلى البيت بعد الصراع الذي دار بيني وبين اللَّبؤة، بظهرٍ مُتألِّم وذراعَيْن مقروحتَيْن. لا أقصد أمِّي. فهي لن تعتني بي. لم تبقَ لي راحة إلَّا في دخيلة ذاتي. أمضي كالحيوانات الجريحة، وأنطوي على نفسي كالجنين. وفيما أتأرجح بين اليقظة والنعاس، يتجلَّى جَدِّي أدچيرو أمامي. ليست رؤيا. بل إنَّه هو جَدِّي، في الشرفة، وقد افترش حصيرة. كان ذلك عرشه الأكثر إيغالًا في القِدَم. أسأله:

ـ ألا ترغب في الدخول؟

فيجيبني:

ـ هنا يكون الانتظار، في الشرفة.

أريد الأخذ بيده، فيأبى؛ ويقول شارحًا إنَّ أيادٍ أخرى تسانده. عند ذاك، يطلب منِّي الإنصات إليه، ويقول إنِّي غافلة عن حقائق مُتعلِّقة بوجودي. يتنفَّس عميقًا، كما لو كان يعرف أنَّه لا يملك إهدار لحظة واحدة، ثمَّ ينطلق في الحديث بلا انقطاع. وفيما يأتي ما أفضى به إليَّ أدچيرو كاپيتامورو:

«يا حفيدتي، ربَّما خلتِ أنَّكِ لستِ بشرًا. فمن الرؤى ما يداهمكِ، ومن نوبات الهَذَيان ما سوف يلاحقكِ إلى الأبد. ولكنْ لا تصدِّقي تلك الأصوات. إنَّ الحياة هي التي سلبتكِ الإنسانيَّة. فمن فرط ما عاملكِ الآخرون كما تُعامَل الحيوانات، ظننتِ أنَّكِ واحدة منها. ولكنَّكِ امرأة، ماريامار. امرأة، روحًا وجسدًا. بل وأكثر من ذلك، ماريامار، ففي وسعك

أن تكوني أمًّا. أنا الذي اختلقتُ المزاعم القائلة بأنَّكِ يابسة، عاقر. تلك الأكاذيب التي اختلقتُها لئلَّا يرغب فيكِ رجل واحد من كولوماني، فتظلّي عزباء كما أنتِ، قادرة على الخروج ومدِّ جذور جديدة بعيدًا من هنا، ولكِ الحرِّيَّة في الإنجاب من رجل يعاملكِ كما تُعامل النساء. وها قد وجدتِ ذلك الرجل. فلقد عاد. أنا الذي دعوتُه إلى كولوماني مرَّة أخرى بنفسي. تسأليني كيف دعوتُه؟ وكيف يُستدعَى الصيَّاد؟ صنعتُ الأسُود بنفسي، فذاع خبرها في أرجاء البلد كافَّة. إليكِ سرِّي الذي أخفيتُه: فما أنا بنحَّات أقنعة كما حسبوني، بل إنَّني صانع أسُود. ليس الأمر أنَّني من السَّحرة، ولكنِّي بِتُّ ربًّا منذ الممات، فعرفت أكاذيب الماضي وأوهام المستقبل. لن تلبثي أن تعودي أنتِ حفيدتي ماريامار إمبيبيه، بعيدًا عن كولوماني، بعيدًا عن الماضي، بعيدًا عن الخوف. بعيدًا عن ذاتكِ».

أُنصتُ إلى سرد أدچيرو المسهب مغمضة العينَيْن، وأدرك مغزاه. أدرك أنَّه لا يرغب في خسارة رفقتي. فها هو آخر من تبقَّى لي من الآلهة، يحتاج إليَّ أكثر ممَّا أحتاج أنا إليه. ولذا، يصرُّ على أنَّ كلّ ما في وجودي على ما يرام دومًا. فأنا بشر، ابنة بشر، وإن انتهيتُ على تلك الحال من العزلة والسرِّيَّة والارتياب في طبيعتي بسبب الإساءات التي عانيتُ منها طفلةً.

أفتح عينَيّ لمُجرَّد التحقُّق من رحيل أدچيرو. أتنفَّس عميقًا، وأنصتُ إلى صوت آخر في دخيلة نفسي، فيملأ ذلك الصوت رأسي مرَّة أخرى قائلًا: لا وجود لأدچيرو، ولا الأسُود الصناعيَّة، ولا تلك الآلهة التي تُصلح الماضي. إنَّما الحقيقة مختلفة كلّ الاختلاف: فأنا لم تشوِّهني الحياة. ولكنِّي، بصفتي امرأةً، قُوبِلت بالجحود منذ الميلاد،

فزرتُ عالَم الرجال لمُجرَّد تحسين فرصهم في الصَّيْد. وليس من قبيل الصدفة أن تصاب ساقايَ بالشَّلل، إذ كان الحيوان الذي في داخلي يطالبني بمشية أخرى، أشبه بمشية القِطط، أقرب إلى الأرض، أقرب إلى الروائح. وليس من قبيل الصدفة أن أكون عاقرًا، لأنَّ بطني من لحم آخر، وروحي قد تبدَّل به روح آخر.

❋ ❋ ❋

أذهب لرؤية اللَّبؤة القتيلة فجر اليوم، فأحسُّ بأنَّ ظهور أدچيرو بعيد عنِّي. وعلى مقربة من الطريق المُؤدِّية إلى پالما، على حافَّة الرِّمال الحمراء، تستلقي اللَّبؤة كمن يريح بدنه لا أكثر. هي نفسها التي هاجمت نافتاليندا، هي نفسها التي صارعتني. لولا بقعة الدّماء تحت منكبها لما خالها أحدٌ قتيلة. عُهِد إلى الشرطيّ ماليكيتو بمراقبة الغنيمة، لئلَّا يحضر السَّحَرة ويسرقوا لحمها. فليس يأكل لحمَ الأسُودِ إلَّا السَّحرة والضِّباع والنُّسور. تعب المُتفرِّجون جميعًا، فلم يبقَ سوى ماليكيتو يراقب الجثَّة.

أرتمي أمام اللَّبؤة وأنا في غفلة عن حضور الشرطيّ. أتأمَّل العينَيْن المفتوحتَيْن، اللِّسان المُدلَّى، وكأنَّ ما بها لا يعدو أن يكون عطشًا وتعبًا. أتحرَّر من ثيابي، أستلقي قرب اللَّبؤة وقد تعرَّيتُ كليًّا، أتَّكئ برأسي على جسدها الجامد. لعلَّ نبض قلبها لا يزال مسموعًا! من يدري؟ ولكنِّي تأخَّرتُ أكثر ممَّا ينبغي، فبالكاد أسمع الصوت الآتي من صدري.

ينظر إليَّ ماليكيتو بمزيج من الخوف والاستغراب، ثمَّ يؤكِّد شاخصًا بعينَيْه إلى الأرض مرَّة أخرى:

ـ حملوا جثمان أبيكِ منذ وقت قصير.

ـ أبي؟

ـ أجل. لقي چِنتيو إمپيپيه مصرعه. قتلَته اللَّبؤة. أما كنتِ تعرفين؟

لا أحير جوابًا. لا أتمكَّن من تقدير ما أحسُّ به. ربَّما لا أحسُّ شيئًا، أو ربَّما وقع ذلك الموت في داخلي منذ أمد بعيد!

يستطرد الشرطيّ قائلًا:

ـ كان شيئًا في منتهى الغرابة. بدا أبوكِ وكأنَّه لم يتعرَّف الخطر. فمضى قُدُمًا صوب اللَّبؤة، أعزل من السلاح. بل ويُقال إنَّه تحدَّث إليها.

چِنتيو تحدَّث إلى اللَّبؤة؟ خطر لي أنَّ القصَّة تنطوي على شيء من الزيْف. وعلى الرَّغم من كل شيء، فلقد يئستُ من البحث عن الحقيقة في هذا العالَم منذ أمدٍ بعيد. أودُّ الكلام. فيخرج من حَنجرتي صوت أجوف لا يُفهَم. يسألني ماليكيتو مندهشًا:

ـ ماذا قُلتِ؟

لم أكُن قد قلتُ شيئًا. أحاول مرَّة أخرى، بقدر أكبر من الوضوح. ومرَّة أخرى، يتأكَّد لي أنِّي فقدتُ القدرة على الكلام. ولكنَّ الأمر مختلف هذه المرَّة: فلا كلام بعد الآن. ذلك هو صوتي الأخير، وتلك هي أوراقي الأخيرة. بدماء الوحش ودموع المرأة أكتب هنا أنِّي أنا التي قتلتُ هاتيك النساء، واحدة تلو الأخرى. أنا اللَّبؤة المنتقمة. والعهد الذي قطعتُه باقٍ، بلا هوادة ولا راحة: لسوف أقضي على من تبقَّى من النِّساء حتى يخلو هذا العالَم التعِب إلَّا من الرجال، ويغدو صحراء من الذكور المنعزلين. وهكذا، يفنى الجنس البشريّ بخُلُوّ العالم من النساء والأبناء.

عود ثقاب تلتهمه النيران، هكذا أرى المستقبل؛ ومن ثمَّ تمضي السماء على خطى البشريَّة، فتذبل وتغدو عاقرًا مثلي أنا. وأمَّا الأنهار، فلا تتلقَّى المزيد من جثامين الأطفال الموتى على ضفافها. فلا مواليد بعد اليوم. لن يُولَد أحدٌ تحت الشمس حتى تعود الآلهة نساء.

اللَّيلة، أرحل مع الأسُود. من اليوم فصاعدًا، ترتعد القرى على وقع زئيري الأجوف، وتغدو البُومات طيورًا نهاريَّة من فرط الخوف.

عند أهل كولوماني، سيكون هذا النذير بمثابة تأكيد على جنوني، تأكيد على أنِّي قد انتهيتُ إلى تلك الحال من فرط ابتعادي عن آلهتي، تلك الآلهة التي تجلب السحائب وتسكبها أمطارًا. سيكون تأكيدًا على أنِّي فقدتُ عقلي عندما أشحتُ بوجهي عن التقاليد وعن الأسلاف الذين يحفظون السكينة في قريتنا. ولكنِّي لا أُذعن لغير القَدَر، فلسوف ألتقي بروحي الآخر. ولن ينوء عاتقي مرَّة أخرى بالذَّنب، كما جرى لمَّا قتلتُ ضحيَّتي الأولى. إذ كنتُ لا أزال بشرًا أكثر ممَّا ينبغي آنذاك، كنتُ أعاني من ذلك الدَّاء البشريّ الذي يُسمَّى بالضمير. أمَّا الآن، فما عدتُ أشعر بالندم. وبالتأمُّل في الأمر مليًّا، فأنا لم أقتل أحدًا، بل إنَّ جميع هاتيك النساء كُنَّ ميِّتات بالفعل، فلا حديث لهنَّ، ولا فِكْر، ولا عِشْق، ولا أحلام. وفيمَ العيش ما دِمنَ عن السعادة عاجزات؟

ذلك هو السَّبب الذي حملني على قتل أختَيّ الصغيرتَيْن منذ سنوات مضت. أنا الذي أغرقتُ التوأميْن. ظنَّ الجميع أنَّه مُجرَّد حادث وقع ونحن على متن القارب، ولكنِّي أنا الذي خرَّبتُ القارب، وانطلقتُ أجذِّف صوب أمواج البحر. فكان خيرًا لهاتَيْن الصبيَّتَيْن ألَّا يكبرا في العمر قطّ، وإلَّا ما شعرتا بالحياة سوى في الألم، في الدِّماء، في الدُّموع،

حتى يكون يومٌ تخرَّان فيه جاثيتَيْن، وتتوسَّلان إلى جلَّاديهما من أجل الصَّفْح، كما توسَّلتُ أنا طوال الأعوام الماضية إلى چِنتيو إمپيپيه.

أنا الذي اقتدتُ سيلينسيا إلى فُوَّهة الموت فجرَ ذاك اليوم المحفوف بالموت. كانت هي أختي، صديقتي، ولاسيَّما شخصي الآخر. وإن كانت الغيرة عقبة وعرة في سبيلها. فلطالما أرادت سيلينسيا أن تكونني أنا، أن تعيش ما أعيش، أن تحبَّ من أحبّ. ولطالما استولت أختي على أحلامي، الأمر الذي فعلَتْه مع الصيَّاد باليرو هو الآخر. فسرعان ما ندمتُ لأنِّي رويتُ لها عن اللِّقاءات التي جمعت بيني وبين الزائر، إذ اتَّهمتني بقلب الأوضاع، وكأنَّ القصَّة لها هي. كان الإحساس بالغيرة هو الذي يعذِّبها في واقع الأمر، فهي لم تكُن تملك الشجاعة الكافية لابتكار حياة أخرى. لم تمُت بانتهاء حياتها، بل كانت ميِّتة من فرْط الخوف.

***

ها قد بلغتُ النهاية. وكلّ نهاية بداية، على حد قول أدچيرو كاپيتامورو. ولكنْ هذه ليست نهاية، إنَّما هي حصيلة كلّ شيء، وتداعي السماوات الأخيرة. لم يبقَ لي سوى رغبة وحيدة لم أحقِّقها بعد: أن أرى البحر مُجدَّدًا. ربَّما لهذا السَّبب يداهمني الحلم نفسه حين أغفو، وأنا في نومي البشريّ الأخير. فأرى البحر يتمدَّد وطيورًا من الزَّبَد تخترق الأجواء، وأركانچو باليرو يقوم من سبات الغرقى هذه المرَّة، فيأخذني بعيدًا عن كولوماني، إلى ذلك المكان، هناك حيث يقيم السَّرابُ وتُولَد الأسفار.

يوميَّات الصيَّاد
(8)
أزهار من أجل الأحياء

«ولقد جُبتُ مأوي رحيبة، فلم أجِد سوى في الكلمة ظلًّا».
(من دفاتر الكاتب)

يأخذني فلوريندو ماكوالا إلى الأسد القتيل، فكأنَّها رحلة إلى إخفاقي. لم أصِد أيًّا من الأسُود. في وسع أخي رونالدو أن يهدأ الآن. فلم يكُن ذلك آخر صيْدٍ لي وحسب، بل إنَّه لم يكُن صَيْدًا من الأساس. وكذلك أمِّي في وسعها أن تفخر بنبوءتها، حيثما كانت. فأنا من طريق، والصَّيْد من طريق.

❋ ❋ ❋

نعرِّج على غوستافو ريغالو في طريقنا، فأجده غارقًا وسط أوراقه المعهودة.

ـ دعْ عملك، وهيَّا نرَ الأسد الذي سقط.

ـ هذا ليس عملي، بل إنَّها يوميَّاتك التي أعيد قراءتها.

ـ هل تستحقّ العناء؟

ـ أنصتْ إليَّ، فأنا كاتب وأعرف كيف أقيِّم النصوص. من يكتب مثلك لا حاجة به إلى الصَّيْد.

أشعر بغصَّة في حلقي. غوستافو لا يتخيَّل قيمة المكافأة التي أهداني إيَّاها.

برسالة وجيزة، بدأت قصَّتي مع لوزيليا. كما أنَّها ـ الرَّسائل ـ هي التي كانت تجعل أبي يجثو بين يديْ زوجته التي لم يحبّها. أمَّا الشعور الذي راودني نحو رونالدو حين لزم البيت، جالسًا كالملوك في صحبة الكتب، فهو الغيرة. لطالما كان مكاني الطريق، الدَّغل. والآن يهبني غوستافو بيتًا. ربَّما لهذا السَّبب أقدِّم له بندقيَّتي العتيقة، ولكنَّ غوستافو يأبى، فأسأله:

ـ ألن نتبادل الأدوار، فتصيد أنت وأكتب أنا؟

ـ لقد وهبتَني ذلك الشيء الذي يسبق البندقيَّة في عمليَّة الصَّيْد.

***

نذهب لرؤية الأسد، غنيمة الحرب التي كبَّدتنا خسائر فادحة. تقطع السيَّارة مسافة قصيرة، على مهل، وتتوقَّف على مقربة من ربوة. نترجَّل من الجيپ من دون أن ننبس بكلمة واحدة، ثم نقطع طريقًا مختصرة على حافَّة النهر سيرًا على الأقدام. الوقت مُبكر، والندى ما زال يلتمع في حبَّات من اللؤلؤ على الأعشاب وبيوت العنكبوت. يمضي الكاتب في إثري، والكاميرا تتأرجح على صدره. تخدش الأشواك ساقَيَّ وذراعَيَّ. خيط من الدِّماء هو إرثي الذي أنا تاركه. فأنا صيَّادٌ ينزف أكثر من الضحيَّة.

يستفهم غوستافو:

ـ من قتل هذا الأسد؟

فيجيبه فلوريندو ماكوالا الذي يتقدَّمنا:

ـ ماليكيتو. أمَّا اللَّبؤة التي هاجمت نافتاليندا فقتلها جِنتيو إمپيپيه.

قُتِلت اللَّبؤة على مقربة من الطريق، فحُمِلت في مثل هذه الساعة إلى القرية حيث من المزمع أن تُعرَض دليلًا على نجاح بعثة الصَّيْد.

أمَّا الذَّكَر الذي بدا مهيبًا، فقد بقي هنا. ولذا، طلب المحافظُ التقاط صورة للأسد، لا اللبؤة، لتُحقِّق الصورةُ عائدًا أكبر من خلال النشرات الإخباريَّة في البلاد.

❋ ❋ ❋

في موضع لاحق، تمدَّد الحيوان قربَ أجمة من الشجيرات، كما لا تتمدَّد سوى الحيوانات السِنَّوْريَّة، وقد زالت عنه هيبته الواقعيَّة. أمَّا الشيء الأكثر إثارة للدَّهشة فهي القرّادات التي كانت تمصُّ خطمه. فهي ما إن تتذوَّق طعم الموت المرير حتى تتهاوى كحبَّات بازلّاء رماديَّة متساقطة. جئتُ أرى الأسد، ملك الغابة، وإذا بطفيليَّات ضئيلة تستحوذ على اهتمامي. أتخيَّل إحدى هذه القرَّادات وهي تتضخَّم أكثر فأكثر، حتى تنفجر وكأنَّها قنبلة من الدماء، فتُضرِّج المشهد كاملًا بالأحمر.

أمَّا المحافظ الذي يقف واضعًا قدمه فوق الحيوان بِخُيَلاء، فيلجُّ في الطلب:

ـ التقطْ لي صورة وأنا مع الغنيمة.

أُمسِكُ عن تبديد الوهم الذي يراود المحافظ. فذلك الراقد هناك ليس أسدًا. وإنَّما جسد خاوٍ. لا يعدو أن يكون هيكلًا مُبعَدًا، جلدًا محشوًّا بالعدم.

❋ ❋ ❋

أذهب لزيارة آنيفا أسّولوا. لن أبقى لحضور جنازة چِنتيو، ولكنِّي أودُّ تقديم آيات العزاء على أقلّ تقدير. وفضلًا عن ذلك، فقد عُهِد إليَّ باصطحاب ابنة آنيفا، الوحيدة التي نجت بين أخواتها.

قبل الدخول إلى الباحة، أقطف بضع أزهار برّيَّة. لا أودّ الوصول خالي الوفاض. وفيما أنا جاثٍ على ركبتيَّ، أفتّش وسط الحشائش، يفزعني صوت آنيفا:

ـ الأزهار مرَّة أخرى؟

أودّ إخبارها بأنَّ هذه اللَّفتة من أجل جِنتيو، ولكنَّ الأرملة تتقدَّمني بخطًى حثيثة، بلا رغبة في سماع حديثي. نبلغ ظلال السقيفة، فتقدِّم لي مقعدًا وتفترش هي الحصيرة. في صمت، تسمح لجاراتها المُتَّشحات بالسَّواد أن يتحلَّقن حولها. لا كلمات للحديث عمَّن رحل، ولذا أهديها الأزهار في صمت، ثمَّ أقول شارحًا:

ـ إنَّها من أجل جِنتيو. فمتى سكت الكلام نطقت الأزهار.

ـ وما العمل؟ فنحن نعيش من دون أن نطلب العيش، ونموت من دون أن نأذن بالموت.

ـ يؤلمني أن تنتهي الحال على ما انتهت إليه.

وعند الوداع، تُخرِج الحديث عن القالب الدراميّ بقولها:

ـ ليس الترمُّل ما يحزنني، فأنا أرملة منذ أمد بعيد.

وتردف أنَّها قلقة بشأن ابنتها ماريامار. فهي مريضة في كولوماني، ولا أحدًا قادر على علاجها.

ـ في حوزتي أوراق من المستشفى تؤكِّد على ضرورة احتجازها. لقد جُنَّ جنون ابنتي.

ـ تحدَّثتُ إلى المحافظ. سآخذها معي. ولكنْ، أتبقين هنا وحيدة؟

ـ لديَّ قبور أعتني بها.

ـ ستزورك ابنتك.

ـ لن تقدر ماريامار على العودة. أبدًا. وإلَّا قتلها الأحياء، وطاردها الموتى.

* * *

تدخل آنيفا إلى البيت، ثمَّ تعود بعد دقائق وذراعها في ذراع فتاة:

ـ هذه ابنتي.

كانت الشابَّة قد لفَّت جسدها بعباءة الكاپولانا التي حجبت بعضًا من وجهها. تسير بخطى واهنة، كما لو كانت فزَّاعة، وقد تدلَّت من يدها مُفكَّرة يُقرأ على غلافها «يوميَّات ماريامار». ما إن تتلاقى نظراتنا حتى ينتابني دُوار. وإذا بعينَيْها العسليَّتَيْن تأخذاني إلى ماضٍ خِلتُ أنَّه قد تلاشى. أشيح بعينَيَّ عنها. فأنا صيَّاد، أعرف كيف أتملَّص من الشِّراك. لها عينان مفعمتان بالضياء حتى إنَّهما تنشران العتمة في أرجاء العالَم. ولكنَّها عتمةٌ حميدة، خَدَرٌ ناعم من عهد الطفولة. ومن فرط صفاء عينَيْها، ردَّت لي ماريامار شيئًا فقدتُه منذ أمدٍ بعيد وهي لا تدري. أمَّا الآن، فأتوجَّه إليها وكأنِّي أستأنف حديثًا قد انقطع. أسألها بصوت مُتهدِّج:

ـ ألا تحملين سوى المُفكَّرة؟ ألا تحملين حقيبة ثياب؟

فتتدخَّل أمّها قائلةً:

ـ إنَّها لا تتكلَّم. لم تعُد إلى الكلام منذ البارحة.

تشير ماريامار إلى المُفكَّرة. فتُذكِّرني تلك اللعثمة برونالدو. تُذكِّرني بأخي المسكين الذي قضى حياته وهو على علاقة غاية في

الحميميَّة بالكلمات، والآن ما عاد يملك منها سوى أكثرها بدائيَّة. تلوِّح الفتاة ذات العينَيْن العسليَّتَيْن بذراعَيْها، فتنفتح عباءة الكاپولانا كالجناحَيْن، في حين تترجم لي أمّها:

ـ تقول إنَّ هذه المُفكَّرة ثوبها الوحيد.

* * *

أمهلهما فسحة من الوقت، وأتنحَّى جانبًا لتودِّع آنيفا وماريامار بعضهما بعضًا. ولكنْ ما مِنْ وداع. إن هي إلَّا يد تتمهَّل في اليد الأخرى. ذلك هو الحديث الوحيد الذي يدور بين الأمّ والابنة. ترمي الأمّ إلى غاية من وراء هذه اللَّفتة، إذ تضع في يد ابنتها ما يشبه العقد خلسة. أقول:

ـ وأنا أيضًا أحبُّ إهداء العقود.

فتصوِّب آنيفا قولي:

ـ ليس عقدًا. إنَّ ما أعطيتُه لماريامار حبل الزَّمن العتيق. فجميع نساء الأسرة قد أحصين شهور الحَمْل على هذا الحبل الطويل.

تتأثَّر ماريامار بالهديَّة. فيخيِّم على عينَيْها ظلٌّ، وتترك المُفكَّرة تسقط من يدها. أتمكَّن من قراءة الصفحة الأولى من المُفكَّرة المفتوحة قليلًا على الأرض، الصفحة التي جاء فيها ما يلي: «لقد كان الرَّبُّ امرأة...». أبتسم، وأنا محاط في تلك اللَّحظة بإلهتيْن؛ إذ تتولَّى امرأتان رتقَ حكايتي المُمزَّقة، في ذلك التصدُّع بين عالَمَيْن، وكلٌّ منهما تقف إلى جانبٍ من جانبَي الوداع. أتأمَّل السحائب في سيرها المتثاقل الملتوي كالنساء = الحبالى. لن تلبث أن تمطر. وفي پالما، تنتظرني المرأة التي انتظرتُها مدى الحياة.

* * *

أستقلُّ السيَّارة، وتجلس ماريامار إلى جواري. عند ذاك، أودِّع آنيفا مرتبكًا:

ـ وداعًا، آنيفا.

ـ هل أحصيتَ عدد الأسُود؟

ـ أعرف عددها منذ اليوم الأوَّل.

ـ تعرف عددها، ولكنَّك لا تعرف من هي.

ـ أنتِ محقَّة. ذلك فَنٌّ لن أتعلَّمه ما حييت.

ـ تعرف حقّ المعرفة أنَّ الأسُود كانت ثلاثة، وما زال أحدها ناقصًا.

أتلفَّتُ حولي وكأنِّي أراقب المنظر. هذه آخر مرَّة أتأمَّل فيها كولوماني. آخر مرَّة أنصت فيها إلى صوت هذه المرأة. وبالاحترام الذي يليق بالمرَّات الأخيرة، تهمس آنيفا أسّولوا في مسمعي:

ـ إنِّي أنا اللَّبؤة الباقية. وذلك هو السِّر الذي لا يعرفه سواك، أركانچو باليرو.

ـ دونا آنيفا، ولِمَ تخبريني بهذا؟

ـ إليك اعترافي. إليك حَبْل الزمن الذي أودعه بين يدَيْك.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook